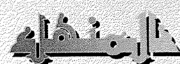

المنهل
AL MANHAL
مجلة العرب الأدبية الثقافية
العدد (٥٩٠) المجلد (٦٦) العام [٧٠] المحرم وصفر ١٤٢٥ هـ - مارس وابريل ٢٠٠٤م
مسابقة
المنهل الثقافية
قسيمة المسابقة داخل العدد
مفهوم العلم
فى العقل العربي
الموارد الطبيعية .. إلى أين؟!
الحوار
الوطني
خطوة فى الطريق
للقديم
روعته
حسين عرب
حمد الجاسر
محمد حسين زيدان
محمد حسن عواد
التحنيط ..
في خلد الطبيعة

بسم الله الرحمن الرحيم



مجلة للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

مالكها ورأس تحريرها

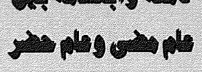
المغفور له

نبيه عبدالقدوس الأنصاري

من العام ١٤٠٣ هـ/ حتى ١٤٢٤ هـ



غلاف العدد



مما قل

دمعة وابتسامة بين عام مضى وعام حضر

دارت (عجلة الزمان) دورتها السريعة؛ فإذا بها تطوى صفحة عام (١٣٥٧هـ) لتعرض للعالم، بدلا عنها، صفحة عام (١٣٥٨هـ).

وفي اللحظات الأخيرة التي أوشكت يد الزمان أن تنجز فيها (عملية) هذا الطي والنشر؛ وهذا المحو والاثبات، استطاع الذهن المكدود أن يستعرض بعض النواحي، من آثار العام المنصرم، فمضيت في انهماك أقلب صفحاته، فهالنى ما حوته من ألوان الدمار، وأنواع الشؤم المستطير.

فتلك «فلسطين» ، الأرض المقدسة، قد هوت «يده» الجبارة على بنيانها العربي الخالد فكادت تقوضه من أساسه، وتسلطت جراثيمه الموبوءة على رياضها الغناء، فكادت تقلعها من جذورها؛ وجمعت ذنابه البشرية الساغبة من كل صوب وحدب، على أبنائها البررة فكادت تسحقهم عن آخرهم.

تأملت في كل تلك الخطوط السوداء، والمخلفات المشئومة، التى تركها لنا العام المنقضى عبءا ثقيلا وهماً طويلا، وشراً مستطيراً، وديناميتا خطيراً، فلم يتماالك القلب المصدور أن ينفث على اللسان المتلعثم قوله:

كل شيء فيك «يا عام مضى»
منذر بالشؤم في أقصى مداه

ثم نظرت الى الأمام؛ فاذا «وليد جديد» يستقبلنا بثغره الباسم، وطلته المشرقة، هو عام (١٣٥٨هـ) فاستبشرت باستقباله، وقلت: لعل سحابة الغم الثقيلة جاء دور انقشاعها بيمن هذا الطالع الجديد؛ الذى نرجو أن يكون (الطبيب) الآسى لجراح زميله القاسى. فما بعد العسر الا اليسر، وقديما قيل:

إشتدي «أزمة» تنفرجي
قد آذن ليلك بالبلج

ومن ثم ابتسمت ابتسامة ملؤها الأمانى والأمل، وقلت متفائلا للعام المستهل:

كل شيء فيك يا «عام آتي»
مؤذن باليمن في هذى الحياة

«عبدالقدوس الأنصاري»

المحرم ١٣٥٨هـ
فبراير ١٩٣٩م

المركز الرئيسي

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥
رمز بريدي ٢١٤٦١
برقيا: المنهل
فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣
تليفون: ٦٤٢٧٨٣١ ٦٤٣٩٧٦٥
٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧
الرياض: ص.ب ٢٩٠
تليفون: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٩ دراهم - مصر جنيهان تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

أما بعد

لعلَّ الآتي أفضل ....!!

ما مرّ عام إلا قلنا الآتي أفضل منه ....!
فاذا بمخبّآت الأقدار تظهر لنا فيه ما يفوق سابقه من الشدة والبؤس..!!
تُرى، هل لأنّا لا نحسن قراءة أسطر الأيام في تواليها وتعاقبها..؟!
أم لأنا نقرؤها ولا نعتبر..؟!
أم لأنا نعرض اعراضاً عن قراءتها .. ونشيح بوجوهنا عنها .. ونكتفي فقط بـ (الأماني)..؟!
مثلنا في ذلك مثل الذي يكتفي بتسكين الداء، لا علاجه..
في فلسطين المغتصبة، خمسون عاماً أو تزيد من الإذلال والقهر والظلم، من القتل والدمار والتشريد.. وكل سنة عندهم أسوأ من سابقتها.
في أفغانستان، في الشيشان، في كشمير، في العراق.. دمار في دمار.. في دمار..
إن كان كل هذا قد حدث بأيدى من لا سبيل لنا بهم، من القوى الكبرى ـ كما يقولون ـ فان من أبناء جلدتنا من أشاع الرعب والخوف، ممن تشوش فكرهم.. أبناء جلدتنا هؤلاء تشبعوا بآراء مغلوطة خاطئة، دفعت بهم في أتون القتل والدمار والتفجير.
لقد امتنَّ الحق سبحانه على القرشيين بأن (أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف).. انهما نعمتان كبريان من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده.. (من بات آمناً فى سربه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا).
أما أن تنبري حفنة من البشر لتنشر بين الناس (الخوف والرعب) وتسلبهم (لذة عيشهم، وهانيء يومهم) فإنه من نكد الدنيا، ومنغصات الحياة.
كل هذا: من مخبآت الاقدار، وعلينا ان نحسن قراءتها.. ثم لنحسن اختيار العلاج الناجع.. والكيّس من أخذ العظة من أمسه ليومه.

المحرر

الشركة السعودية للتوزيع

جدة : ٦٥٢٠٩٠٩ـ٠٢	الخفجي : ٧٦٧١٩٤٧ـ٠٣	عسير : ٢٢١٨٦٩٣ـ٠٧
الرياض : ٤٧٢٨٨٠٥ـ٠١	الطائف : ٧٤٥٤٢٢٢ـ٠٢	المجمعة : ٤٣٢٣١٦٣ـ٠٦
الدمام : ٨٤١٠٨٤٠ـ٠٣	تبوك : ٤٢٣١٨١٢ـ٠٤	حائل : ٥٣٢١٥٥٥ـ٠٦
مكة المكرمة : ٥٥٨٥٠٧٨ـ٠٢	حفر الباطن : ٧٢١٠٠٣٦ـ٠٣	ينبع : ٣٢٢٥٨٢٤ـ٠٤
المدينة المنورة : ٨٤٧٠١٢٥ـ٠٤	الجبيل : ٣٦٢٠١٥٨ـ٠٣	القريات : ٦٤٢١٢٩٦ـ٠٤
الباحة : ٧٢٧١١٧٥ـ٠٧	جازان : ٣٢٢٠١٠٤ـ٠٧	القصيم : ٣٢٤٣٠٧٠ـ٠٦
الدوادمي : ٦٤٢١٢٧٤ـ٠١	نجران : ٥٢٢٠٩٠١ـ٠٧	الرقم المجاني : ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦
الجوف : ٦٢٥١٨٨٢ـ٠٤	الاحساء : ٥٩٢٧٧٠٧ـ٠٣	

المشرف العام
أ.د/ عبدالرحمن الطيب الأنصاري

رئيس التحرير
المدير العام
زهير نبيه عبدالقدوس الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.

اشارة

تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

العنوان البريدي :
E-mal: AL-Manhal@Al-manha.Com.sa
عنوان موقع الإنترنت :
URL: WWW.AL-Manhal.Com.Sa

فهرس العدد

الاشتراكات

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤
قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال

وكلاء التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات:
يراجع بشأنها
الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ـ جدة تليفون: ٦٣٩٦٠٦٠ ـ فاكس: ٦٣٩٤٠٩٥

العدد ٥٩٠ ـ المجلد: ٦٦ ـ العام: ٧٠

فقرات مستلة

افتتاحية العدد

ما كان الرفق في شيء إلا زانه

زهير نبيه عبدالقدوس الأنصاري
رئيس التحرير

هذه الأمة مرحومة.. في عصور ازدهارها عاشت متآلفة، مع اختلافها في الرأي.. يسمعون آراء بعضهم ويتناقشون ويتحاورون.. ويختلفون، ما شاء لهم أن يختلفوا .. لكن لم يحقر بعضهم رأى بعض.. ولم يلعن بعضهم بعضاً، ولم يكفر بعضهم بعضاً.. تعايشوا في تواد وتراحم والتقاء منقطع النظير..

ذلك، لأن السلف الصالح فهم وأيقن، ان الحياة كلها (اعتدال وتوازن) الحياة بكل جزئياتها وتفاصيلها ومعطياتها.

بل الكون نفسه اقامه الله سبحانه وتعالى على (الاعتدال والتوازن).

{**الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**}: توازن دقيق محسوب.. كل شيء فيها بمقدار.. ولا شيء فيها يتجاوز خطه المرسوم له.. (والشمس تجري لمستقر لها. ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون}.. انه التوازن والاعتدال.

وهذا التوازن والاعتدال في كون الله سبحانه، ينبغى ان ينسحب على خلق الله اجمعين حيث لا شطط ولا طيش، وحيث لا غبن ولا تغابن.. وحيث لا حقد ولا ضغائن. بل حياة يجرى نهرها بين الناس سهلا ميسورا، يمتَّعون به جميعهم.

التطرف في كل شيء ممقوت.. والغلو في أيّ شيء ممجوج.. حتى في الحلال والمباح.. الأكل والشرب.. مباح، لكن (**كلوا واشربوا ولا تسرفوا**).

الانفاق والتصدق على الآخرين أمر كريم محمود، ومدعوّ إليه، لكن {**ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا**} .

الكرم : من سمات الخير والبر والرحمة والرجولة، لكنه إذا زاد عن الحد المعقول فيه أصبح تبذيراً، والتبذير ممقوت (ولا تبذر تبذيرا) .. اذن، هذا الدين يحكم اهله بوسطية محكمة، هي قوام حياة الناس، واساس حركتهم المتنامية في الحياة أبدا..

{ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** }..

أمة تحكم بالعدل والقسط بين أفرادها وجماعاتها.. بل حتى بين أبناء الأسرة الواحدة.. (القوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه .. والضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له).

الأمة التى يحكمها رأى واحد فرد، يظن انه الحق وما دونه الباطل ، أمة مآلها الى زوال .. لكن الأمة التى تتبع الحكمة في آراء الآخرين، وتحترمها وتأخذ بها هى الأمة الباقية.. هذه الأمة، أمة مرحومة .. ظهرت فيها أربعة مذاهب فقهية عظيمة.. لم يقل صاحب مذهب منهم رأيي هو الصواب وما عداه هو الخطأ .. لم يقل أحد منهم بذلك..

لماذا نحن الآن، نحجر واسعاً ونضيق منفرجاً .. لماذا ...؟!

كل واحد منا الآن وكل جماعة .. وكل فرقة تقول انها الفرقة الناجية .. والآخرون هلكة في النار.. هؤلاء أهل السنة والجماعة .. وأولئك أهل الضلال والهوى !!

لماذا كل هذه التقسيمات الحادة ..؟!

كلنا مسلمون.. كلنا نعبد ربًّا واحداً .. ونصلي الى قبلة واحدة.. ورغم هذا يحدثنا البعض وكأنهم في الجنة.. وكأن الآخرين في النار..!

نعلم أن المسلمين متفاوتون في تطبيق تعاليم دينهم، حسب الاستعداد الفطري لكل منهم، لكنهم ليسوا مارقين عن دينهم.. لأنهم أصحاب قبلة واحدة.. الامام مالك ـ عليه رضوان الله ـ لما أشار إليه هارون الرشيد بحمل الناس على الموطأ دون غيره، قال له الامام مالك، لا تفعل يا أمير المؤمنين، حتى لا تكن فتنة، لأن الصحابة

رضوان الله عليهم أجمعين قد تفرقوا في الأمصار، ومعهم علم كثير وأحاديث لم تبلغ الآخرين فيعملوا بها.

وهذا ، لا شك وعي حضاري متقدم من الامام الجليل مالك بن أنس .. وهو في ذات الوقت ادراك واع للرأى الآخر ومكانته.. بل وادراك لضرورة الحفاظ على الرأى الآخر ما دام مبنياً ومؤسساً على قواعد راسخة من الاجتهاد المدرك لمسئوليته.. وهذا الفهم الحضاري المتمكن في أذهان وعقول ائمتنا الأخيار السابقين اختل كثيراً الآن، ولا نكاد نعثر عليه الا عند قلة ممن رحم ربي..

كنا نود من علمائنا الأفاضل الاكياس، ألا يحملوا الناس على رأى واحد في الفتوى، ولا على مذهب واحد، بل كنا نود منهم للحفاظ على سلامة المجتمع، وسلامة دينه، وأمنه، وتماسكه، وحفاظاً على الأمانة العلمية في ابداء الرأي أن يبينوا في فتواهم كل الآراء الممكنة الواردة في الفتوى، حسب آراء العلماء المجتهدين.. لا أن يحملوا الناس حملا على رأى واحد..

{إياكم والغلو في الدين..} قاعدة نبوية ذهبية، ينبغي ان نعض عليها بالنواجز.. ينبغي ان نقيم عليها منهج حياتنا.. كل ذلك لأن (هذا الدين متين وما شاد الدين أحد إلا غلبه).

لذلك ينبغي أن نوغل في هذا الدين برفق، وأن نأخذ منه برفق، بل أن نتعامل مع بعضنا برفق.. (ما كان الرفق في شيء إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه).

في العقدين الأخيرين من القرن السالف، ساد المجتمعات العربية الكثير من الهرج والفوضى والاقتتال، بسبب عدم بسط الحريات، والتسلط والقهر والاذلال لاصحاب الرأى المعارض.. بل وسلبه حقه المكفول له قانوناً وعرفا..

هذا اضافة الى غياب أو تغييب الرأى الديني المستنير المعتدل، الصادر من بعض العلماء المعتدلين.. إضافة الى تسلط القوى العالمية المتجبرة، بأيد ظاهرة أو خفية، على مقدرات الشعوب ومكتسباتها اضافة لبشاعات العدو الصهيوني الغاصب للأرض والعرض.. كل ذلك يظل يتفاعل في ضمير الأمة، ويقض مضجعها.. في تلك الفترة نشأ جيل جديد على مستوى عالمنا العربي والاسلامي بأجمعه، وقد حفرت تلك الصورة القاسية في مخيلته، فما كان منه - أى هذا الجيل - إلا أن يوجد مرجعياته بنفسه.. مرجعياته الدينية في الفتوى، تحليلا وتحريماً.. جهاداً ومسالمة - تكفيراً وتأمينا (إن صحت الكلمة)..

ومرجعياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. بل حتى مرجعياته الروحية والنفسية التى يطمئن لها ويهدأ بها بالا..

ومن هنا كانت البداية.. بداية الانحراف عن الجادة.. في غياب المرجعيات الموثوق بها، أو تغييبها بقصد، نشأت مرجعيات أخرى بموازاتها.. تفتى في أخطر القضايا وأدهاها وأمرها، ظناً منهم انهم على صواب.! ويشيعون فتواهم بأنها الأصوب، والأحق بالاتباع. وما عداها، فهي الباطل الصراح.. حسب رأيهم..وهنا وقعت مجتمعاتنا العربية في فوضى تناقض الفتوى.

في غياب (العلماء الربانيين) أو تغييبهم ، ظهرت فتاوى (التكفير).. وبين يديها استحلال دم الناس، من مسلمين وغير مسلمين.. استحلوا دماءهم وأموالهم، بحجة الجهاد في سبيل الله..

والجهاد في سبيل الله تعالى، وإن كان أمراً مشروعاً لكن له شروطه وأسسه التى يقوم عليها.. ولا يعلن الجهاد، ولا تقوم مسوغاته، ولا تعلن إلا من قبل وليّ أمر المسلمين، حتى لا تكون فوضى، وحتى تصان دماء الناس من الاعتداء، والأخذ بالظن، أو الخطأ..

سيدنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وهو المرجع الأعلى ما كان يقدم على غزوة من غزواته حتى يجمع أهل الرأى والمشورة، ويناقشهم في الأمر، ثم إذا ما كان منه العزم مضى وصحابته الأكارم الى ما وطنوا الرأى عليه.

كل هذا صوناً للدم والمال والعرض، من أن يؤخذ بخطأ، أو يؤخذ بظن .. او فتوى فردية لا يسندها علم محكم، أو عقل راجح، أو رأي رشيد.

لقد أعلمنا سيدنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ان المؤمن أعظم حرمة عند الله من حرمة الكعبة.. هذه الكعبة المشرفة التى نؤمها في صلواتنا ودعواتنا، وهي محرمة، فان حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتها فما بالنا نتعدى على حرمة دم المؤمن..

بل (لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم).

بل (قتال المسلم كفر، وسبابه فسوق)..

ليس هذا فحسب، بل الآية الكريمة تحذرنا بصوت عال: {**أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا**}..

لا نشك لحظة، ان قتل الناس وترويع الآمنين تحت مسمّى الدين والجهاد، ما هو إلا غلو في الدين، وتطرف، وما هو إلا الارهاب بعينه..

الحوار الوطني.. خطوة في الطريق الصحيح

علماء الأمة في كل تخصصاتهم ومستوياتهم ومعارفهم، يمثلون مرتكز الوعي في كل الأمم، وهم أهل الحلّ والعقد.. وما بلغت الدول قمة تقدمها وذروة ازدهارها ونمائها إلا باستشارة علمائها.. وبجهد العلماء تقوم حضارات وترقى أمم.. وبابعادهم عن دائرة الضوء، تسقط أمم وتنمحي حضارات.

ولقد أوصانا الاسلام كثيراً بالعلماء خيراً.. العلماء في كل تخصصاتهم ومناهجهم وعطاءاتهم.. والدولة المتحضرة أحوج ما تكون في حوار وطني دائم.. يناقش ويحاور ويجادل.. وكل يبدي رأيه في احترام متبادل ونزيه للرأي الآخر..

والمملكة العربية السعودية، في هذا الزمن المتغير المتبدل أحوج ما تكون للحوار لتركيز مفاهيم ومضامين الوحدة والتوحيد، وإعلاء راية الخير والعدل بين الناس.. وتحت هذا المضمون العام، التقى علماء ومفكرو ومثقفو وأدباء المملكة في اكبر تظاهرتين حواريتين تحت مسمى (الحوار الوطني)..

وفي كلمته المؤصلة لهذا (الحوار الوطني) يقول صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز وليّ العهد:

«ولا شك في أنكم تتفقون معي في أن أنجع الاساليب وأجداها في هذا الاتجاه هو الاقناع ومخاطبة العقل والاستعانة بالمنطق الفكري في اطار منطق سليم وحوار هادىء منظم يرتكز على بيان الحجة واحترام الرأي الآخر واتاحة الفرص لتبادل الرأي والمناقشة.

من هذا المنطلق فقد نشأت فكرة اقامة هذا الحوار الفكري في لقاء وطني بين ابناء الوطن المهتمين بهمومه المعنيين بشؤونه وشجونه ليتناول عددا من الموضوعات التي تختلف فيها الآراء ويثور حولها الجدل ويكثر فيها النقاش في جو من الحوار العلمي الموضوعي الهادىء بعيدا عن اجواء التنافر ووحشة القلوب واساءة الظن».

وكان اللقاء الأول لـ (الحوار الوطني) قد عقد في مدينة الرياض في الفترة (١٥ ـ ١٨ ربيع الأول ١٤٢٤هـ).. ومن محاور اللقاء الأول:

١ ـ تعريف الوحدة الوطنية واهمية الوحدة والاصول الشرعية التي تبنى عليها والدور الريادي للعلم والعلماء في المملكة العربية السعودية في ضمان الوحدة الوطنية.

٢ ـ الغلو والتشدد والتوسع في سد الذرائع في مقابلة التحلل من الثوابت الشرعية وأثر ذلك على المجتمع.

٣ ـ التنوع الفكري بين شرائح المجتمع.

٤ ـ حقوق وواجبات المرأة ودورها في المجتمع.

٥ ـ حرية التعبير.

٦ ـ الفتوى المعاصرة وربطها بالواقع الاجتماعي وأثر ذلك على الوحدة الوطنية وتماسك الداخل/ فتوى الافراد مقابل فتوى المجامع والهيئات العلمية دارسة وتقييما.

المحور الثاني: (العلاقات والمواثيق الدولية وأثر فهمها على الوحدة الوطنية).

ويشتمل على الموضوعات التالية: العلاقات الدولية في الاسلام الدعوة في الداخل الدعوة في الدول الاسلامية وغير الاسلامية.

١ ـ اهمية المصالح المشتركة في علاقات المملكة العربية السعودية بالدول الاخري.

٢ ـ التعامل مع غير المسلمين في ضوء الكتاب والسنة.

٣ ـ الجهاد وأحكامه.

وكنتيجة عملية للقاء الفكري الاول للحوار الوطني، انعقد في مكة المكرمة فعاليات الحوار الوطني الثاني، في مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني للفترة (٤ ـ ٨ ذو القعدة ١٤٢٤هـ) وهذا الحوار الفكري الثاني جاء ليعالج موضوعاً أساسياً (الغلو والاعتدال.. رؤية منهجية شاملة)..

وناقش المتحاورون النقاط التالية:

* الجوانب الشرعية: فبينوا مفهوم الغلو، ونهي الشريعة عنه، مع ذكر لمجمل مظاهر الغلو المعاصر وبيان الصلة بين الحاكم والمحكوم وعلاقة ذلك بالغلو والاعتدال.

* الجوانب النفسية والاجتماعية: ودرسوا فيه الموضوعات ذات الصلة بالتربية والتنشئة الاجتماعية، وأنماط وسمات الشخصية المتطرفة.

* الجوانب التربوية: ودرسوا فيها أثر المناهج الدراسية الدينية ودور المعلم ومؤسسات التعليم في إيجاد الشخصية المعتدلة.

* الجوانب السياسية والاقتصادية: وناقشوا فيه أهمية المشاركة الشعبية فكراً وتطبيقاً في معالجة الغلو، وأثر عوامل الفقر والبطالة في ظواهر الغلو والانحراف.

* الجوانب الإعلامية: وتناول الباحثون فيه التناول الاعلامي لمشكلة الغلو، وأثر الخطاب الديني في وسائل الاعلام المختلفة في مواجهة الغلو وتحقيق الوسطية والاعتدال.

وجاء في البيان الاعلامي الذى اصدره مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني: (ان اللقاء قد حقق اهدافه بنشر روح الحوار بين المشاركين بأسلوب يحقق المصالح العليا لهذا الوطن، حيث تبادل المشاركون الرؤى والافكار وتلمسوا الحلول والاقتراحات الملائمة).

جائزة أبها للثقافة ١٤٢٥هـ

جائزة سنوية للابداع في كل جوانبه.. وقد أثرت الجائزة الحركة الأدبية والفنية والفكرية والعلمية في المملكة العربية السعودية، الى جانب مجموع الجوائز الأخرى التى تقدمها الفعاليات العلمية والادبية والثقافية على مستوى المملكة.. قيمة الجوائز المقدمة لهذا العام (مليونان وخمسمائة ألف ريال) لأربعة فروع هي: (الخدمة الوطنية - الثقافة - التعليم الجامعي - والتعليم العام)..

منها : (مليون وخمسمائة ألف ريال)، مقدمة من صاحب السمو الملكى الأمير خالد الفيصل بن عبد العزيز أمير منطقة عسير.. (ومليون ريال) مقدمة من صاحب السمو الملكي الامير فيصل بن خالد بن عبد العزيز نائب امير منطقة عسير.

مجالات الجائزة ومقدارها:

أولا: الشعر الفصيح:

ديوان شعري متميز (مخطوط) أو مطبوع في نفس العام - (٢٠,٠٠٠) ريال.

ثانيا: القصة القصيرة:

مجموعة قصصية متميزة (مخطوطة) أو مطبوعة في نفس العام - (٢٠,٠٠٠) ريال.

ثالثا: الرواية والمسرح:

عمل مسرحي متميز (مخطوط) أو مطبوع في نفس العام - (٢٠,٠٠٠) ريال

رابعا: الدراسات الإنسانية والأدبية والعلمية:

بحث تراثي عن منطقة عسير عن: (العادات والتقاليد والأعراف السائدة قديما بمنطقة عسير) - (٢٠,٠٠٠) ريال.

خامسا: الفن التشكيلي :

ثلاث لوحات على ألا يزيد مقاس اللوحة عن ١٢٠ سم كأطول ضلع لها وتكون ذات إطار وإخراج جيد - (١٨,٠٠٠) ريال.

سادسا: التصوير الضوئي :

ثلاث صور فوتوغرافية لم يسبق عرضها والمقاس مفتوح وتكون مؤطرة بإطار جيد يحمي العمل من الخدش والتلف - (١٨,٠٠٠) ريال.

(شروط وايضاحات عامة)

١ - الجائزة مفتوحة للجنسين من السعوديين وأبناء دول مجلس التعاون الخليجي والعرب المقيمين بالمملكة.

٢ - تستوحي الموضوعات مما يعزز الانتماء وحب الوطن.

٣ - يفضل أن تتضمن الأعمال الفنية شيئاً من الجديد الذى لم يسبق عرضه.

٤ - تقبل الترشيحات من الجامعات والأندية الأدبية وجمعية الثقافة والفنون وفروعها بالمملكة ومن المراكز الثقافية المعترف بها ومن الشخصيات الاعتبارية، ويجوز أن يتقدم الفرد بنفسه للترشيح. وستقدم شهادة تقديرية للجهة التى فاز مرشحها مع دعوة ممثلها لحضور الملتقي.

٥ - تقدم سيرة ذاتية مفصلة عن المشارك مع صور المستندات والوثائق المثبتة لها.

٦ - ترفق ثلاث نسخ من الأعمال المقدمة.

٧ - ألا تكون الأعمال المقدمة قد سبق التقدم بها لنيل جائزة أخرى.

٨ - الترشيحات والأعمال المقدمة (البحوث - الشعر - الرواية - القصة القصيرة) مع عنوان المتسابق كاملا بما في ذلك الهاتف والفاكس ترسل أو تسلم الى (نادي أبها الأدبي - ص.ب ٤٧٨ - أبها) هاتف ٠٧٢٢٦٤٢٣٠) فاكس (٠٧٢٢٦٢١٦٥). أما (الفن التشكيلي والصور) فتسلم أو ترسل الى جمعية الثقافة والفنون بأبها هاتف وفاكس: (٠٧٢٢٥١٩٧٢) - في موعد أقصاه نهاية شهر صفر ١٤٢٥هـ.

وتتولى أمانة الجائزة فيما يختص بالتحكيم وأي ترتيب آخر ولا تعاد الأعمال المقدمة سواء فازت أم لم تفز.. والله الموفق.

اتحاد الكتاب والأدباء العرب

في الجزائر، كان انعقاد أعمال واطروحات المؤتمر الثاني والعشرين لاتحاد الأدباء والكتاب العرب.. شارك في اعمال هذا المؤتمر اكثر من (٣٠٠) من الادباء والمثقفين والعلماء والاكاديميين العرب.

جاء هذا المؤتمر تحت محور (ثقافة التغيير أم تغيير الثقافة).

وهذا المحور لا شك يظهر نوعاً من الازدواجية المتضادة.. وهذا التضاد قد يفسح المجال واسعاً لمشاركات قد تكون توفيقية من البعض إذا ما جنح بعض المشاركين الى الأخذ بأحد المتضادين إذ كانت (ثقافة التغيير) تحمل بين طياتها لازمة مراجعة دائمة ومستمرة لمسيرة الحياة في نمطيتها المستوعبة لجريات أحداث معطياتها، في السلب والايجاب، واذا كان هذا المضمون يحمل بين طياته التغيير الى الأفضل والأحسن والأجود - وهذا هو المأمول فيه والمرجو - فهذا من سنن الحياة الفاعلة.. وبخاصة إذا جاء هذا التغيير مصحوبا بقناعات مستوحاة من ضمير الأمة، ويحكي تطلعاتها، ويلبي رغباتها، ويضيف جديداً مفيداً.

أما الطرف الآخر من العنوان (أم تغيير الثقافة)، فانه يمثل خطا موازيا لصدر العنوان (ثقافة التغيير).. ونعلم أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان.. ذلك أن ثقافة كل أمة من الأمم، هي وليدة أجيال وأجيال وأجيال.. وهي تراكم عطاءات وتجارب وحكم وخبرات، غدت تمثل اليوم مرجعيات الأمة، في أخذها ورفضها.. وهو مما ارتضته الأمة عبر اجيالها.. ومن ثوابت كل أمة اضافة لما سبق، عقيدتها، ومنطوق شريعتها.

إذن، بهذا الفهم العام فان (تغيير الثقافة) يصبح أمراً غير وارد.. وهذا بطبيعة الحال لا يمنع الاجتهاد الذكي الواعي في أمر الثقافة لكن داخل دائرتها العامة، وليس خارجا عنها.

وفكرة التغيير الذاتي، من الداخل، قبل ان نجبر عليه من طرف خارجي، هذه الفكرة تكاد تكون المسيطرة، من خلال قراءة كلمات: الدكتور على عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب، والاستاذ عز الدين ميهوبي رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين، والسيد الرئيس بوتفليقة في افتتاحه للمؤتمر.. فالرئيس بوتفليقة دعاهم الى منع انكسار الأمة العربية من المحيط الى الخليج، لان الخطب واحد، وان تعددت تسمياته وأشكاله.. والاستاذ ميهوبي أشار الى ان المثقف العربي اليوم امام خيارين: اما اعادة هيكلة العقل مع الذات والآخر أو الموت اختناقا بثاني اكسيد الجهل والتخلف.

أما الدكتور على عقله عرسان فمن رأيه انه يجب على المثقف العربي أن يتخندق مع دعاة التغيير الذى يحقق التطور، ويؤمن ان التطور المعرفي مدخل لتحقيق التغيير الذى تبقى الثقافة أحد ميادينه.

بقى ان نسجل هنا للعلم: أن الكثير الكثير من توصيات وقرارات مؤتمرات علماء ومفكري ومثقفي وأدباء عالمنا العربي والاسلامي بعامة تظل طي الملفات والأضابير، لا ينظر اليها، ولا يعمل بها، بل لا يهتدى برأى منها.

في حين ان هذه المؤتمرات في عالم الدول المتحضرة، تتناولها ادارات الدولة، كل ادارة حسب تخصصها لتحول ما جاء في توصياتها وقراراتها الى انجاز، يسعد به المواطن.. وترتقى به الدولة.

وهذا هو الفارق بين مؤتمراتنا ومؤتمراتهم.. وندواتنا وندواتهم..

- المحـــرر -



جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج

* يدعو مكتب التربية العربي لدول الخليج المؤسسات التربوية والثقافية والعلمية والباحثين في الجامعات ومراكز البحوث في الدول السبع الأعضاء فيه الى الترشيح لجائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج للبحوث التربوية للدورة المالية ١٤٢٤ و١٤٢٥هـ.

وهذه الجائزة تهدف الى ابراز حركة البحث التربوي وتشجيع الباحثين من أبناء الدول الأعضاء في المكتب والقيمة المعنوية للجائزة أكثر من كونها مالية.

وموضوعات الجائزة تتلخص في الآتي:

- توظيف تقنية المعلومات والاتصالات لتطوير التعليم.
- مناهج التعليم العام في الدول الأعضاء بين الواقع والطموح.
- الجودة الشاملة في التعليم.
- المشاركة المجتمعية في التعليم.

وشروط التقدم للجائزة هي:

- أن يكون المرشح من مواطني الدول الأعضاء في مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- لا يكون المرشح قد نال جائزة عن الإنتاج المقدم أو حصل به على شهادة علمية.
- يمكن قبول العمل المشترك من قبل مجموعة مؤلفين إذا كانوا من مواطني الدول الأعضاء في المكتب.
- أن يمثل البحث المقدم نظرية تعليمية تربوية أو اسهاماً مبتكراً في مجال البحث التربوي، أو تحقيقا علمياً مكتوباً باللغة العربية الفصحى لأحد مصادر التراث التربوي العربي



فتح جديد في علاج داء السكري

بعض العلماء نجح في التوصل الى ان خلايا الطحال يمكن تحويلها الى خلايا تفرز هرمون الانسولين.. وقد تمكن علماء امريكيون من ايقاف تقدم المرض في الجرذان المختبرية، بل وتمكنوا حتى من عكس سيره فيها.

ويمنح هذا التطور الجديد املا للمرضى المصابين بداء السكري الذين يحتاجون الى حقن الانسولين (والذي يسمى ايضا سكري الاطفال، وهو داء يختلف عن السكري الذي يصيب الكبار).. ويأمل باحثو مستشفى ماساشوستس العام الذين توصلوا الى هذا الانجاز في الشروع بتجربته على البشر قريبا.

يذكر ان المصابين بهذا النوع من السكري لا يمكنهم انتاج هرمون الانسولين الضروري لتمثيل المواد السكرية والنشوية.

ويفرز الانسولين من قبل خلايا متخصصة تقع في غدة البنكرياس.. ففي هؤلاء المرضى، يقوم جهاز المناعة بمهاجمة وتدمير الخلايا التي تفرز الانسولين مما يؤدي الى زيادة كبيرة في نسبة السكر في الدم «اعادة تثقيف» لجهاز المناعة .. وقد بين الباحثون ان حقن الجرذان المصابة بداء السكري بخلايا طحالية مأخوذة من جرذان غير مصابة من شأنه «اعادة تثقيف» أو «اعادة تعليم» جهاز المناعة فيها بحيث يسمح بزرع خلايا منتجة للانسولين فيها.. ولكن الجرذان المصابة بدأت - بعد حقنها بخلايا الطحال - فعلا في انتاج خلايا الانسولين لوحدها.

ويبين البحث الجديد أن ذلك يحصل فقط عندما يتم حقن الجرذان بنوع معين من الخلايا الطحالية التي تتميز عن غيرها بافتقادها لجزيئة تسمى CD ٤٥.. وكان العلماء يعتقدون قبل نشر نتائج هذا البحث انه من المستحيل إعادة انتاج الخلايا المفرزة للانسولين.

وقام الباحثون بالتأكد من النتائج التي حصلوا عليها بحقن الجرذان الانثوية المصابة بداء السكري بخلايا طحالية من جرذان ذكرية.. ووجدوا ان الخلايا المفرزة للانسولين في كل الجرذان المصابة التي تمكنت من العودة الى حالة طبيعية تحتوي على نسبة كبيرة من كروموسوم Y الذكري، مما يثبت انها جاءت من حقنها بالطحال الذكري.

وقال دنيس فوستمان مدير مختبر المناعة في مستشفى ماساشوستس العام الذي رأس فريق البحث: «لقد توصلنا الى أن الخلايا التي تفتقد CD ٤٥ هي التي تتحول الى خلايا مفرزة للانسولين، وهذه وظيفة لم تكن معروفة سابقا للطحال».

من جانبه، قال الدكتور ديفيد ناثان مدير قسم امراض السكري في المستشفى: «إن هذه النتائج المهمة تؤشر الى أن المرضى المصابين بالمراحل الأولى من هذا المرض يمكنهم تجنب تلف الخلايا المفرزة للانسولين، كما تؤشر الى احتمال تمكن المرضى بداء السكري الكامل من الشفاء».

* آخر الأخبار عن داء السكري:

أوضح أحد المستشارين في أمراض غدد سكر الاطفال في المملكة العربية السعودية أن اكثر من ١٧٪ من سكان المملكة العربية السعودية مصابون بمرض السكر بنوعيه الأول والثاني بعد ما كانت النسبة تزيد عن ٥٠٪ عام ١٩٨٠م. وأشار المصدر المشار إليه إلى أن نسبة المرضى في دول الخليج ارتفعت الى ٢٠٪ فيما هناك ١٩٠ مليون مصاب في العالم ويتوقع أن يرتفع الى أكثر من ٣٠٠٠ مليون مصاب عام ٢٠٢٥م.. حيث يعيش ٨٠٪ منهم في دول العالم الثالث.. وأن مضاعفات مرض السكر تقود الى الفشل الكلوي وأمراض القلب وتقدر تكاليف علاج هذا المرض ومضاعفاته من ٥ إلى ١٠٪ من الدخل الوطني.

الإسلامي.

- في حال تقديم بحث منشور بغير اللغة العربية يجب أن يرفق معه مستخلص باللغة العربية.
- أن يكون البحث المقدم ملتزماً بمعايير المنهج العلمي.
- تقبل الكتب المترجمة المتميزة التي تخدم الثقافة والتربية والتعليم في الدول الأعضاء ولم تتجاوز طبعتها الأولى في اللغة الأصلية خمس سنوات عند نشر الإعلان عن الجائزة.

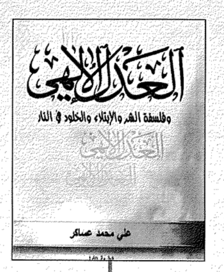
* اجراءات التقدم للجائزة:

- تقديم عشر نسخ من الإنتاج المرشح للجائزة، مع النسخة الأصلية إذا كان الإنتاج مترجماً، ولن يعاد المنتج سواء فاز المرشح أم لم يفز.
- السيرة الذاتية للمرشح ومؤلفاته المنشورة.
- ثلاث صور فوتوغرافية للمرشح.
- العنوان البريدي للمرشح ورقم هاتفه وبريده الإلكتروني.
- توجه طلبات الترشيح الى:

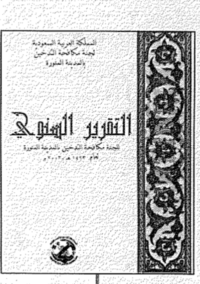
المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج
ص.ب ٩٤٦٩٣ الرياض ١١٦١٤ - المملكة العربية السعودية
WWW. abegs. org
E-mail: abegs @ abegs.org

وعلى أن تصل طلبات الترشيح الى المكتب في موعد لا يتجاوز ٣٠ شعبان ١٤٢٥هـ الموافق ١٤ اكتوبر ٢٠٠٤م وقد أسند المكتب مسؤولية اختيار الفائزين الى لجنة من علماء ومفكري المنطقة تقوم بدراسة الأعمال المقدمة، ودراسة آراء المختصين في موضوعاتها، وتمنح جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج للبحوث التربوية للفائز بها، وقدرها (١٠٠,٠٠٠ مائة الف ريال سعودي) وشهادة تقديرية بذلك. وقد تقسم الجائزة على اكثر من فائز.

كتب ومطبوعات



** صدر كتاب (العدل الالهي وفلسفة الشر والابتلاء والخلود في النار) تأليف الأستاذ علي محمد حسين عساكر - في طبعته الأولى ١٤٢٣هـ - مطبعة الاحساء الحديثة.. والكتاب يضم بين دفتيه الاجابة المفصلة عن اشكالات ثلاثة لها علاقة قوية بالعدل الإلهي وهي (فلسفة وجود الشر - ابتلاء المؤمنين دون الكافرين - خلود الكفار في النار) بالإضافة الى مقدمة في إثبات العدل الإلهي .. ويقع الكتاب في ثمانين صفحة من الحجم المتوسط.



** (مدينة رسول الله {صلى الله عليه وسلم}.. خالية من التدخين) هذا ما تهدف إليه لجنة مكافحة التدخين بالمدينة المنورة.. وهذا ما تثبته من خلال كتابها (التقرير السنوي للجنة مكافحة التدخين بالمدينة المنورة لعام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)

ويشتمل هذا الكتاب على إفادات هامة حول أهداف لجنة مكافحة التدخين بالمدينة المنورة وانجازاتها الادارية والاعلامية والارشادية وعملها الدؤوب مع أعيان المدينة المنورة ومفكريها وأطباء ومشايخ وتربويين للعمل معا على مكافحة التدخين بالمدينة المنورة التى تعطرت بأنفاس رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فكيف نلوثها بالتدخين؟!!

والتقرير السنوي يقع في حوالى تسعين صفحة من الورق المصقل مزود بالصور التوضيحية والاحصائيات الدقيقة.. ومن المعلوم أن لجنة مكافحة التدخين بالمدينة المنورة هي لجنة خيرية تسعى لحماية شباب أمتنا من الوقوع في براثن التدخين.



** «أناشيد الطفولة» ديوان شعر للأطفال - للشاعرة نوال مهني..

الديوان به مجموعة من الأشعار السلسة ذات المعاني والألفاظ البسيطة التى تتناسب مع الأطفال ويسهل عليهم حفظها وترديدها وقصائد الديوان متنوعة الأغراض منها الديني والوطني والتعليمي وغيرها ومن عناوينها: (يا مصر يا أمي - قطتي - أطفال الحجارة - إله الكون - نشيد العلم).. والديوان من الحجم الصغير الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م - الناشر مكتبة الآداب - ميدان الأوبرا - القاهرة.

آراء في الهمّ العربي

هذه زاوية نفتحها لقراء المنهل ومحبيها.. يسجلون فيها أفكارهم وآراءهم ومقترحاتهم، في الشأن العربي العام، إذ هو همّ الجميع، وهو الوطن الاكبر للجميع.. الجميع يحلم أن يراه فوق الثريا..

المرأة.. إلى أين..؟!!

في هذه الأيام كثر الحديث عن المرأة العربية، حريتها.. دورها.. أداؤها..

ومن خلال فضائياتنا العربية، تعقد الحوارات، ويكثر الجدل، في الصحف والمجلات حول المرأة.. حقوقها.. واجباتها.. تطورها.. تنميتها..!!

ليس هذا فحسب، بل أمر المرأة قد دخل الى قاعات البرلمانات العربية.. واصبح ضمن أجندتها..

بل ان كثيراً من الدول العربية أصبحت تتبارى في الحديث عن الدور الفاعل للمرأة.. وهي الآن في هذه الدولة أو تلك: هي وزيرة.. ووكيلة وزارة.. وسفيرة.. الخ.. كأنهم ينفون ويدفعون عن أنفسهم تهمة اسمها (تخلف المرأة في البلاد الاسلامية والعربية).

لكن ترى هل طوفان (النظام العالمي الجديد). الطاغي الآن سيقف عند هذا الحد.. هذا الحد المتواضع لدور المرأة - حسب رأيهم - .

(مؤتمر المرأة)... الذي عقد في مجموعة من الدول الأفريقية والعربية والأسيوية، حتى بلغ الصين، ذلك المؤتمر (البغيض) يعمل على تسويق ملامح المرأة العالمية الجديدة.. وهي ملامح في الكثير من مضامينها تخالف وتناقض ثوابت ديننا وعقليتنا، وانتمائنا الثقافي.

انهم يريدون المرأة في كل العالم على مضمون ثقافتهم وفكرهم ومناهج حياتهم.. حرية كاملة منفلتة من كل القيود والحدود.. هكذا يريدونها.. وان لم تكن المرأة عندنا هكذا، فهي في نظرهم متخلفة عن ركب الحضارة والمدنية والتقدم..!!

عندما أنظر الى مذيعات ومقدمات البرامج في بعض الفضائيات العربية، أحس بأن أولائى لا ينتمين الى مجتمعاتنا العربية إنهن غاية في التحرر!! أما مغنيات (الفيديوكليب)! فحدث ولا حرج.. ولا استطيع القول اكثر من ذلك..

ترى، هل هؤلاء وأولئك، هنّ الأنموذج الذي يبغونه في المرأة العربية..؟!!

الأمر حقيقة يحتاج لوقفة..!!

أم بهاء/ جده

الحكومة الالكترونية

(عدّي علينا بكره ياسيد) ...؟!!

قمة (البيروقراطية) و(السلحفائية) في الادارات العربية.. بطء الايقاع في الحياة العربية بعامة، تبعه بطء مماثل في حركة الأداء في اداراتنا ومكاتبنا.. كل ذلك تبعه تعطيل لمصالح الناس وأعمالهم..

... هل من بديل ..؟!

دعونا نأخذ البنوك أنموذجاً..

الآن، تُودِع وتسحب، تسدد فواتيرك، تتعامل مع الأسهم والبورصات، وأعمال أخرى.. كل ذلك، من غير أن تقف في صف طويل، ومن غير أن تنتظر الموظف حتى ينهي محادثته..

التقنية الالكترونية منحتنا كل هذه السرعة، واراحتنا من كل ذلك العناء..

هذا الانموذج المصغر، هل بامكاننا تطبيقه على كل ادارات الدولة..

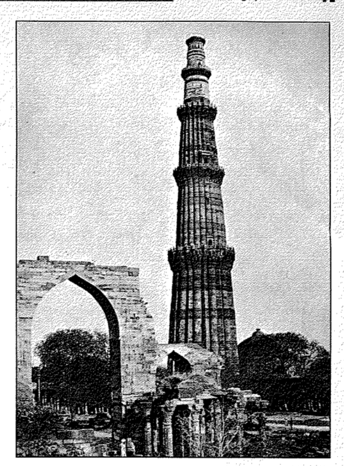
متى وكيف يستطيع الواحد منّا مراجعة مصالحه واتمام اجراءاته من غير ان يسمع (عدّي علينا بكره ياسيد).. ومن غير ان يسمع (الموظف المختص في اجازة)..

بطبيعة الحال، لا نحلم ان يكون الامر هكذا في كل شيء.. لكن لنحلم بأن بعض شيء من هذا سوف يتحقق..

أو أن (ينصلح) أمر البشر..!!

الحكومة الالكترونية يكثر الحديث عنها في زماننا هذا .. وتبقى الأيام حبلى بالكثير.

سعيد الجبريل - أبها -



جامع «قوات الإسلام» في دلهي بناه «قطب الدين أيبك» في قلعته في «لالكوت» قرب دلهي القديمة في عام ١١٩٣م.

كان العرب قد احتلوا أجزاء من الهند في القرن الثامن وقد تعزز هذا الاتصال الأول. وفي أواخر القرن السادس عشر أصبح الجزء الأكبر من الهند تحت حكم الاباطرة «الموغاليين» المنحدرين من «التيموريين» في آسيا الوسطى، ثم نشأت حضارة موحدة هندية واسلامية.

وظهرت المرحلة المهمة الأولى من الفن الاسلامي خلال مدة حكم «محمود» من «غزنة» في أفغانستان (٩٩٨ - ١٠٣٠) الذي ضم جزءا كبيرا في شمال غربي الهند والبنجاب الى امبراطوريته الكبيرة في آسيا الوسطى. وبدأ الفن الإسلامي بالتحول ليصبح جزءا مكملا للفن الهندي بعد مجيء البدو الاتراك و«الغزيين» والسلاطين «الغوريين» الى الهند في أواخر القرن الثاني عشر وظهور حكام وسلالات حاكمة من العبيد في بداية القرن الثالث عشر. وفي عام ١١٩٢ أصبحت «دلهي» العاصمة لامبراطورية اسلامية هندية موحدة وتحت حكم «قطب الدين أيبك»، وحكم «الخلجيون» و«الطوغلاكيون» الجزء الجيد من الهند ابتداءا من نهاية القرن الثالث عشر والى بداية القرن الخامس عشر . ثم تلاشت سلطنة «دلهى» بعد القيام بنهب «دلهى» من قبل «تيمور» في عام (١٣٩٩). وبعد ذلك تم احتلال الهند من قبل «الموغاليين» أحفاد الأمير «بابور» التيمورى في بداية القرن السادس عشر.

وكانت الفترة الأولى من الحكم «الموغالى» (١٥٢٦ - ١٥٤٠) قصيرة ومضطربة، وقام «همايون» إبن «بابور» بتسليم مقاليد الحكم لقادة عسكريين أفغانيين وذهب مغتربا الى مدينة «تبريز» الصفوية في إيران خلال المدة (١٥٤٠ - ١٥٥٥). وعاد «همايون» الى دلهى في عام (١٥٥٥) ليموت فيها

الفن الإسلامي

بقلم: أرنست غروب
(أمين القسم الإسلامي في متحف الفنون بنيويورك)

ترجمة : فاضل كمال الدين
- العـــراق -

بعد ذلك بعام واحد تاركا أمبراطوريته التى مازالت غير موحدة لابنه «أكبر» (١٥٥٥ ـ ١٦٠٥).

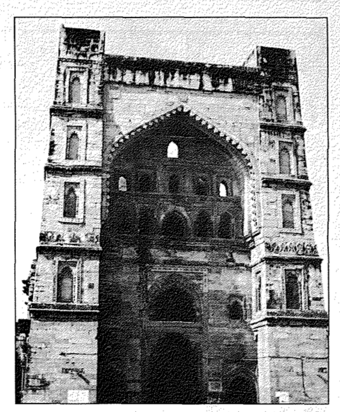
وخلال مدة حكم «أكبر» ومدة حكم «جهانجي» و«شاه جاهان» (١٦٠٥ ـ ١٦٥٨) اللذين اعقبا «أكبر» برز الأسلوب الفني «الموغالي» في الهند المسلمة متفوقا على كل أسلوب فني كان قد ظهر سابقا في الهند. ففي مجال الرسم مثلا برز مستوى جديد من الامتياز وظهرت مدرسة فنية هي من أرقى المدارس في فن الرسم الإسلامي.

الفن المعماري :

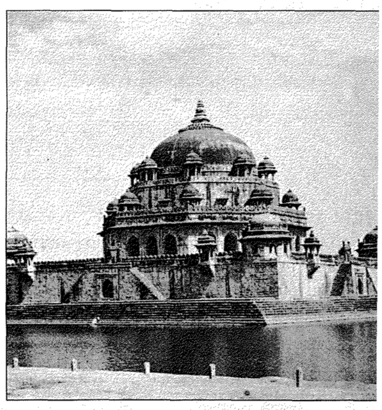
في البداية كان الفن الإسلامي في الهند تحت التأثير الكامل للأشكال الفنية الهندية ولمواد البناء الهندية، ثم تم تحويل المعابد الهندية الى جوامع أو انه كان يجري هدم المباني الهندية وتشييد جوامع ذات دعامات حجرية من المواد المفككة. ولم يبق لنا سوى القليل جدا من تلك المباني الأولى ومن زخرفتها لأن السلاطين «الغوريين» كانوا يدمرون المدن الأفغانية ـ التى كان يسكنها «الغزناويون» في الهند ـ وقام «المغول» في غزوتهم للهند في عام (١٢٤١) بتدمير «لاهور» والعديد من قصور «البنجاب» الأولى.

وأول جامع هندي مشهور بقي قائماً هو جامع «قوات الإسلام» الذي بناه «قطب الدين أيبك» في قلعته في «لالكوت» بالقرب من دلهى القديمة في عام (١١٩٣). وقد استخدمت في بناء ذلك الجامع ذي الساحة والإيوان صفوف الأعمدة التى كانت في معبد «جاين» المهدَّم ومواد المبانى المفككة الموجودة في المعابد الهندية المجاورة. وتم كذلك بناء واجهة جديدة امام ساحة المعبد «جاين» واستخدم الصحن الرئيسي في المعبد ليكون مركزاً لاقامة الصلاة، وشيد محراب ليكون في الجدار الأخير. وأهم سمة في هذا الجامع هي منارته الضخمة البالغ ارتفاعها مائتان واربعون قدما والتى تم تشييدها في عام (١١٩٩). والمنارة في هذا الجامع هي برج مضلع ومؤلف من خمسة طوابق من الأحجار الحمراء ومزخرف بكتابات منقوشة نقشا جميلا وبأحزمة زينية زهرية، وتضم هذه المنارة أربع شرفات ذات تصميم دقيق ومتقن، وواجهة الجامع تحتوي على نقوش حجرية ناتئة (ريليف). ويعتبر هذا المبنى





الإيوان الرئيسي في جامع «عطا الله» في «جونبور» في الهند. تم تشييده في عام ١٤٠٨م.

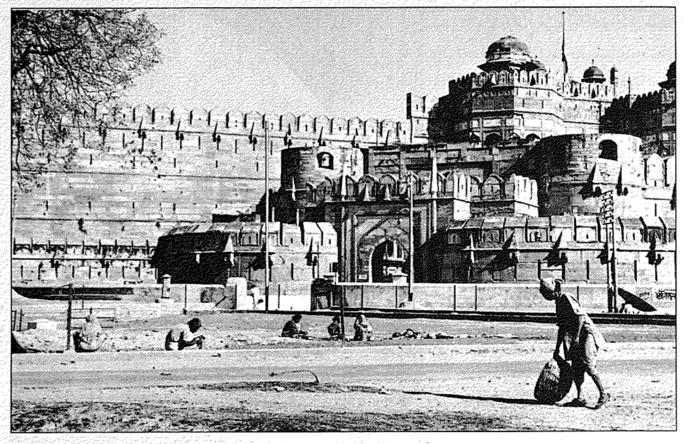


ضريح السلطان «شيرشاه» في مدينة «ساهرام» في الهند، تم تشييده خلال (١٥٤٠ ـ ١٥٤٥م).

الحجري الضخم والمحتوي على زخرفة متمثلة بالنقوش الجميلة هو الشكل القياسي للفن المعماري الاسلامي في الهند.

وبالإضافة الى الجوامع، تعتبر الأضرحة والقصور هما الشكلان الرئيسيان من الفن المعمارى. ففي القرن الثالث عشر ظهر التصميم المتمثل ببناء غرفة حجرية كبيرة مربعة الشكل أو مضلعة لايواء الضريح. وتكون هذه الغرفة عادة ذات قبة مشيدة بالاسمنت وبكسارة الحجارة ومزخرفة في جميع سطوحها بنقوش ومنحوتات فاتنة وتجريدية وجميلة. وتصميم الجدران الملتوية الموجودة في ضريح «غياث الدين طوغلاك» في «طوغلاك آباد» ، داخل شبكة من الجدران المحصنة تحصيناً متيناً، ربما يكون مشتقا من تصاميم أصلية مصدرها آسيا الوسطى. وهنا أيضا ينبىء بمزيد من تطور هذه السمة استخدام الاحجار البيضاء في الكُوَى الزخرفية المصمتة (غير النافذة) وفي الاحزمة الزينية الموجودة في الجزء الأعلى من الواجهات الأربعة.

وفي «جوينور» المستقلة عن سلطنة دلهي المركزية لمدة تزيد على قرن من الزمان، والتى لم يتم الاستيلاء عليها إلا في أواخر القرن الخامس عشر، أضيفت الى الشكل المتمثل بفخامة بناء الجوامع تقاليد التحصين الهندية وتصاميم المعابد السابقة للإسلام ومع استخدام اصيل جداً للقبب والمداخل المرتفعة التى لا تختلف عن هياكل القاعات والأواوين في الجوامع السلجوقية ذات الساحات والاواوين. ومما كان كثير الاستخدام في تلك الجوامع الاشكال الزخرفية في الكُوَى المصمتة وكذلك الاحزمة الزينية



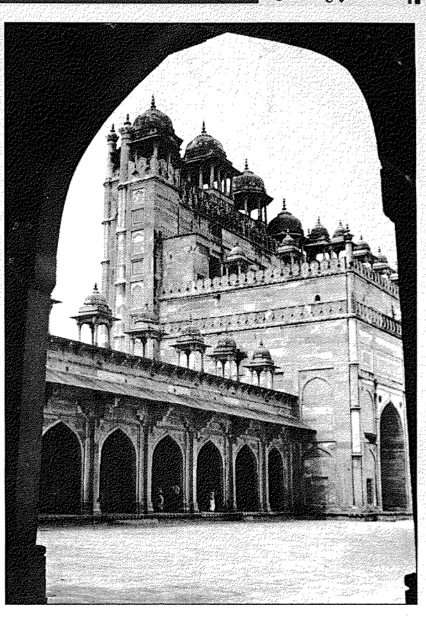
منظر لبوابة دلهي في القلعة الحمراء في «أكرا» عام ١٦٣٥م.

التى تقسم واجهات البوابات الي ثلاثة طوابق وتحدد أطر الكُوَى والمداخل، وهي أنماط مستخلصة من الأنماط التى كانت في دلهي في القرن الثاني عشر.

وهناك مبان آخرى وخاصة مباني الاضرحة التذكارية استفادت من الشكل القديم للمقاصير (جمع مقصورة) الذي يشيع فيه تعدد القبب. وأبرز مباني الاضرحة هذه هو مبنى ضريح السلطان «شير شاه». ويوجد أيضا نظام القبة المركزية المحاطة بقبب صغيرة ثانوية وكما في ضريح الإمبراطور «همايون» في دلهي والذي انتهى العمل فيه في عام (١٥٧٢).

وقد تم استبدال القاعة المكشوفة وذات الدعامات في ضريح «شير شاه» بهيكل معقد ومؤلف من أربعة مداخل ضخمة كل واحد منها يكون في منتصف كل جانب من الغرفة المقببة، وهناك غرف كثيرة الأضلاع وشبيهة بالمقصورة في كل ركن وتكون محاطة بسرادق صغير ومقبَّب.

وترتفع القبة المركزية الرئيسية فوق هيكل اسطواني الشكل ومرتفع ويذكر المرء بالقبب التيمورية في آسيا الوسطى، والمبنى بأكمله يقوم فوق دكة كبيرة، ويستخدم هنا تصميم الاروقة المقنطرة والمحتوية على كُوَى (جمع كُوَّة) مدببة، وهو التصميم التقليدي في الفن المعماري الإسلامي الشرقي في واجهات الضريح من الدكة، ويشاهد ذلك بصورة واضحة في تصميم الطوائف المزدوجة في المقاصير (جمع مقصورة) الركنية. ومن العناصر الممتعة جدا الاستخدام المتقن للمرمر الأبيض «الزخرفة بالتطعيم» في واجهات الدكة،



ساحة المدخل الى «فاتحبور سيكرى» قرب «أكرا» شيدها «أكبر» خلال الاعوام (١٥٦٩ ـ ١٥٧٢م).

مبنى «تاج محل» في «أكرا» والذي شيده «شاه جاهان» لزوجته «ممتازي محل» (جوهرة القصر) في عام ١٦٢٩. وقد شيد هذا المبنى، وهو أحد أشهر المباني في الفن المعمارى العالمي واشهر مبنى في الفن المعمارى الإسلامى في العالم الشرقي، وفق تصميم مماثل تقريباً لتصميم ضريح «همايون»، والمبنى بأكمله يقوم فوق دكة مزينة بكُوَى (جمع كُوَّة) مصمته وغير نافذة. وفي المبنى أربع منائر عالية وقائمة في أركان هذه الدكة، والبوابة الكبيرة التى تزينها زخرفة متقنة تكون أمام الجدار الذى هو سياج المبنى.

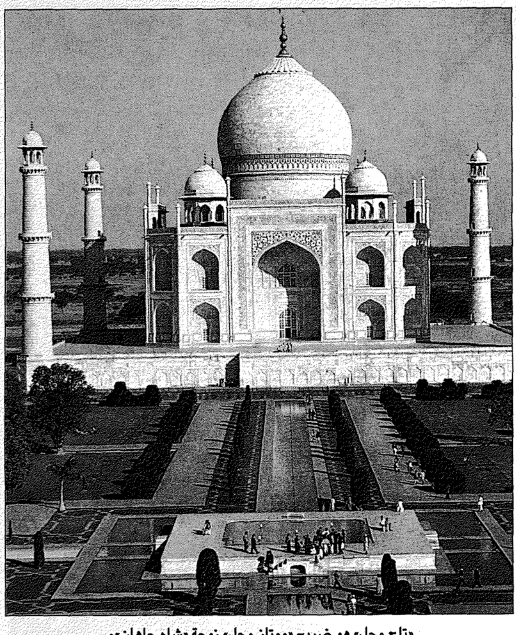
وأبرز سمة في مبنى «تاج محل» هى زخرفته الباهرة التى تتفوق كثيراً على الزخرفة في ضريح «همايون» والمبنى بأكمله مغطى بمرمر أبيض مطعم بأحجار ملونة ومن جميع الأنواع وبأشكال تجريدية وزهرية جميلة، وهذه التقنية مستخدمة أيضاً في الأجزاء الداخلية من المبنى وخاصة في زخرفة الضريح والحواجز المحيطة به وفي أجزاء واسعة من سطوح الجدران، والتأثير الذى يتولد عن ذلك كله هو نفس التأثير المتولد عن شيء نفيس كالأقداح الذهبية المرصعة بالمينا التى أنتجت لـ «شاه جاهان» في ورشات قصره والتى تعتبر من بين أجمل ما في العالم الإسلامي.

وهناك أيضاً أعمال من المرمر المتصالب والمصنع في «تاج محل» ولو أن هذه الأعمال قد وبشكل أحزمة زينية أفقية وجميل، وفي المبنى الرئيسى أيضاً، ويشيع هنا استخدام المرمر الأبيض بحيث يصبح جزءاً مكملا للتصميم بأكمله، وهذا هو أول مثال واضح على الفن المعماري المنطوي على زخرفة بألوان متعددة والذي أصبح يميز الفترة «الموغالية» بأكملها.

ووصل الفن المعمارى «الموغالي» الذروة في

وصلت ذروة تطورها في ضريح «اعتماد الدولة» في «أكرا» المشيد من قبل ابنته «نور جاهان» زوجة «جهانجير» خلال الأعوام (١٦٢٢ ـ ١٦٢٨).

وتضم المدينتان الملكيتان، وهما «فاتحبور سيكري» المشيدة من قبل «أكبر» في عام (١٥٧٥) و«القلعة الحمراء» الكبيرة في «أكرا» والمشيدة من قبل «شاه جاهان» بعد مرور قرن تقريبا على ذلك، تضمان جميع انواع المبانى والتصاميم المعمارية المختلفة وكل أنواع الزخرفة المعمارية التى كانت في ذلك الزمن.



«تاج محل» هو ضريح «ممتاز محل» زوجة «شاه جاهان». بناه الامبراطور في «أكرا» في عام ١٦٣٥م.

وتلخص تلك التصاميم والزخارف مطامح الامبراطورية «الموغالية» في مرحلتها الأولى وما كان «أكبر» يصبو إليه من الجمع ما بين كل التقاليد الحضارية الهندية والوصول الي تطبيق ممتاز للحضارة الإسلامية في الهند.

ومدينة «فاتحبور سيكرى» ، المشيدة بالقرب من «أكرا» في الأعوام (١٥٦٩ ـ ١٥٧٢)، تضم مجمعاً من المبانى المؤلفة من عدد كبير من السرادقات والشرفات والجوامع ومبانى الأضرحة، وكلها مبان شديدة التنوع من حيث التصميم والزخرفة، وفي تلك المباني استخدمت بحرية تامة التقاليد الفنية الهندية والتقاليد الفنية الإسلامية، وكانت النتيجة تركيب ناجح جداً من أساليب واشكال متباينة وكثيرة جداً، وهناك أيضا مبان مستقلة


لوحة «اباطرة وأمراء بيت تيمور» رسمت في عام ١٥٥٥م للامبراطور «همايون» في الهند من قبل الرسامين التبريزيين المشهورين «مير سيد علي» و «عبد الصمد».


لوحة من المخطوط «حمزة نامه» وهي بعنوان «أسعد ابن كريبه يهاجم جيش إيراج ليلا» رسمت في الهند عام ١٥٧٥م.

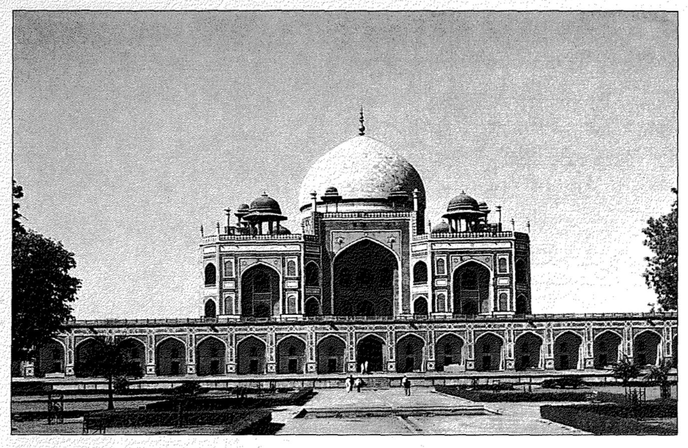
وقائمة فوق سلسلة من دكات مترابطة ودون سند لها أو تدخل من بيئة طبيعية. والزخرفة في هذه المباني مليئة بما يذكر المرء بأشكال في الطبيعة وخاصة الزهور. ويشكل مجرد ارتفاع مدينة القصور عن مستوى الأرض التى تقوم عليها إنجازاً بالغ الأصالة.

وبينما أن المجمع القصري في مدينة «فاتحبور سيكري» قد شيد من أحجار حمراء وزخرف بنقوش بارزة ومسطحة وبأعمال زينية أفقية وتجريدية بصفتها سمة رئيسية فيه، هناك أجزاء عديدة من «القلعة الحمراء» في «أكرا» نجد أن زخرفتها الباذخة قد تمت باستخدام أنماط متقنة ومتعددة الألوان من التطعيم والترصيع. وقد تطرقنا قبل قليل إلى ذكر مبنى ضريح «اعتماد الدولة» والد زوجة «شاه جاهان»، وتصميم هذا المبنى بسيط نسبياً عند مقارنته بالهياكل الأخرى المعاصرة له أو التى سبقته غير أن المبنى بأكمله مغطى بالمرمر الأبيض ومطعم بأحجار متعددة الألوان ومشكلة مع المرمر الأبيض اشكالا تجريدية وأشكالا زهرية.

وهناك أعمال زخرفية متصالبة وجميلة جداً ومستخدمة في جميع الدرابزينات والحواجز التى تحيط بغرفة الضريح، وهناك أيضاً أعمال تطعيم وترصيع ذات ثراء عظيم وهى تزخرف الأجزاء الداخلية جاعلة من هذا المبنى ما يشبه مبنى «تاج محل».

فن الرسم والفنون الزخرفية :

يبدأ فن الرسم «الموغالى» بدعوة رسامين كبيرين هما من أساتذة مدرسة «تبريز» (في إيران)

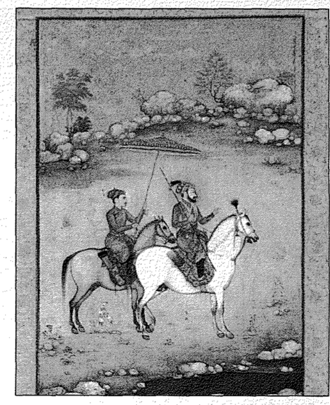


ضريح «همايون» في دلهي في الهند. عام ١٥٦٥م.

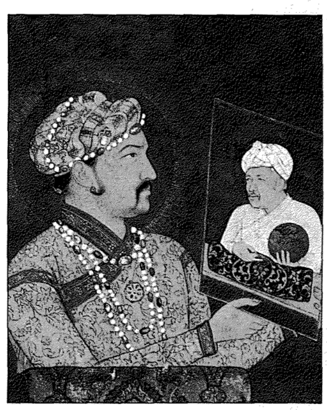
الى «كابول» حيث كان «همايون» يحتفظ بقصر له قبل عودته الى الهند.

ويبدو أن «عبد الصمد» و«مير سيد علي» كانا الرئيسان لجماعة من الرسامين الذين جمعهم الإمبراطور ليقوموا بمشروع فني طموح جدا متعلق بانتاج الكتب. ويعتبر مخطوط «دستاني أمير حمزة» الضخم أكبر مخطوط إسلامي معروف ومزود برسوم كبيرة الحجم تستوعب صفحة كاملة. واستلزم الأمر مدة خمس عشرة سنة للانتهاء من إعداده، ويمكن اعتباره حقا أعظم عمل من أعمال المرحلة المبكرة من المدرسة «الموغالية». وبالرغم من أن المنمنمات الواردة في المخطوط تعكس تقاليد فنية فارسية، وخاصة في ما يتعلق بالهياكل المعمارية والعناصر الزخرفية في مجالات المناظر الطبيعية والفن المعماري، غير أنها ليست من الطراز الفارسي بالتأكيد وإنما هي تمثل المدرسة الواقعية من حيث التفاصيل وشدة العاطفة في ما يتعلق بالأشخاص وبالتكوين العام للجماعات المنهمكة بنشاطات مختلفة: وهو شيء لا نظير له في فن الرسم الفارسي.

وهناك عدد من الرسوم التى تسبق التقاليد الفنية الفارسية ويستطيع المرء أن ينسب بعضها الى الرسام «عبد الصمد». وتلك الرسوم، التى تعكس عملا دقيقاً جداً من أعمال الفرشاة الصغيرة في حجمها والجميلة في رسم الأشخاص، زودت المدرسة «الموغالية» بنماذج لمنمنمات عديدة وهي تبين صوراً من حياة الامبراطور. وأبرز تلك الرسوم اللوحة المسماة «بيت تيمور» وهي لوحة كبيرة جداً وبشرت



لوحة بعنوان «شاه جاهان يخرج راكبا جواده بصحبة ابنه». رسمت اللوحة في عام ١٦٣٠م.



عنوان اللوحة «جهانجير يمسك بصورة والده أكبر». مرسومة من قبل «ابو الحسن» في الهند خلال الأعوام (١٥٩٩ ـ ١٦٠٥م)

بالحجم الكبير جداً لمخطوط «أمير حمزه» ، ومع ذلك احتفظت هذه اللوحة بجميع خصائص اللوحة الصغيرة ففي اللوحة المذكورة حظي المشهد الطبيعي بعناية كبيرة وخاصة في ما يتعلق بالتفاصيل المعمارية في مقاصير الحديقة، ومع ذلك فالأشخاص لهم أهمية أيضا وموضوع اللوحة ـ وهو أمراء وحكام بيت «تيمور» برهان بحد ذاته على تنامي الاهتمام برسم الأشخاص. وبالرغم من أن هذه اللوحة هي ذات مظهر عام ذي طبيعة فارسية واضحة، غير أنها تمثل بداية فن جديد في الرسم أصبح ممكن التمييز.

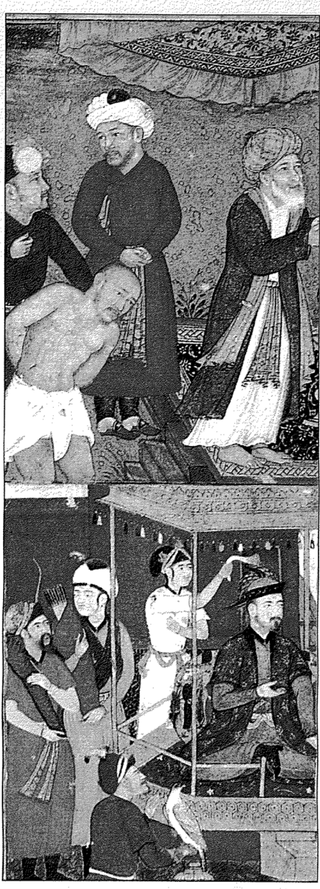
وكان الأسلوب الفني «الموغالى» قد تطور أولا على أساس فارسي وثانياً بتأثير قوي من التقاليد الفنية المحلية السابقة للتقاليد «الموغالية» في الهند. ومما لا شك فيه أن البعض من أكبر الرسامين في المدرسة «الموغالية» المبكرة، مثل الرسام «بسوان»، كانوا يتدربون في التقاليد الفنية الهندية. ويمكن ملاحظة هذا التماس مع التقاليد الفنية المحلية في الهند في كل مراحل تأريخ فن الرسم «الموغالى» ومع تبادل تأثيرات المدارس الفنية المحلية في تلال «راجبوت».

ويوجد في بعض المخطوطات الصغيرة البعض من أجمل الرسوم التى تنسب الى المدرسة «الموغالية» الفنية التى أصبح أسلوبها فائق الكمال خلال مدة حكم «أكبر». فقد كان يستخدم في الرسم الورق الصقيل والناعم جداً وكثيراً ما تزخرف الحواش برسوم دقيقة في لوحات فنية تمثل مناظر طبيعية ذهبية ومحتوية على رسوم لحيوانات وأزهار.

وكان يستخدم أيضا شكل أنيق من الخط اليدوي الذي كان ينافس ، في روعته وانسجامه، الاتقان في تلك اللوحات الفنية، وكان الأباطرة الثلاثة الكبار - وهم «أكبر» و«جهانجير» و«شاه جاهان» - شديدي الاعجاب بمخطوطات «حيرات» وجامعين لتلك المخطوطات. ومن الممكن أن كان لبعض تلك المخطوطات تأثير حاسم على تكوُّن هذا الجانب من الأسلوب «الموغالي».

وإذا تتبعنا الاتجاه العام نحو الواقعية في مجال فن الرسم، نجد أن «فن الرسم التأريخي والحكائي» قد أخذ ينمو في تلك الفترة، وهي ظاهرة لم تكن معروفة إلا من الفترة العثمانية، وهكذا ظهرت رسوم تصور مشاهد المعارك، والحياة في القصور، ومناظر صيد، ورسوم تصور الامبراطور وحريمه أو عائلته، ورسوم أشخاص حقيقيين، وكلها تسجل الحياة الواقعية للاباطرة وأزمانهم. وسعى الامبراطور «أكبر» الى انتاج المخطوط «أكبر نامه» المزين بعدد كبير

عنوان اللوحة «ثيران تسحب المدافع للهجوم على القلعة في (رانثامهور) في (راجستان)». مرسومة من قبل «باراس» للمخطوط «اكبر نامه» عام ١٦٠٠م، ومصممة من قبل «مسكين».



لوحتان مأخوذتان من المخطوط «غولستان» من تأليف «سعدي» ومرسومتان من قبل «مانوهار» أو «غلام مرزا» في الهند عام ١٦١٠م. وإحداهما بعنوان «طرد وزير مشاكس» واللوحة الثانية بعنوان «حاج محتال تبينه الحكمة».

جداً من الرسوم التى تصور احداثا في حياته وخاصة مآثره العسكرية والسياسية.

ويبدو أن فن رسم الأشخاص قد وصل ذروته من الكمال في عهد حكم الامبراطور «جهانجير» ولو أنه كانت قد ظهرت العناصر الأولى من الفن الرسمي الذي ساد أخيراً الأسلوب «الموغالى» في رسم صور الأشخاص وناقلا صورة الامبراطور من ميدان الحياة اليومية الى ميدان الحياة الرسمية في القصر مما يضع الامبراطور في مستوى رفيع من مستويات التصوير الرمزي.

وبالإضافة الى هذا التطور في الاسلوب، بقيت الواقعية دائما قوة اساسية تحرك فن الرسم «الموغالى» وهي أقوى ما تكون في رسم الأشخاص وفي المشاهد التى تصور الافراد في حياتهم اليومية. وسادت الواقعية أيضا في الرسوم التأريخية في فترات لاحقة ويمكن ملاحظتها بالتأكيد في المشاهد التى تصور معارك أو التى تصور قتالا بين أفراد. وقد حققت الواقعية نجاحاً خاصاً في لوحات كثيرة جداً وجميلة وتصور حيوانات مختلفة: وهو فن أصبح من السمات المهمة للفن «الموغالى» منذ زمن الامبراطور «جهانجير».

الفنون الزخرفية :

هناك واقعية مماثلة للواقعية في فن الرسم ويمكن ملاحظتها في الاشكال الزهرية في المنسوجات خلال الفترة «الموغالية» وبالرغم من الاعتماد، هنا أيضا والى درجة معينة، على نماذج فارسية في البداية، نجد أن المقصبات والمطرزات الحريرية «الموغالية» والسجاد «الموغالى» مليئة

بتفاصيل صور حقيقية. ويتصف السجاد «الموغالي» العائد للامبراطور «جهانجير» والامبراطور «شاه جاهان» بدرجة عظيمة من الجمال والأصالة بسبب جماله العظيم من الناحية الفنية واستخدام مادة الحرير في صنعه في كثير من الأحيان. وكثيرا ما يستخدم اللون الأحمر الباذخ للأرضية والألوان المختلفة للاشكال الزهرية والتشكيلية.

ويبدو أن الاباطرة «الموغاليين» كانوا شديدي الولع بالمعادن الثمينة، وبالذهب المزخرف بالنل والمينا، والفضة، والاحجار الكريمة. ومن بين الاشياء الكثيرة والنفيسة التى بقيت محفوظة، تبرز مجموعة من نقوش على أحجار كريمة، وهنا أيضاً يبدو أن «الموغاليين» ساروا على غرار اسلافهم «التيموريين» لأنه ليس هناك سوى القليل من النقوش الحجرية وفق الأسلوب «التيموري» يحمل أسماء أباطرة «موغاليين». وبعض القطع ذات الشكل المتصف بدقة عظيمة وزخرفة بنقوش بارزة زهرية هي قطع تحاكي اشكال الفواكه أو القواقع البحرية، والبعض منها يحتوي أيضا على رؤوس حيوانات كمقابض. وهناك أيضا قطع أخرى تكون مكسوة بمجوهرات وبخيوط ذهبية.

استنتاج :

من أهم العناصر التى تميز الفن الهندي الإسلامي هو اندماج التقاليد الفنية الهندية والاسلامية ومقارنة بأجزاء أخرى في العالم الإسلامي حيث أن هناك تمثلا كاملا للتقاليد الفنية السابقة للإسلام. والاتجاه العام نحو الثراء في الزخرفة - سواء في مجال الفن المعماري أو في



سجادة «موغالية» الهند
يعود تأريخها الى أواخر القرن السادس عشر.

مجال الفنون الزخرفية - يجد نظيرا له في فن الرسم باستخدام ألوان زخرفية قوية وموروثة من التقاليد الهندية وكذلك باستخدام الذهب، استخداماً متقناً، في فن الرسم «الموغالى» في مرحلته المتأخرة ويعتبر فن الرسم «الموغالى» واحداً من أنجح تطبيقات المبادىء الإسلامية على تقاليد فنية هي ليست اسلامية من حيث الأساس. ويعتبر تطور الواقعية، التى قطعت شوطاً بعيدا بحيث أنها أصبحت تشتمل على فن رسم الأشخاص، أمراً فريداً حتى ضمن التنوع الواسع للأشكال التصويرية في الاسلام.

دور الكتب النبوية في التسامح ونشر الإيمان

(قراءة في فقه السيرة ودبلوماسية الإسلام)

قبل الدخول في الموضوع بالصميم ننبه الى أن المجتمع المكي عرف الكتابة قبل بعثة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ معرفة يسيرة، وعندما نزل القرآن الكريم دفع بهذه المعرفة شوطا بعيدا، فعلم بالقلم ورفع من شأن التسطير قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ (البقرة/ ٢٨٢)، وقال جل من قائل: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ (القلم/١).

ومع انطلاقة الدعوة الإسلامية بدأ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يراسل زعماء العالم فكانت مكاتباته لمعاصريه من ملوك الدول مرحلة هامة من مراحل الدعوة الإسلامية، وأسلوبا جديدا في التعامل مع أولي السلطان، ومنهجا في التعريف بالإسلام والانفتاح على الأمم المستكبرة في الأرض يومئذ، ففي أعقاب الصلح الذي وقعه رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مع مشركي مكة بالحديبية سنة ست من الهجرة طفق الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وبدأت الدعوة الإسلامية تسترجع أنفاسها فارتأى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أن يتخذ استراتيجية جديدة تقوم على محاورة الأديان، ومراسلة الملوك والأمراء، فانتدب لهذه المهمة الصعبة لفيفا من الصحابة يعرفون اللسان الأعجمي، ويألفون النشاط التجاري[١] ليوصلوا كتبه الى الملوك داعين الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

فماذا إذن عن دور المكاتبة في نشر الإسلام وإشاعة التسامح بين الناس؟.

وماذا عن أثر الكلمة المسطورة في الهداية والتوجيه؟.

وكيف كان عاقبة أصداء تلك الكتب التى بعث بها رسول الله {صلى الله عليه وسلم} الى أمراء الدول، وأئمة الكفر في ذلك العهد؟.

وهل اكتفت بتهيئة الأجواء وتمهيد السبل أمام دعوة الحق، أم إنها أعقبت في نفوس الناس إسلاما رفيعا وآتت أكلها ثمرا طيبا ايمانا بالله وجهاداً في سبيله؟.

ذلك ما نأمل أن نجيب عنه سريعا من خلال ثلاث نقاط أساسية نرتبها في ما يأتي:

أولا : المحددات الأساسية :

وخلالها سنعمل على استنطاق العنوان وتبيان دلالاته المختلفة منبهين الى أهمية الكتاب من المنظور الإسلامي مبرزين دوره الفاعل في نشر العلم وتثقيف الناس، موضحين للقارىء في هذا الجانب جهود رسول

د. محمذن بن أحمد بن المحبوب
- موريتانيا -

الله {صلى الله عليه وسلم} حيث اتخذ من مراسلة الملوك قناة لنشر الإسلام وجسرا لتبليغ رسالات الله. فماذا عن هذه المحددات:

أ ـ استنطاق العنوان :

إن عنوان هذا الموضوع «دور الكتب النبوية في التسامح ونشر الإيمان» (قراءة في فقه السيرة ودبلوماسية الإسلام) يوحي بما يمكن أن يكون للكتاب من تأثير بالغ في العملية الدعوية، ومن نشر لروح التسامح بين الأمم والشعوب. فماذا عن دلالات الوحدات المعجمية المؤسسية لهذا العنوان جملة وتفصيلا؟.

إن هذا العنوان يتألف من تركيبين إضافيين «دور الكتب» و«نشر الإيمان» يفصل بينهما جار ومجرور «في التسامح» فالتركيب الإضافي الأول مؤلف من كلمتي «دور» و«الكتب» فالدور لغة يعني العامل الفاعل والعنصر المؤثر الذي يشكل لحمة الشيء وسداه. والكتب جمع كتاب وهو: لغة مصدر كتب يقال كتب الشيء يكتبه كتبا وكتابا. وفي الاصطلاح هو المصنف الذي يشتمل على جملة من المسائل في فن من الفنون ويطلق أيضا على الصحف المجموعة وعلى الرسالة: جمعه كتب[٢] والصفة النبوية نسبة الى النبي {صلى الله عليه وسلم} فالمقصود من التركيب الإضافي التنبيه إلى أن الكتابة طريق إلى التوثيق وإفهام المراد، وسبيل إلى التعويض بالرسم والتسطير عن المشافهة والتعبير.

فالكلمة المكتوبة في جانب الدعوة الى الله تعد أبلغ رسول، لذلك اتخذ منها {صلى الله عليه وسلم} معبرا الى قلوب الملوك من العجم وجسرا إلى أفئدة الأمراء من العرب. وجاء الجار والمجرور «في التسامح» ليكشف عن جانب من حضور الرأفة والرحمة في الخطاب الإسلامي فالتسامح مصدر دال على المشاركة من فعل تسامح الذي يدور على معاني السهولة ولين الجانب يقول: «سمح العود استوى وتجرد من العقد، وسمح فلان بذل في اليسر والعسر عن كرم وسخاء»[٣].

والمقصود من هذا المجرور مرونة الشرع ودبلوماسية الإسلام، وميله الى الرفق واللين في التعامل مع الآخرين أما التركيب الإضافي الأخير «نشر الإيمان» فقد ورد للتعبير عن جهود الكتب والمخطوطات في إشاعة دين الحق وإذاعته بين الناس بكل ما تعني كلمة «نشر» من بسط وامتداد يقال نشر الشيء نشرا أي انتشر[٤].

فالعنوان جملة يقضي بفاعلية المكتوب في زرع روح الأخوة والتسامح بين الناس، وتأثيره البالغ في ضمان انتشار الدعوة الإسلامية وسيرورتها بين العالمين.

ب ـ أهمية الكتاب والمراسلة :

لا شك أن الإسلام أنزل الكتب منزلة عالية وأحاطها بسياج من الهيبة والاحترام، فقد أقسم الله سبحانه بالمكتوب في محكم كتابه، فقال جل من قائل: {**ن والقلم وما يسطرون**} (القلم/ ١) كما سمى القرآن المنزل على نبيه محمد {صلى الله عليه وسلم} كتابا، بل هو الكتاب الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فحيث أطلق هذا اللفظ انصرفت نحوه الأذهان، واشرأبت إليه الأعناق. فهو العلم بالغلبة وهو ضماد الجسوم والأفئدة قال تعالى: {**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا**} (الكهف/١)، وقد تردد لفظ الكتاب ستة وأربعين ومائتي مرة في القرآن الكريم مما يدل على الاعتناء به والاهتمام بشأنه.

فالكتاب من المنظور الإسلامي بالغ الأهمية والتعظيم لذلك ذهب المالكية إلى أنه لا يجوز الاستنجاء

بكتب السحر والفلسلة لحرمة الحروف ولشرفها، قال الأجهوري: الحروف لها حرمة سواء كانت بالعربي أو بغيره[٥]، وللتأكيد على دور الكتاب في نشر الإسلام والانفتاح على الأمم الأخرى نذكر أن المالكية والشافعية والحنابلة وبعض فقهاء الحنفية أجازوا مس المشرك للكتب ولو كانت فيها آيات من القرآن بدليل أن النبي [صلى الله عليه وسلم] كتب إلى هرقل كتابا فيه آية[٦].

فالكتاب يعد آلية شديدة الفعالية والتأثير على القراء والأميين فالكلمة المكتوبة من أقصر الطرق إلى قلوب المتعلمين، وأنجع السبل إلى إبلاغ المقصود وتحصيل المراد أملا في تهذيب الأفئدة والعقول. فالتراسل خير عوض عن التواصل، والمكاتبة أحسن بديل عن المشافهة، فإذا عز اللقاء وامتنع الوصال جاءت الحروف شفيعا وجيها بين المتباعدين، ولعت العبارات فوق الطروس وسيطا ناطقا يكشف عن خفايا النفوس والهموم، ليبلغ أحوال المتكلم وخوالج نفسه الى الغائب المنقطع. فكم كان المكتوب رسولا أمينا وهاتفا جوالا يختصر المسافات ويخفف من تكاليف السير والانتقال، ويعوض تذاكر السفر والارتحال. وذلك ما أدركه النبي [صلى الله عليه وسلم] منذ فجر الدعوة الإسلامية فأرسل رسله الى الملوك مبشرين ومنذرين ثم إن المكتوب مرآة مصقولة تنعكس عليها أحوال المتكلم، ويقرأ فيها الغائب حياة الكاتب ويتعرف على خواطره وهواجسه، فهي منبر التثقيف وأساس التبليغ بل هي أكثر من ذلك عماد للتنمية والوعي ومحو كامل للأمية والجهل.

ثانيا: الرسائل النبوية ودورها في نشر الإسلام :

نشير هنا إلى أن للرسائل النبوية أهمية بالغة في نشر الدعوة وتوسيع دائرة الإسلام، فقد عرَّفت الملوك والأمراء على الدين الحنيف، وأطلعتهم على نبله وسماحته، كما نبهتهم إلى مرونته ودبلوماسيته فجعلتهم يستجيبون لرسل نبيه الكريم الذي أقسمت الآيات البينات على عظيم خلقه، فهو النور المبين في الأرض والرحمة المهداة إلى العالمين.

وسنعرض لهذه الرسائل النبوية عبر نقطتين أولاهما تروم الحديث عن ظروف الإرسال وطبيعة الرسائل، وثانيتهما تعرض لردود أفعال الملوك.

أ ـ التعريف بالرسائل وظروف الإرسال :

يعد صلح الحديبية فاتحة عهد جديد، فقد أعطى للدعوة الإسلامية دفعا متميزا، وأشاع في المنطقة جواً من الأمن والسلام، كما أضعف من جانب آخر سلطة قريش فانفتحت الأبواب بذلك واسعة أمام الداخلين إلى دين الله فأخذ النبي [صلى الله عليه وسلم]يوجه رسله الى الملوك تمهيدا للتواصل مع الآخرين، وتجسيدا لمبادىء التحاور والإقناع، ففي أعقاب رجوعه [صلى الله عليه وسلم] من صلح الحديبية أواخر السنة السادسة من الهجرة كتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم من الإعراض والاستكبار. ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الرؤساء جمع أمره مستفيدا من تجارب الأمم المحيطة به في الإدارة والتوثيق مسترشدا بآراء مستشاريه الذين نصحوا له باتخاذ خاتم يوقع به رسائله الى الملوك عسى أن ينصاعوا لها ويذعنوا، فقد ثبت أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] لما أراد أن يكتب إلى الملوك «قيل له يا رسول الله إن الملوك لا يقرأون الكتاب إلا مختوما فاتخذ رسول الله [صلى الله عليه وسلم] يومئذ خاتما من فضة فصه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وختم به الكتب»[٧].

وقد اختار [صلى الله عليه وسلم] رسله على أساس خبرتهم باللسان الأعجمي ومعرفتهم بالطريق، فأرسل دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر (هرقل) ملك الروم (ت ٦٤١م) وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة (ت ٩هـ) وحاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس ملك مصر (ت ٦٤٠م) وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس (ت ٦٢٨م) وعمرو بن العاص إلى جيفر وعباد بني الجلندي ملكي عمان، وسليط بن عمرو العامري إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة والعلاء بن الحضرمي إلى

المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام وغيرهم. وذلك ما أوضحه عبد العزيز اللمطي[٨] في منظومته قرة الأبصار قائلا[٩] :

بيان رسل المصطفى لمن ملك
صلى عليه الله ما دار الفلك
إلى النجاشي النبي أرسلا
عمروا فبجل الكتاب وتلا
فمات مسلما وصلى المصطفى
عليه مع أصحابه أولي الصفا
ودحية إلى هرقل أرسلا
فشح ثم ابن حذافة إلى
كسرى فمزق الكتاب مزقا
وحاطب الى المقوقس ارتقى
فقارب الاسلام حتى أهدى
جاريتين دلدلا وعبدا
ثم الى من ملكا عمانا
عمروا فأسلما له ودانا
ولليمامة سليطا أرسلا
فلم يفز صاحبها إذ سألا
من النبي جعل بعض الامر له
ثم إلى البلقا شجاعا ارسله
وأرسل العلا إلى البحرين
فأسلم المنذر دون مين
والاشعري ومعاذ لليمن
فأسلموا دون قتال وفتن

ب ـ اختلاف ردود أفعال الملوك :

لقد تباينت آراء الملوك في ردودهم على كتب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} غير أنها عادت على الإسلام بالخير العميم وهيأت له أسباب الانتشار بسرعة، فمهدت السبل أمام الفاتحين، وأزالت الكثير من حجب الأبهة والاستكبار عن ملوك الأرض يومئذ، كما فتحت الباب على مصراعيه للتواصل مع الأمم والتحاور مع الأديان. والقارئ لهذه الرسائل وسياقاتها التاريخية يمكن أن يصنف أصحابها انطلاقا من ردودهم الى ثلاثة طوائف أساسية هي:

(١) طائفة الاستعلاء والاستكبار :

وأصحاب هذه الطائفة قليلون جدا وقد أبدوا لرسل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} تعنتا وجبروتا فغضبوا وردوا بعنف ونكير، ومن أبرزهم كسرى ملك فارس والحارث بن أبي شمر الغساني أمير الشام، فالأول تهدد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قائلا ـ عليه لعنة الله ـ عبد من رعيتي يكتب اسمه قبلي فلما بلغ ذلك رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال «مزق الله ملكه» فكان كما قال فقد قام إليه ابنه شرويه فقتله وأخذ الملك لنفسه ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة[١٠].

وبذلك انعكس الكيد على الساحر وانقلب السحر على الساحر فانتشر الاسلام بالربوع الإيرانية انتشارا عظيما على عكس مقصود كسرى، فكان من بينهم أئمة في العلم والدين وعباقرة أفذاذ صدق فيهم قول رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس»[١١]

(٢) طائفة الاحترام والتقدير :

وهذه الطائفة استقبلت رسل رسول الله {صلى الله عليه وسلم} باحتفاء واحترام وردت على دعوته بلطف ودبلوماسية وتودد كقيصر (هرقل) ملك الروم الذي أجاز حامل الكتاب بكسوة ومال واحتفظ بأصله متيامنا به وملتمسا بركته فوضعه «في قصبة من ذهب تعظيما له ومازالوا يتوارثونه كابرا عن كابر في أرفع صوان وأعز مكان»[١٢].

ويؤكد علماء السيرة بقاء هذا الكتاب إلى القرن السابع الهجري قال القرافي: «وكتابه عليه السلام ـ يعني الى هرقل ـ محفوظ عندهم الى اليوم في بلاد الروم عند ملكهم يفتخرون به»[١٣].

وصرح ابن تيمية أيضا بتواتر وجود هذا الكتاب عند ملك قشتاله فقال «وأخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق في الأندلس عند ألفنس صاحب قشتاله وبلاد الأندلس يفتخرون به وهذا أمر مشهور معروف»[١٤].

ولم يقتصر نبأ وجود الكتاب النبوي الى هرقل لدى نصارى الأندلس على مجرد الخبر المسموع بل إن جماعة المسلمين في فترات تاريخية مختلفة تهيأت لهم رؤيته عند أولئك النصارى، ومن هؤلاء عبد الملك بن سعيد[١٥] أحد رجال الأندلس وقادتها في أواخر عصر المرابطين، فقد رآه عند حاكم قشتالة الفونس السادس المتوفي سنة ٥٥٢هـ، قال عبد الملك: «فأخرجه إليَّ واستعبرت وأردت تقبيله وأخذ بيدي فمنعني من ذلك صيانة له وضنا عليَّ»[١٦]، ونقل ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) عن غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ (ت ٦٩٦هـ) أن السلطان المملوكي القلاوون أرسل أحد رجاله إلى الغرب (المغرب) فأرسله هذا الأخير إلى ملك الإفرنج في شفاعة وعند حلوله هنالك أتحفه ملك النصارى بالنظر إلى كتاب النبي {صلى الله عليه وسلم} إلى هرقل قال ابن الصائغ: «حدثني سيف الدين فيلح المنصوري قال أرسلني الملك المنصوري قلاوون إلى ملك الغرب (المغرب) بهدية فأرسلني ملك الغرب الى ملك الإفرنج في شفاعة فقبلها وعرض عليَّ الإقامة عنده فامتنعت فقال لأتحفنك بتحفة سنية فأخرج لي صندوقا مصفحا بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منها كتابا زالت أكثر حروفه وقد التصقت عليه خرقة حرير فقال هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر ومازلنا نتوارثه إلى الآن وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا»[١٧].

أما المقوقس ملك مصر فإنه احتفى بالكتاب وأظهر تعاطفا ولينا وأهدى إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} جاريتين وكسوة وبغلة، فالجاريتان هما : مارية وسيرين فالأولى اتخذها النبي {صلى الله عليه وسلم} سرية وهي التى ولدت له إبراهيم، أما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت[١٨]. وقد ورد أن المقوقس لما قدم عليه كتاب النبي {صلى الله عليه وسلم} أخذه «فجعله في حق من عاج وختم عليه»[١٩] وقد اكتشف المستشرق الفرنسي بارثليمي نص هذه الرسالة عام ١٨٦٧م في صعيد مصر فاعتنى بها الخليفة العثماني وأمر بحفظها في صندوق ذهبي وصارت اليوم في متحف قصر باب المدفع في استانبول في الغرفة المحتوية لما نسب للنبي {صلى الله عليه وسلم}[٢٠].

(٣) طائفة المناصرة والتأييد :

وهي أكثر الطوائف وأعظمها شأنا، وقد تلقت الكتب بالترحاب والرضى والقبول والإذعان، وسارعت الى الدخول في دين الله. ومن أبرز أصحابها النجاشي ملك الحبشة الذي أخذ كتاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فأمرَّه على وجهه ووضعه على عينيه ونزل عن سرير له على الأرض تواضعا ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته[٢١]. ثم احتفظ بنص الكتاب ووضعه مع كتاب آخر سبق أن ورد إليه من النبي {صلى الله عليه وسلم} و«دعا بحق من عاج فجعل فيه كتابيْ رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وقال لا تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها»[٢٢]، ومن الأمثلة كذلك على الاحتفاظ بهذه الكتب ما ذكر عن عمير ذي مران الهداني الذي احتفظ بكتاب الرسول {صلى الله عليه وسلم} فآل من بعده الى أحفاده فقال أحدهم مخبرا عن وجود ذلك الكتاب عندهم «كتب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} الى جدي وهذا كتابه عندنا»[٢٣]

ومن الذين أسلموا إثر هذه الرسائل ودانوا دين الحق المنذر بن ساوى الذي أخذ في دعوة قومه الى الإسلام مرسلا بذلك إلى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وكذلك الأميران جيفر وأخوه عبد ابنا الجلندى اللذان آمنا بالله وصدقا بالنبي {صلى الله عليه وسلم}.

فتأثير هذه الطوائف الثلاثة على نشر الإسلام كان بالغا ومؤثرا وإن اختلفت مستوياتها، فالطائفة الأولى خدمت الإسلام من حيث لم ترد، ذلك أن كسرى تهدد النبي {صلى الله عليه وسلم} فقصمه الله ومزق ملكه شر ممزق فعاد ذلك على الإسلام بالخير الكثير فسارع الفرس إلى الدخول في الدين الجديد على عكس مراد كسرى، فيمكن القول إن كسرى أراد

عمروا وأراد الله خارجة. أما الطائفة الثانية فتتجلى خدمتها للإسلام عبر مواقفها المسالمة، إذ لم تقف في سبيل الدعوة بل إنها على العكس من ذلك أظهرت احتراما وتقديرا منزلة رسائل النبي {صلى الله عليه وسلم} منزلة عالية محتفظة بها في أعز المتاحف وأجمل الصناديق الذهبية. ويبلغ تأثير هذه الرسائل ذروته مع الطائفة الثالثة التى أعلنت للعالم إسلامها وصرحت بإيمانها رغم ما يكلفها ذلك من عناء وتبعات، فإسلام هذه الطائفة ليس بالأمر الهين، فهو يعني ضمنيا إعلان المصالحة مع المسلمين وفتح الباب أمام مواطني هؤلاء الملوك ليدينوا دين الحق وينتقلوا من عبادة العباد الى عبادة رب العباد.

ثالثا: دور الكتب النبوية في نشر الاسلام:

لا شك أن مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب يعد منهاجا دعويا شموليا يعرب عن عالمية الرسالة الاسلامية وأمميتها، فرسائل النبي {صلى الله عليه وسلم} الى قادة العالم يومئذ تعتبر تطبيقا وتصديقا لقوله تعالى {**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**} (سبأ/ ٢٨). ولقوله أيضا {**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**} (الاعراف/ ١٥٩). وانطلاقا من هذا التوجيه الرباني العالمي أرسل النبي {صلى الله عليه وسلم} كتبه إلى الأمم والأديان لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. وسنعمل على إبراز دور هذه الكتب النبوية في نشر الاسلام من خلال نقطتين نعرض لهما في ما يأتي:

أ ـ المكاتبة عنوان للعالمية والامتداد :

نشير هنا أولا إلى عدم تماسك النظرة القائلة بالتدرج في الدعوة من الإقليمية الى العالمية تبعا لاتساع النفوذ الاسلامي فالآيات البينات قد أوضحت هذا الإشكال منذ العهد المكي معلنة شمولية الرسالة الاسلامية، قال تعالى: {**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**} (الانبياء/ ١٠٧). وبذلك تكون صفة العالمية قد تقررت والمسلمون بمكة مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس. وسعيا إلى تجسيد هذه العالمية وجه الرسول {صلى الله عليه وسلم} سفراءه إلى ملوك العالم وكان كل سفير منهم يعرف لغة القوم الذين أرسل إليهم كي يتمكن من القيام بالدعوة على الوجه المطلوب. وذلك يكون الاسلام قد هيأ للدعوة منذ أيامه الأولى وسائل الامتداد بسرعة وأسباب الانتشار بيسر وسهولة، حيث أمر الدعاة إلى الله بتعلم لغات الأمم الذين سيحاورونهم في شأن الإسلام عسى أن يقنعوهم بفاعليته وظهوره على الدين كله ولو كره المشركون. وطبقا لذلك انتشر الاسلام بسرعة لأنه دين الفطرة، فقد دعا إلى السلم قال تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**} (البقرة/ ٢٠٦).

وضمن حرية المعتقد قال تعالى: {**لا إكراه في الدين**} (البقرة/ ٢٥٥). وأمر بالعدل والإحسان. وفي هذا السياق جاءت المكاتبات النبوية لتحمل معها تأثيرا إعلاميا كبيرا يراعي الأحوال والمقامات فلما كان كسرى مجوسيا غير كتابيّ عامله النبي {صلى الله عليه وسلم} بمقتضى ذلك فقدم اسمه قبل اسم الله وقاية كما فعل سليمان عليه السلام إذ كتب {**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم**} (النمل/ ٣٠). فكتاب النبي {صلى الله عليه وسلم} إلى كسرى فيه «إلى كسرى ملك فارس بسم الله الرحمن الرحيم» فقدم اسم كسرى وقاية لاسم الله. ولما كان الملوك الآخرون من أهل الكتاب قدم اسم الله تعالى لأنهم يؤمنون بالله ويعظمونه»[٢٤].

ومن العوامل التى ضمنت للإسلام الانتشار عبر هذه الرسائل صدوره {صلى الله عليه وسلم} ضمنها عن استراتجية عسكرية سياسية تقوم بإقرار الملوك على عروشهم إن هم أسلموا. كما تعتمد أيضا أساليب الترغيب مثل استعمال التعبير «يؤتك الله أجرك مرتين» وأكثر من ذلك عملت هذه الكتب النبوية على مخاطبة الملوك بعبارات الاحترام والتقدير (عظيم الروم، عظيم الحبشة، عظيم القبط، عظيم الفرس..) وذلك لمكانتهم بين قومهم ولتأليف قلوبهم وجذبهم الى

الإسلام. كما حذرتهم هذه الرسائل في الوقت نفسه من الإثم الذي سيلحق بهم إن هم منعوا رعيتهم من نور الإسلام[٢٥].

ب ـ المكاتبة آلية للتسامح والحوار :

ننبه هنا إلى أن الرسائل النبوية إلى الملوك جاءت لتكشف عن جانب من سماحة الإسلام ومرونته في التعامل مع أهل الديانات الأخرى، فاستعملت أساليب الحكمة واللين، ومالت إلى عبارات الشكر والاحترام والرأفة والاستعطاف (عظيم الروم، عظيم الفرس، عظيم القبط) بعيدا عن أنماط السخرية والاستخفاف. كما نبهت هذه الرسائل أيضا إلى بعض نقاط التقاطع بين المسلمين وبين أهل الكتاب مما يتجلى بشكل واضح في خواتم الرسائل الموجهة الى ملوكهم فقد كان {صلى الله عليه وسلم} يختمها بتلك الآية الكريمة التى تقيم عليهم الحجة وتدعوهم إلى التفاوض والحوار، كما تأمرهم بإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ليتم التقارب بين الفريقين فيصدروا جميعا عن إيمان واحد وكلمة سواء مؤمنين بالله غير مشركين به شيئا.

قال تعالى: {**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**} (آل عمران/ ٦٣). فهذه الآية الكريمة أعلنت مبدأ التحاور بين الأديان، ومشروعية التفاوض مع الذين أوتوا الكتاب بشكل خاص مؤكدة أن ذلك ينبغي أن يتم تحت مظلة الإيمان بالله وفي سياق الدعوة الى الخير والتعاون على البر والتقوى.

وفي النص القرآني آيات أخرى تأمر بالرحمة والتسامح والإحسان الى الناس بعيدا عن كل مظاهر التعصب والتشنج، وبذلك يكون الإسلام قد فتح باب الحوار السلمي مع أبعد الناس عن عقيدته، قال تعالى: {**وقولوا للناس حسنا**} (البقرة/ ٨٢) كما أرشد إلى العطف ولين الجانب في الدعوة والتوجيه محذرا من الجدل الذي لا يتبع سبيل الحسنى، قال تعالى: {**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**} (العنكبوت/ ٤٦)، فالقارىء لهذه الرسائل النبوية يدرك سر انسياب الإسلام في الأرض وسرعة انتشاره بعفوية وتلقائية لأنه دين الفطرة، ولأن نبيه {صلى الله عليه وسلم} كان على جانب من المرونة والحكمة عظيم هيأه لأن يكسب ود الآخرين وعطفهم في فترة قياسية. وذلك ما أكده الخصوم وشهدت به الأعداء فقد قال «ادوار مونتيه» أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جنيف في مقدمة كتابه لترجمة القرآن: «إن إصلاحات محمد {صلى الله عليه وسلم} قد حققت تقدمات ذات أبعاد غير متناهية وذلك لدرجة تجعل محمدا {صلى الله عليه وسلم} في عداد أكبر العظماء الخادمين للإنسانية»[٢٦].

ثم إن أساليب النبي {صلى الله عليه وسلم} في الدعوة والمراسلة كانت تقوم على أساس من الخلق العظيم والقدوة الحسنة مما جعل الإسلام يدخل إلى القلوب من غير سابق إنذار ولا تأشيرة مرور، فامتد بسرعة الى أقاصي البلاد وأعماق الجزر والفيافي، وأدغال الغابات والصحاري دون خطط مرسومة، ولا سيوف مسلولة. وبهذا الصنيع العفوي تغلب الإسلام على جميع الديانات، وامتص أحقاد الأمم الأخرى بعبقريته الفذة ودبلوماسيته النادرة، فكان أبناؤه يقرون أهل الديانات المنزلة على دينهم إن هم أحبوا ذلك، ضامنين لهم حقوقهم بعهود ومواثيق لم تعرف في تاريخ الأديان من قبل[٢٧].

والمتصفح لهذه الرسائل النبوية يعلم علم اليقين أن الإسلام قد بهر الأمم بسماحته ورحمته وحسن سيرة أفراده لما يتشبثون به من عدل وسماحة وقيم فاضلة، لذلك صرح المستشرق جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب قائلا: «إن الإسلام من أكبر الديانات تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والإحسان والتسامح»[٢٨]، وهذه المعاني جلية واضحة في رسائل النبي {صلى الله عليه وسلم} إلى الملوك كما هي بينة أيضا في أنماط التعامل والسلوك.

وبالجملة فإن الرسائل النبوية أدخلت في الإسلام أمما كثيرا وشعوبا، وأعقبت في نفوس الملوك ايمانا رفيعا مقيمة في العالم دولا وحضارات عديدة، تقودها

أجيال ربانية تؤمن بالله وتعتصم بحبله وتستمسك بسنة رسوله الأمين [صلى الله عليه وسلم]. فقد مثلت هذه الرسائل الجهد الأساس في الدعوة الإسلامية فعملت على جس نبض الملوك لتستميلهم نحو الدين الحنيف بلطف ودبلوماسية، مستعملة أساليب مؤثرة وجذابة تسترعي الانتباه وتستميل القلب. فالتعابير في هذه الرسائل استعطافية، والخط رفيع والحبر براق، والحجم مناسب (أربعة أصابع عرضا/ وشبر واحد طولا) والحروف واضحة مقروءة فقد سطرت على شرائح من الجلود قابلة للمقاومة والصمود مما ضمن لها الذيوع والاستمرار وهيأ لمعظمها أسباب الصيانة ولبعضها الآخر البقاء إلى اليوم.

الهوامش :

(١) يذكر في هذا السياق أن رسل رسول الله [صلى الله عليه وسلم] أتقنوا اللسان الأعجمي في وقت قياسي وبأسلوب خارق للعادة «فأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم من غير مضي زمان يمكن فيه التعلم معجزة له [صلى الله عليه وسلم] حتى يفهموا ما يقال، ولا يتنافى هذا مع دعاء بعض الملوك الترجمان لأنه من تعاظم العجم» انظر الشريف قاسم: نشأة الدولة الإسلامية في العهد النبوي ص/ ٣٥.

(٢) ابراهيم أمين: المعجم الوسيط، القاهرة ١٩٧٢ - ٧٧٤/٢.

(٣) المرجع السابق : ٤٤٧/١.

(٤) المرجع السابق ٩٢١/٢.

(٥) الموسوعة الفقهية : الكويت: ١٨١/٣٤.

(٦) المرجع السابق والصفحة.

(٧) انظر الترمذي الشمائل ص ٧٥، وابن حجر: فتح الباري ٣٢٤/١٠. وابن سعد في طبقاته ٢٨٥/١.

(٨) هو عبد العزيز بن عبد العزيز اللمطي (ت ٨٨٠هـ المكناسي الميموني المالكي نسبة الى لمط من قبائل البربر بأقصى المغرب نزل المدينة المنورة له ألفية في النحو وتقاييد على مختصر خليل، وقرة الأبصار في سيرة المشفع المختار. انظر الأعلام ٢١/٤.

(٩) محمد الحسن بن أحمد الخديم: بغية الأبرار من شرح قرة الأبصار، مطبعة الكرامة، الرباط ٢٠٠٠. ص ٨٤ - ٨٧.

(١٠) المبارك فوري: الرحيق المختوم، المكتبة العصرية، بيروت ط: ٢٠٠٠ ص ٣٢٤.

(١١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٩٦/٢.

(١٢) السهيلي: الروض الأنف تحقيق عبد الرحمن الوكيل. ط/١ مكتبة ابن تيمية القاهرة ١٩٩٠، ٣٦٥/٧.

(١٣) د. محمد بن صالح أبا الخيل: أصول كتب النبي [صلى الله عليه وسلم] وبقاؤها بعد عصره، مجلة التاريخ العربي المغرب الرباط، ٢٠٠٢، العدد ٢٣، ص ٥٢.

(١٤) المرجع السابق والصفحة.

(١٥) عبد الملك بن سعيد من ذرية عمار بن ياسر كان وزيرا ليحي بن غانية المرابطي في غرناطة ت ٥٦٢هـ.

(١٦) السهيلي: الروض الأنف، مرجع سابق ٣٦٥/٧.

(١٧) ابن حجر، عمدة القارىء: شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٩٩/١.

(١٨) المبارك فوري: الرحيق المختوم، مرجع سابق ص ٣٢٤.

(١٩) محمد بن صالح أبا الخيل: أصول كتب النبي [صلى الله عليه وسلم]، مرجع سابق ص٥.

(٢٠) المرجع السابق ص ٦٢.

(٢١) محمد سليمان المنصور فوري: رحمة للعالمين، دار السلفية، بومباي الهند ط ١٩٨٩م، ٧٥/١.

(٢٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢٩٥/١.

(٢٣) محمد بن صالح أبا الجيل: أصول كتب النبي [صلى الله عليه وسلم]، مرجع سابق ص ٥٠ نقلا عن ابن طولون.

(٢٤) أبو بكر الجزائري: هذا الحبيب محمد [صلى الله عليه وسلم] يا محب ط ٥، ١٩٩٢م، ص ٣٥٥.

(٢٥) الدكتور أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٤، ١٩٩٣م، ٤٦٠/٢.

(٢٦) الدكتور محمد معروف الدواليبي: أثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية، من أعمال المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، قطر ١٩٨١م، ٢٠٧/٧.

(٢٧) المرجع السابق والصفحة.

(٢٨) المرجع السابق ٦١١/٧.



إرم ذات العماد

وآثارهم شاهدة عليهم :

يتحدث القرآن الكريم في كثير من المواضع عن ضرورة السير في الأرض لمشاهدة آثار الكافرين من الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل، فكانت عاقبتهم الهلاك والتدمير، ونجاة رسل الله ونصرة المؤمنين.

قال تعالى[١]: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

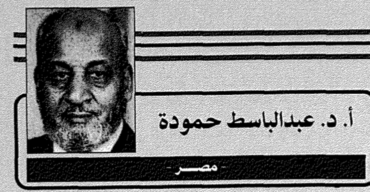
قال ابن كثير : يسيروا في الأرض بأفهامهم وعقولهم ونظرهم، وسماع أخبار الماضين، أى كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم أيها المبعوث إليهم محمد {صلى الله عليه وسلم} وأكثر أموالا وأولادا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارا طوالا، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات، كذبوا بالحقّ لما جاءهم، وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله.

ويكرر ابن كثير هذا القول في الآيات التى جاءت بمثل هذه الألفاظ. كما في سورة غافر وفاطر ويوسف ومحمد وغيرها.

وقد حدد القرآن الكريم في بعض النصوص هذه الآثار الباقية كسفينة نوح: **{وجعلناها آية}** والقرية التى أمطرت مطر السوء: **{وإنكم لتمرون عليهم مصبحين}** **{وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم}**، **{وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم}**، **{فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية}**، **{سأريكم دار الفاسقين}** وغير ذلك كثير لمن يطيل النظر.

وفي مقامنا هذا تدل الآثار لقوم عاد على ما كان لهم من حضارة تعبر عن قوتهم وبطشهم وتجبرهم مما سبق ذكره.

وقد ذكر المؤرخون والمفسرون وأصحاب السير



أ. د. عبدالباسط حمودة
- مصر -

كلاما كثيرا عن (إرم ذات العماد) واتصل ذكرها بعاد، ورأينا أن نتحدث عنها في هذه القصة من باب العلم والوقوف على أقوال السابقين فيها.

إرم ذات العماد :

أورد القرآن الكريم في باب العظة والعبرة ما حدث للأمم السابقة، كقوم عاد، وثمود وفرعون، وقارون، وغيرهم. وقرن ما حدث لعاد بذكر (إرم ذات العماد) فقال تعالى: **{ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يُخْلَق مثلها في البلاد}**.

وإرم : قيل اسم بلدة عاد، كانت أبنيتهم عالية، أو من الخيام ذات العماد[١].

وقيل : إرم[٢]: اسم القبيلة، لأن عاد بن إرم بن سام بن نوح. وقال مجاهد: إرم أمة من الأمم ، وفي هذا المعنى يقول قيس بن الرقيات:

مـــجـــدا تليـــدا بناه أولهم
أدرك عـــــادا وقـــــبلـــه إرم

ومعنى (ذات العماد) ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة. وقال مقاتل: ذات العماد يعنى طولهم.

كان طول الرجل منهم اثنى عشر ذراعا، ويقال: رجل طويل العماد، أي القامة.

وقال ابن زيد: ذات العماد يعنى إحكام البنيان بالعمد، قال في الصحاح: والعماد الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عـــمـــاد الحي خـــرت
على الإخــفــاض نمنع من يلينا

وقال عكرمة : هي دمشق ، وقال محمد بن كعب: هي الاسكندرية. وقيل: الإرم الهلاك.

ومما قيل في (إرم ذات العماد) قصص تكاد تكون من نسج الخيال، نذكرها ثم نورد التعليق عليها، حتى لا يتوهم القارىء في أمهات الكتب صحة ذلك.

ذكر صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب[٣]:

روى أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) عن منصور بن سفيان عن أبى وائل: أن رجلا يقال له: (عبد الله بن قلابة) خرج في طلب إبل له قد شردت، فبينما هو في بعض صحارى عدن، إذ وقف على مدينة عليها حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال.. فنزل عن ناقته وعقلها، وسل سيفه ودخل من باب الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين لم ير في الدنيا أعظم منهما، ولا أطيب رائحة، وإذا خشبهما من أطيب عود، وعليها نجوم من ياقوت أصفر، وياقوت أحمر، ضوؤها قد

ملأ المكان؛ فلما رأى ذلك عجب، ففتح أحد البابين، فإذا هو بمدينة لم ير الراءون مثلها قط، وإذا هو بقصور تتعلق تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت، وفوق كل قصر منها غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والزبرجد وعلى كل باب من أبواب تلك القصور مصراع كمصراع باب المدينة من عود طيب قد نضدت عليه اليواقيت، وقد فرشت تلك القصور باللؤلؤ، وبنادق المسك والزعفران، ولم ير هنالك أحدا.. ثم نظر الى الأزقة فإذا في كل زقاق منها أشجار قد أثمرت، تحتها أنهار تجرى.. فحمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران.. فأخذ منها ما أراد، وخرج ثم سار يقفوا أثر ناقته حتى رجع الى اليمن، فأظهر ما كان معه، وأعلم الناس بخبره، وباع ذلك اللؤلؤ، وكان قد اصفر وتغير من طول الزمان الذى مر عليه.

والقصة تقول: فشا خبره وبلغ معاوية.. فأرسل الى صاحب صنعاء وكتب بإشخاصه.. حتى قدم على معاوية وسأله عما عاين فقص عليه أمر المدينة فاستعظم ذلك وأنكر ما حدث.. ثم قال يا أمير المؤمنين: معى من متاعها اللؤلؤ والبنادق.. فأمر ببندقة منها فدقت، فسطع ريحها مسكا وزعفرانا فصدقه عند ذلك.

وتقول القصة : فأرسل معاوية ـ بناء على رأى بعض جلسائه ـ الى كعب الأحبار وأحضره ثم قال له: يا أبا إسحاق إنى دعوتك لأمر رجوت أن يكون علمه عندك، فقال له: يا أمير المؤمنين (على الخبير سقطت) فسلنى عما بدا لك. فقال له: أخبرنا يا أبا إسحاق، هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة، عمدها زبرجد وياقوت...؟ قال: والذى نفس كعب بيده لقد ظننت أن سأتوسد يمينى قبل أن يسألنى أحد عن هذه المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين، ولمن هي؟ ومن بناها؟.

أما المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين، وعلى ما وصفت له.

وأما صاحبها الذى بناها فشداد بن عاد.

وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها في البلاد.

فقال معاوية: يا أبا إسحاق، حدثنا بحديثها ـ يرحمك الله ـ فقال كعب: نعم يا أمير المؤمنين إن عادا كان له ابنان، يسمى أحدهما شديدا، والآخر شدادا، فهلك عاد، فبقيا وملكا وتجرّءا، فقهرا أهل البلاد وأخذاها عنوة وقسرا، حتى دان لهما جميع الناس.. ومات شديد بن عاد وبقى شداد فملك وحده.. فكان مولعا بقراءة الكتب القديمة وكلما مر فيها بذكر الجنة دعته نفسه لتعجيل تلك الصفة لنفسه الدنية عتوا على الله وكفرا، فلما وقر ذلك في نفسه أمر بصنعة تلك المدينة التى هى إرم ذات العماد وأمر على صنعها مائة قهرمان، مع كل واحد ألف من الأعوان.. وأعملوا مدينة من ذهب وفضة وياقوت.. وأجروا فيها الأنهار حتى تكون تحت تلك الأشجار جارية فإنى أسمع في الكتب صفة الجنة، وإنى أحب أن أتخذ مثلها في الدنيا، أتعجل سكناها.. انطلقوا الى كل موضع فيه معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة.. ثم انظروا الى ما في أيدى الناس من ذلك فخذوه..

وكان عدد الملوك تحت يد شداد مائتين وستين ملكا، أخذ ما في يدهم من الزبرجد.. فخرج الفعلة.. والقهارمة.. فوقعوا في صحراء عظيمة نقية من الجبال والتلال.. فبنوها على الصفة التى يراها في الكتب.. واستغرقوا في بنائها ثلاثمائة سنة، وكان عمر شداد سبعمائة سنة.

وقال كعب: إنهم لما أتوه فأخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا واجعلوا عليها حصنا، واجعلوا حول الحصن ألف قصر، عند كل قصر ألف علم، ويكون في كل قصر وزير من وزرائي.. وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز الى إرم ذات العماد.. ثم سار الملك شداد بن عاد بمن أراد.

قال : فلما استقل وسار ليسكن فيها، وبلغ منها موضعا بقى بينه وبين دخوله إليها مسيرة يوم وليلة، بعث الله ـ تعالى ـ عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعا.. ولم يدخل شداد ولا من كان معه إرم ذات العماد.

قال كعب : فهذه صفة إرم ذات العماد، وأنه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ويرى ما فيها، فيحدث بما عاين، ولا يسمع منه ولا يصدق، فقال معاوية: يا أبا إسحاق، فهل تصفه لنا؟ قال: نعم هو رجل أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له ندت .. والرجل جالس عند معاوية، فالتفت كعب فرأى الرجل، فقال: هو هذا يا أمير المؤمنين قد دخلها، فاسأله عما حدثتك به، فقال معاوية: يا أبا إسحاق، إن هذا من خدمى، ولم يفارقنى، قال كعب: قد دخلها وإلا سوف يدخلها، وسيدخلها أهل هذا الدين في آخر الزمان... الخ.

حفيرة شداد بن عاد :

وما يتصل بما تقدم ذكر أبو إسحاق الثعلبي عن الشعبى أن رجلا من أهل حضرموت يقال له بسطام قد وقع على حفيرة شداد بن عاد في جبل من جبال حضرموت مطل على البحر..

ويتحدث عن تلك المغارة ويصف طولها وعرضها، ويقول: فأفضينا الى أزج عظيم محفور في الجبل.. وفي صدره سرير من ذهب مفصصٌ بأصناف الجواهر، وفوقه رجل عظيم الجسم، وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم وعليه سبعون حلة.. وإذا على رأس السرير لوح من ذهب فيه كتاب بالمسند فقلعناه..

قال : فانطلقنا بما معنا من تلك القضبان من الذهب، وحملناها مع ذلك اللوح الذهب الذى كان عند رأس السرير.. ومكث ذلك اللوح عندى حولا وأنا لا أجد من يقرؤه، حتى أتانا رجل حميرى من أهل صنعاء يحسن قراءة تلك الكتابة، فقرأه فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات:

اعتبر بى أيها المغـ
ـرور بالعمر المديد
أنا شداد بن عاد
صاحب الحصن العتيد
وأخو القوة والبأ
ساء والملك الشديد.. الخ

ويذكر الثعلبي: إن شدادا لما هلك هو ومن معه بالصيحة، ملك بعده مرثد بن شداد، فأمر بحمل أبيه الى حضرموت، فحمل مطليا بالصبر والكافور، فأمر أن تحضر له تلك المغارة، واستودعه فيها على ذلك السرير الذهب.

ومقتضى هذا السياق فيه دلالة على أن شداد بن عاد هذا المذكور آنفا وابنه مرثد بن شداد وخبر إرم ذات العماد، كان قبل مبعث هود ـ عليه السلام ـ .

هذه القصة ـ باختصار شديد ـ كما أوردها النوير عن أبى اسحاق الثعلبى وهي قصة تكاد تكون من نسج خيال واسع ولا تخضع للآثار الإسلامية الصحيحة. وسنورد ما قاله أئمة التفسير في شأنها حتى يقف القارىء على مثل هذه القصص التى ترد في كتب التفسير والسير والتاريخ دون تحقيق أو تمحيص.

التعليق على إرم ذات العماد وشداد بن عاد :

ترد أخبار في بعض كتب التفسير والسير والأدب والتاريخ تشيع بين الناس ويتوهمون صحتها، ومما يقوى الوهم ورودها في كتب قديمة مثل: (يواقيت البيان في قصص القرآن) و(قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس) لأبى إسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٧هـ ـ ١٠٣٥م ويسند رواياته الى كعب الأحبار أو وهب بن منبه أو الى أفراد غير معروفين. وتنقل عنه بعض الكتب الأدبية والتاريخية وغيرها، وربما ردد هذه القصص والحكايات بعض المحدثين.

ولذا نعرض التعليق على ما جاء في الأخبار عن (إرم ذات العماد) و(شداد بن عاد) ولا ننكر ما كان لقوم عاد من حضارة وعمارة وتقدم في الصناعات والعلم وبسطة في المال والجسم والقوة.. كل ذلك فى ضوء ما جاء به القرآن الكريم والقصص النبوى الصحيح. قال عبد الوهاب النجار في (قصص الأنبياء): وموضع بلادهم اليوم رمال، ليس بها أنيس بعد العمران والنعيم المقيم، ولم يتعرض أحد من الأوربيين الباحثين والمنقبين الى الكشف عن بلادهم، ولعل تحت الرمال من الثروة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة في عالم الآثار، وأبان عن مدنية عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان. وقد أخبرنى السيد عبد الله بن أحمد بن عمر بن يحيى العلوى، من أهل حضرموت، أنه قام في جماعة إلى إحدى المدن البائدة في شمال حضرموت، ونقب فيها وعثر على بعض الآنية من المرمر، عليها كتابة بالخط المسمارى، ثم ترك التنقيب لمضايقة البدو له، وإثقال كاهله بالمطالب المالية.

ويقول عباس محمود العقاد في كتابه (الثقافة العربية): «فمن الثابت أن جنوب الجزيرة كان مأهولا قبل ثلاثة آلاف سنة، وكانت له عمارته ومبانيه التى لا تنشأ في قرون قليلة».

وابن كثير في تفسيره وفي قصص الأنبياء يذكر ما كان لعاد من البنيان الضخم الشاهق والبروج المشيدة كما جاء في قوله تعالى : {أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون}، قال ابن كثير: يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء

عظيما هائلا كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها؛ لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم يسكنون الخيام.

ولكن ابن كثير ينكر ما قيل عن إرم ذات العماد، وأنها مبنية من ذهب وفضة (ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة، وهى تنتقل في البلاد، فقد غلط وأخطأ وقال مالا دليل عليه..).

ونقل ابن كثير في تفسيره (إرم ذات العماد) عن قتادة بن دعامة والسدى: إن إرم مملكة عاد. وهذا قول حسن جيد وقوي. وقوله تعالى: {التى لم يخلق مثلها في البلاد} قال: وأما قتادة وابن جرير فأعادا الضمير على القبيلة، أى لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعنى فى زمانهم، وهذا القول الصواب. وأورد عن ابن أبى حاتم عن المقدام عن النبي {صلى الله عليه وسلم} أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: (كان الرجل منهم يأتى على الصخرة فيحملها على الحى فيهلكهم).

ويعلق ابن كثير على ما قيل في (إرم ذات العماد) مبنية بلبن الذهب والفضة.. الخ فيقول: فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، ومن وضع بعض زنادقتهم ليختبروا عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

ويقول: وما ذكره الثعلبى وغيره أن رجلا من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة، في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت.. الخ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابى فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال. فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته. وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلىء والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات.

والذى يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية، وكنوز كثيرة من ظفر بشىء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التى زعموها فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شىء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله - سبحانه وتعالى - الهادى الى الصواب.

وقال الشوكانى في (فتح القدير) وزاد الثعلبى فى تفسيره فقال : إن عبد الله بن قلابة.. الخ، وهذا كذب على كذب، وافتراء على افتراء، وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهياء، وفاقرة عظمى، ورزية كبرى، من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترئون على الكذب، تارة على بنى اسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها ومن موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلقة، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه، فحرفوا وغيروا وبدلوا.

العقاد وملامح المنهج النفسي

من أهم القضايا التي تثار حاليا في المجال النقدي العربي، تعامل المنهج أو النظرية النقدية مع النص الإبداعي العربي. بمعنى البحث عن مدى تفاعل آليات هذا المنهج مع النص. إن أغلب النقاد المعاصرين، قد دأبوا على استقطاب مناهج ونظريات نقدية غربية. والعمل بها في مقاربة النصوص الإبداعية. إلا أن هذه العملية، قد طرحت - وما تزال - عدة قضايا نظرية ومنهجية. ويرجع ذلك، لكون هذه المناهج والتصورات قد نشأت في محيط ثقافي خاص أكسبها مميزات خاصة لكونها تأسست على نصوص ومتون لها خصوصيات ثقافية وحضارية غربية.

إن المنهج وعملية تطبيقه، ليس سوى مجرد قراءة معينة تختلف باختلاف النصوص.

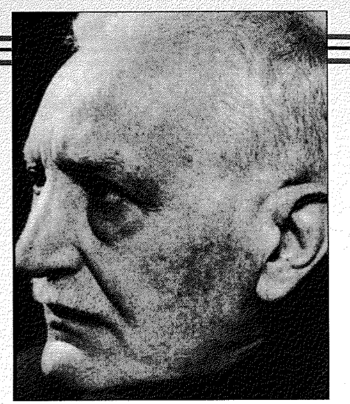
إن تطور الدراسات النقدية، جاء نتيجة تطور شتى العلوم: تجريبية، بيولوجية، ... الخ. امتد هذا التطور من هيبوليت تين H.taine وسانت بوف S.Beuve، وصولا الى نظرية تحليل الخطاب والدراسات السيميائية، ..الخ. وقد كانت لهذه التيارات أصداء في العالم العربي، على الرغم من تأخرها. أثر ذلك على مسار النقد العربي مما جعله يعرف محطات وتطورات بارزة. تجلى ذلك في اللحظات البارزة من تاريخه. تبعا للثوابت والمتغيرات التي عرفها.

فانطلاقا من العشرينيات، ظهرت ثلاثة مؤلفات مهمة:

(الديوان): للعقاد والمازني، (في الأدب الجاهلي): - لطه حسين، ثم (الغربال): لميخائيل نعيمة. هذه الأخيرة، شكلت قطيعة مع النقد اللغوي والبلاغي الذي مثله كتاب - الوسيلة الأدبية - لحسين المرصفي - خاصة - إن هذه البداية، تشكل نقدا عربيا جديدا. يتغذى من النقد الغربي. مما جعله يرتبط أحيانا بالشك الديكارتي. كما هو الشأن عند طه حسين. وأحيانا أخرى بهازيلت أو كولردج.

وفي بداية العقد الثاني من القرن العشرين، ظهرت داخل الرابطة القلمية في المهجر الشمالي الامريكي حلقة أدبية شكلت على إثرها حركة نقدية، أرست قواعدها في كل من: مصر، لبنان، سوريا، .. الخ. حركات انفتحت على الغرب باعتباره مصدرا معرفيا ومنظرا للإبداع. لكنها اتخذت من بداياتها بُعدا ايديولوجيا مما أدى في أغلب الأحيان، الى صراعات واصطدامات. تجلت في صراع العقاد والرافعي. وما عرفه كتاب (في الأدب الجاهلي) لطه حسين، من حملات. وكذا ما وجهه كل من العقاد وميخائيل نعيمة لأحمد شوقي. وقد أوضح طه حسين ذلك، في كتابه (خصام ونقد).

وفي نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات، برزت حركة نقدية عربية استقطبت معرفة شاملة ومكثفة تجلت - على سبيل المثال لا الحصر - في مجلة (الآداب) البيروتية بدعوتها الى الفكر الوجودي. فيما أخذت مجلة (الثقافة) الوطنية تدعو الى الفكر الماركسي. أما مجلة (شعر) فكان همها الدعوة الى الحضارة المتوسطية. وفي هذا الإطار، أصبح حضور



عباس محمود العقاد

د. سعيد بوعيطة

المغـــرب

الغرب أكثر عمقا. وذلك عن طريق تفكيكه لا للخطاب النقدي فقط، بل للخطاب الفكري عامة. من ثمة، تبرز أهمية كتابين هما: (في الثقافة المصرية) لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، و(دراسات في ضوء المنهج الواقعي) لحسين مروة.

العقاد وملامح المنهج النفسي :

على الرغم من أن حركة طه حسين وجيله (العقاد، ميخائيل نعيمه، المازني، شكري، ...الخ) قد وصلت الى حدود لم يعد لها عطاء إلا أنها شكلت محطات نقدية أساسية في مسيرة النقد العربي.

واذا كان ما قام به العقاد في المجال النفسي عبارة عن محاولات ساذجة لا ترتبط بالتحليل النفسي، وإنما بفهم نفسية ابن الرومي فانه يظل حلقة أساسية من حلقات النقد العربي التى لا يمكن تجاوزها. رغم أن بعض النقاد ينعتونها بالتقميش والبعد عن التحليل النفسي كأداة كلية وشاملة[١]. لأن الهدف (في أغلب الاحيان) ليس اثبات نتائج التحليل النفسي، بقدر ما هو تطوير النقد العربي ورسم حدوده وآفاقه.

الى حدود الخمسينيات، ساد المنهج النفسي، خاصة مع العقاد والنويهي. إن هذا التصور المنهجي عند العقاد، سنحدده في حدود ما تخوله لنا مؤلفاته ـ العبقريات ـ .

لقد اتجهت أغلب الدراسات النقدية الى رصد خصوصيات الأجناس الأدبية والبحث عن الثابت والمتحول فيها: الشعر، القصة، الرواية، المسرح.. أما السيرة الذاتية، فقد ظلت تفتقر الى هذا التحديد. وان وجد شيء من ذلك، فإنه يتميز بأحكام عامة مع نهج المادة التاريخية. من هذا المنطلق، اعتبر العرب القدامى الكتابة عن الأشخاص، جزءاً من كتابة التاريخ.

يقول المؤرخ الفرنسي برناركلي: «إن السيرة هي وحدها كانت قادرة على تحسيس المؤرخين بالزمان الذي عاشه البشر»[٢].

إن هذا التصور، ينسجم مع ما كتبه العقاد في مؤلفاته العبقريات، حيث وظف المادة التاريخية (أحداث، وقائع، أخبار، .. الخ). مادة تتعلق بشخصية من شخصيات عبقرياته. لكنه لا يُعنى بالوقائع من حيث هي وقائع، ولا بالأخبار من حيث هي أخبار، بقدر ما يُعنى برسم صور معينة من خلال هذه الوقائع والأخبار.

يقول العقاد : «لا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع ولا بالأخبار من حيث هي أخبار، لكنني قصدت رسم صورة نفسية»[٣].

إن رسم هذه الصورة، لا يتأتى إلا بالاعتماد على الأخبار التاريخية، لذا اهتم بها العقاد. إن السؤال الذي يطرح نفسه ونحن نتحدث عن تجربة العقاد هو: ما هي الأسس الموضوعية والمنهجية التى استند إليها العقاد؟.

لقد ألف العقاد - العبقريات - كاستمرارية لمشروعه الفكري العام. يقول: «في تقديم كتابي هذا عن أبي بكر الصديق، أقول ما قلته في - عبقرية محمد - وعبقرية عمر - وكل كتاب من هذا القبيل»[٤].

نتساءل إذن، عن الدافع الى تأليف هذه العبقريات؟ يجيب الناقد عبد الفتاح كليطو بأن أسباب كتابة السير - عامة - تكمن فيما يلي:[٥].

أ - الاعتراف بالذات (في هذا الشأن، يربطها ميشال فوكو، بالعادة المسيحية حيث يعترف المرء بما ارتكب من معاص).

ب - الرغبة في وضع تقليد أو سنة إن الذي يترجم لنفسه يتقدم كنموذج يحتذى به فتكتسي الترجمة صبغة تعليمية.

ج - الاعتقاد بأن الأحداث التى عاشها صاحب الترجمة، مثيرة وجذابة لأن الذي يكتبها يسعى الى اثبات وحدته، من ثمة نقول: إن كتابة السيرة لا يمكنها أن تكون إعادة أمينة لمجمل تفاصيل حياة صاحبها. إنها توق دائم للاحتفاظ بوجود مستمر. وتجديد ودفع آخر

مناهجنا الأدبية والفكرية أسست على مفاهيم الغرب باعتبارها مصدراً معرفياً ومنظراً للابداع

لمراحل الحياة الماضية، إن حديث العقاد عن شخصيات عبقرياته، ليس سوى حديث عن نفسه. يظهر ذلك مما يلي:

١ - الإحباط والإخفاق السياسي للعقاد.

٢ - النظر بوعي أو بدونه لشخصيته (العقاد العبقري). وهذا ما يسمى في علم النفس بالاسقاط حيث تتحول فيها السيرة الغيرية الى سيرة ذاتية وتكون الشخصية المترجم لها مجرد قناع.

٣ - الحط من قيمة الأنظمة الحديثة.

٤ - فساد نظام الحكم في عصره. مما جعله يشير الى هذا الحل الخلاص[٦].

يشير بعض الباحثين الى أن اختيار العقاد لكتابة هذه العبقريات، يرجع الى إيمانه بالفرد (الفردانية) فيما يرى البعض الآخر، انها تدخل ضمن اهتماماته بالفكر العربي عامة. وتأثره بالأدب الانجليزي الذي ضم باحثين اهتموا بما تعلق بالبطولة: توماس كارليل، صاحب كتاب - الأبطال - علما بأن العقاد من اكثر الأدباء العرب، استفادة من الأدب الإنجليزي، كما أن مرجعيته الأساسية، تستند الى العالم الإيطالي لومبروزو، ومدرسته. خاصة فيما يتعلق بالعبقرية. كما تأثر بعالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت. إلا أنه من المؤكد أن طروحات لومبروزو، بعيدة عن علم النفس. الشيء الذى لم يعه العقاد[٧]. لأنها أقرب الى علم الإجرام. يقول العقاد مشيرا الى هذه المرجعية: «إن العالم الايطالي لومبروزو ومدرسته التى تأتمر برأيه. يُقرون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا نخطئها على صورة من الصور في أحد أهلها»[٨].

إن العقاد قد عمّم مفهوم العبقرية وزاده ضبابية. مرد ذلك الى اختلاف مفهوم العبقرية بينه وبين مرجعه. ونبين ذلك كالتالي:

* لومبروزو — العبقرية — علم الاجرام — الاجرام.
* العقاد — العبقرية — علم النفس — البطولة.

وفي الوقت الذى بدأ العقاد اهتمامه بمفهوم العبقرية، فإن هذا الأخير قد تم دحضه وتجاوزه. ولعل هذا ما يبين أن العقاد قد أساء تناول بعض المفاهيم. لأنه وظفها في غير مكانها وزمانها، عكس ما يذهب إليه بعض النقاد في كون العقاد قد سلك طريقة تحليل ومنهج نفسي سليم. إن جل مقدمات عبقرياته، والتى يحدد فيها أسسه المنهجية، لم تعط مفاهيم وأدوات واضحة. واكتفى ببعض الإشارات التى تشي الى مجال علم النفس. وعلى الرغم من أن العقاد ليس غريبا في هذا المجال، فإنه يكتفي فقط برسم تلك الصورة النفسية.

يقول : «إنني لا أكتب ترجمة للصديق ولا اكتب تاريخا لخلافته، ولكنني قصدت رسم صورة نفسية»[٩].

لقد وظف العقاد مصطلحات تتعلق بعلم النفس: حدة المزاج، العصبية، النموذج، ... الخ. استقى هذه الخصائص استنادا الى المادة التاريخية.

يقول: «ومهما يكن حق الدراسة التاريخية في هذا الموضوع، فحق الدراسة النفسية يساويه. إن لم يكن يزد عليه أو ربما كان حق الدراسة التاريخية مطلوبا لما ينتهي إليه من هذه العجيبة النفسية التى هي غاية العلم الذي نصبو إليه»[١٠].

إلا أن محاولة المزاوجة بين النفسي والتاريخي والأدبي، جعل الوحدة تغيب سواء على مستوى الموضوع أو المنهج مما يجعلنا نقول، إنه من الصعب الحديث عن منهج متماسك عند العقاد (إن هذا ما جعلنا ننعته بملامح المنهج النفسي). وفي هذا السياق، يقول احسان عباس: «ما كتبه العقاد، ليس سيرا بالمعنى الدقيق. ولكن تفسيرا لبعض مظاهر الشخصيات، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي وليس هو (...) هي لباقة في العرض ومهارة في اللمح والتفسير»[١١].

وعلى الرغم من ذلك، فإن أهم ما يمكن اثارته فيما يخص ما قدمه العقاد:

أ - الإنتقائية فيما يتعلق بالمادة التاريخية حيث الوقوف عند محطات بارزة في التاريخ العربي. والشيء نفسه فيما يتعلق بالمنهج. حيث الاكتفاء ببعض الأدوات والمفاهيم البسيطة.

ب - عدم ممارسة أية قراءة نقدية على المصادر والمراجع، سواء التاريخية أو ما يتعلق بعلم النفس.

على الرغم من هذه الملاحظات، فإن العقاد قد ساهم في إغناء الثقافة العربية، وتحريك الوعي الثقافي العربي. في مرحلة بدأ فيها هذا الوعي شق طريقه مع مجموعة مفكرين من قبيل: طه حسين، ابراهيم المازني، عبد الرحمن شكري، عبد الحليم المصري، ...الخ. إذ عملوا على تأصيل قواعد تجديدية سواء فيما يتعلق بالتجربة الشعرية أو القضايا الفكرية العامة.

الهوامش :

(١) التحليل النفسي والنقد الأدبي، حوار مع: جورج طرابشي، مجلة: دراسات سيميائية أدبية، (المغرب)، ع٣ صيف/ خريف ١٩٨٨، ص:٠٩.

(٢) ايت أوشان (علي)، قراءة نقدية لعبقرية الصديق، البيان الثقافي، ع ٣٢، ٢٧ يناير ١٩٩٢م.

(٣) عباس محمود العقاد، عبقرية الصديق، (ب ط)، دار الهلال، ١٩٤٣م، ص ٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٥) كليطو (عبد الفتاح)، الحكاية والتأويل، ط ١، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٨٨م، ص ١٣.

(٦) البيان الثقافي (مرجع سابق).

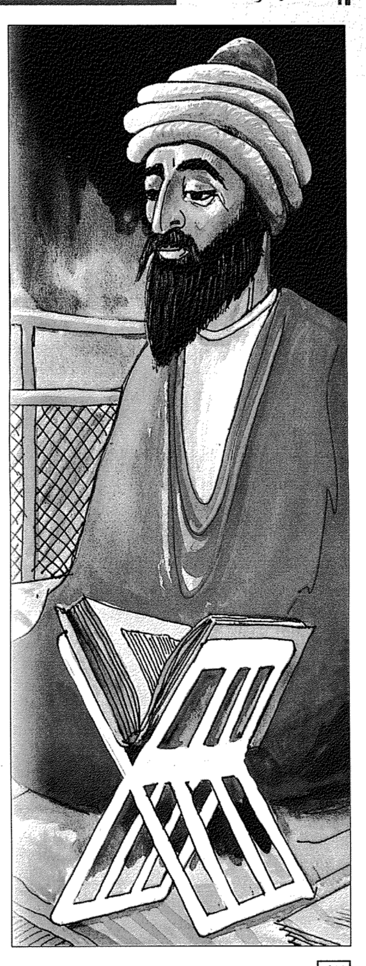
(٧) المرجع نفسه .

(٨) الناقوري (ادريس)، البطولة والعبقرية، سلسلة: دراسات تحليلية، ط ١، دار النشر المغربية، ١٩٨٤م، ص ٢٦.

(٩) عبقرية الصديق (مصدر سابق)، ص ٢٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(١١) احسان عباس، فن السيرة، ط ٢، دار الكتاب، مصر، ١٩٧٢، ص ١٠٢.



مفهوم العلم في العقل العربي

الإسلام والعلم :

من المعروف أن الحركة العلمية لدى العرب المستعربة قد نشطت نشاطا لا سابق له بفضل ظهور الإسلام وانتشار الدعوة الإسلامية وإقبال المسلمين على حفظ القرآن الكريم والتفكر في آياته. فقد كانت أول سورة نزلت على الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ هي سورة العلق التى أولها: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق/ ١ـ٥).

ويلاحظ في هذه السورة الربط المحكم بين خلق الإنسان وتعليمه، وكأن إنسانية الإنسان تتوقف على تعلمه، وكأن قيمته الحقيقية تكمن في علمه ومعرفته، فبدون المعرفة لا قيمة له، ويخيل اليّ أن الإمام علي بن أبي طالب قد استلهم من هذه السورة وغيرها مقولته الشهيرة: «قيمة كل امرىء ما يُحسن».



د. على القاسمي

- الربـــاط -

ويحكم النظام المعرفي في الإسـلام ثلاثة مـبادىء أساسية:

الأول: **إن العلم لله العليم وليس للإنسـان من علم إلا مـا علّمـه الله تعـالى**: {**سبحـانك لا علم لنا إلا مـا علّمـتنا إنك أنت العليم الحكيم**} (البـقـرة/ ٣٢)٠ ولا يمكن للإنسان أن ينال شيئا من علم الله إلا بمشيئته: {**ولا يُحيطُون بشيء من علمه إلا بما شاء**} (البقرة/ ٢٥٥)٠

وتكمن أهمية هذا المبدأ في أنه يلغي احتكار العلم إلغاء شاملا، ويلغي كل وصاية عليه، مهما كان نوعها أو مصدرها٠ فما دام العلم لله، فإن لجميع خلق الله الحق في نيل شيء منه٠ فكما أن الملك لله فـالأرض أرضه والماء ماؤه والهواء هواؤه ويحق لجميع عباده أن يستثمروها، فإن العلم كذلك مشاع للجميع لا ينحصر في فئة مهنية معينة كالكهان والسحرة، ولا يقتصر على طبقة اجتماعية اقتصادية محددة كالنبلاء والأغنياء٠

الثاني: **مبدأ لا محدودية العلم**٠ فنحن مهما بلغ علمنا لا نعرف إلا الشيء الضئيل جداً: {**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**} (الإسراء/ ٨٥)، لأن {**فوق كل ذي علم عليم٠٠**} (يوسف/ ٧٦) ٠ وهذه متوالية لا متناهية تؤكد لا محدودية المعرفة من ناحية، وفتح باب البحث العلمي على مصراعيه، من ناحية أخرى، فما دام هنالك كثير من العلم غير المكتشف، فإن باستطاعتنا الكشف عن بعضه، والحصول على شيء منه، والاستفادة من نتائجه٠

الثالث : **مبدأ وجود التعلم**، إذ أن (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، كما قال الرسول {صلى الله عليه وسلم} وكل مسلم تعني - بالتغليب - كل مسلم ومسلمة، ويقول الأصوليون (علماء أصول الفقه) إن طلب العلم فرض عين وليس فرض كفاية، أي لا يكفى أن يقوم به بعض المسلمين نيابة عن بقيتهم، وإنما يجب على كل واحد بعينه٠

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تحث المسلمين جميعاً على التفكر والتأمل وإعمال العقل في الكائنات والطبيعة والكون كله وحبب الرسول {صلى الله عليه وسلم} العلم الى النفوس في مناسبات مختلفة وأحاديث كثيرة، فروي عنه أنه قال: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم»، وقال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقا الى الجنة»٠

** مكانة العلم والعلماء :

وبفضل هذه المبادىء الثلاثة، تبوأ العلم والعلماء في العقل العربي أعظم درجة وأسمى مكانة٠٠ وقد بيّن القرآن الكريم الفرق الكبير بين منزلة أهل العلم ومنزلة غيرهم بسؤال تقريري استنكاري: {**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟**} (الزمر/ ٩)، وأصبح طلب العلم أفضل من نوافل العبادات الأخرى بحيث يُقدَّم العالم على العابد كما يُقدَّم النبي على بقية الناس، بل كما يفضل النبيُّ أدنى الناس٠ وهو ما أفصح عنه الرسول محمد {صلى الله عليه وسلم} بنفسه حين قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، وفي رواية أخرى : (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)، وفي حديث آخر يؤكد فضل العالم على العابد: «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة»٠

المـــال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق

وطلب العلم في الإسلام أفضل من نافلة الصلاة، كما هو واضح من قوله {صلى الله عليه وسلم} «لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة».

ومن فضل العلم أنه «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة».

وطلب العلم أفضل من نافلة الصوم، لأن الصوم يستطيعه معظم الناس أما العلم الحقيقي فلا يحمله إلا قلة قليلة منهم ويصعب تعويضهم عند فقدهم. وهذا ما يفهم من كلام الإمام علي بن أبي طالب: «العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد. وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه».

العلم والمال :

وطلب العلم أفضل من الاستثمار في الأعمال التجارية وكسب المال. ويشتمل تراث العرب الأدبي على نصوص كثيرة تتناول المقارنة بين العلم والمال، لعل أشهرها وصية الإمام على بن أبي طالب لتلميذه كميل حين قال له:

«يا كميل! العلم خير من المال: العلم يحرسك وأنت تحرس المال. العلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق. مات خُزّان الأموال، وبقي خُزّان العلم: أعيانهم مفقودة، وأشخاصهم في القلوب موجودة».

فالأثرياء ينتهون بموتهم أما العلماء فيبقى ذكرهم حياً بعد وفاتهم، بفضل ما يخلفونه من أفكار ونظريات ومؤلفات. كما أن صاحب المال يفقد منزلته



بين الناس بفقدان ماله، بعكس صاحب العلم الذي لا يفقد علمه فتظل مكانته مصونة دوماً، كما يقول الفضل بن سلمة:

قــد يذهب الجــاه إذا المال ذهب
ويثــبت الجــاه إذا العلم صَحبْ

والعلم والعلماء - في العقل العربي - أفضل من السلطة والسلاطين؛ فالسلطان حين يمارس مسؤولياته يحتاج الى فكر العالم وآرائه ونظرياته. وهذا ما يدل عليه كلام الإمام جعفر الصادق حين قال: «**الملوك حكام على الناس، والعلماء حكّام على الملوك**».

فالعرب يؤمنون بأن الله تعالى رفع مكانة العلماء درجات مصداقا لقوله تعالى: {**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**} (المجادلة/ ١١)، وهكذا تبوأ العلماء، في الثقافة العربية، مكانة أسمى من مكانة العباد، والقائمين، والصائمين، والتجار، والملوك. وليس هنالك أرفع من تلك المرتبة إلا منزلة الأنبياء. والأنبياء لا يورثون النبوة ولكنهم يورثون العلم والمعرفة. ولهذا أصبح «العلماء ورثة الأنبياء» كما ورد في حديث متفق عليه.

هذه المنزلة الرفيعة التى يتمتع بها العلماء تجعلهم أكثر الناس معرفة بالله وأعظمهم خشية منه: {**إنما يخشى الله من عباده العلماء**} (فاطر/ ٢٨)، والعلماء يعرفون ما لا يعرفه عامة الناس، بل يعلمون أشياء تخفى على الناس ولا يعلمها إلا الله: {**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**} (آل عمران/ ٧). وهذه أعظم منزلة يمكن أن يتصورها العقل.

هذه المنزلة الرفيعة التى تبوأها العلماء في الثقافة العربية هي التى أطلقت عددا من الأقوال السائرة التى تنوه بأهمية العلماء، مثل: «إذا زل العالم زل بزلته عالم» و«قتل أرضا عالمها، وقتلت أرض جاهلها».

هذه المكانة السامية التى تبوأها العلماء هي التى أوجبت علينا توقيرهم وإجلالهم مهما كان مظهرهم متواضعا وعيشتهم بسيطة، لأن المخبر أهم من المظهر. وفي هذ يقول أبو عثمان الجاحظ الذي كان وجهه الدميم لا يضاهي عقله العظيم: «**لا تزدرين العالم وإن كان حقيرا، ولا تعظمن الأحمق وإن كان كبيرا**».

فالعلم يرفع قدر الإنسان وإن كان لا ينتمي الى أسرة عريقة أو طبقة اجتماعية مترفة، بعكس الجهل الذي يحط قيمة الإنسان ويلحق بصاحبه الهوان، حتى إذا كان من علية القوم حسبا ونسبا وثراء وسلطة:

العلم يرفع بيــتــاً لا عــمــاد له
والجــهل يهـدم بيت العــزّ والشــرف

- أو كما يقول دعبل الخزاعي:

العلم ينهض بالخسيس الى العلا
والجهل يقعد بالفتى المنسوب

- أما احمد شوقي فيذهب الى أبعد من ذلك، إذ يرى أن الإنسان الجاهل هو إنسان مريض بلا دواء، فالعلم ضرورة حياتية:

ترك النفــوس بلا علم ولا أدب
تــرك المـريــض بــلا طــب ولا آس

ولا تقتصر أهمية العلم على إمداد الإنسان البسيط بالغذاء الروحي والدواء الفكري ورفع منزلته الى منزلة العظماء فحسب، وإنما بالعلم تتقدم المجتمعات وترتقي الأمم كذلك، كما يقول معروف الرصافي:

بالعلم تنتظم البــلاد فــإنه
لرقي كل مــدينة مــرقــاة

ولهذا كله أصبح العلم أنفس شيء، و«أعز ما يطلب»، كما ورد في عنوان كتاب لمحمد بن تومرت الذي أوصله تضلعه في العلوم الى حكم المغرب

الأقصى وتأسيس دولة الموحدين فيه.

هذه المنزلة السامية التى يحتلها العلم هي التى جعلت الكثيرين يدعونه وينتسبون الى طائفة العلماء، أو كما قال الإمام علي بن أبي طالب: «كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل صنعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نُسب إليه».

لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم.. فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل

تواضع العلماء :

ومع هذه المنزلة الرفيعة التى يتبوؤها العالم، فإنه يظل متواضعاً لا يتباهى بما يعرف، بل يعتقد، بكل إخلاص، أنه لا يعرف في حقيقة الأمر شيئاً يذكر وأنه مجرد طالب علم. وهذا الشعور بالجهل ضرورة لتحصيل شيء جديد من العلم المتنامي اللامتناهي، كما يستفاد من قول الرسول {صلى الله عليه وسلم} «**لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل**».

فمن يدعي تمام علمه فإنما يبرهن على جهله وقلة معرفته بحقيقة العلم، لأنه سيتوقف عن اكتساب ما يستجد من العلوم في ميدانه وسرعان ما يصبح متخلفاً عن ركب العلماء بحيث يحق لغيره أن يصنفه في طائفة الجهلاء. ويقول فيلسوف العرب الكندي في هذا: «إن العاقل من يظن أن فوق علمه علماً، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة. والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس. «فادعاء العلم دليل على الجهل، كما يقول أبو العتاهية:

أشد الناس للعلم ادعاء
أقلهم بما هو فيه علما

ويقول الإمام الشافعي :

كلما أدبني الدهـ
ـرُ أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددتُ علماً
زادني علماً بجهلي

وإذا توقف العالم عند حد معين دون أن يضيف الى ما لديه ودون أن يعدّل ويطور فيه ، أصبح ـ بمرور الزمن وتطور العلم ـ في عداد الجهال، ولهذا قال النفري: «العلم المستقر هو الجهل المستقر».

تحصيل العلم : الزمان والمكان :

ونظراً لهذه المكانة السامية التى يتبوأها العلم في الثقافة العربية الإسلامية، فقد أصبح تحصيله فرضاً واجباً على كل فرد. ولا يتقيد هذا التحصيل بزمان معين ولا بمكان مخصوص. فالعمر كله وقت تحصيل، والإنسان يتعلم في جميع مراحل حياته: في الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة، طبقا لتوجيه الرسول {صلى الله عليه وسلم} «اطلب العلم من المهد الى اللحد». وهذا ما يسمى في وقتنا الحاضر بـ «التربية المستديمة» أو «التعلّم مدى الحياة»، فلا يكفى التخرج

من الجامعة بأعلى الدرجات الأكاديمية وإنما يحتاج الفرد الى دورات تدريبية متواصلة، وإعادة تأهيل، وتثقيف واطلاع دائمين دائبين. وهذا ما تلخصه مقولة الإمام أحمد بن حنبل الشهيرة: «مع المحبرة الى المقبرة».

والتعلم مدى الحياة مقولة لها تطبيقات وأمثلة كثيرة في الثقافة العربية الإسلامية، إذ تروي لنا كتب التراث، مثلا، أن أبا الريحان البيروني، أكبر علماء عصره، سأل - وهو على فراش الموت - أحد عوّاده عن مسألة حسابية كان مجمع العلوم الذى يرأسه البيروني يحاول حلّها، فأنكر عليه أحد الحاضرين ذلك، فقال له البيروني: «يا هذا، أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها؟!».

ليس لتحصيل العلم وقت معلوم من أوقات الليل والنهار، فطالب العلم نهم لا يشبع من غذاء الفكر، يواصل الإقبال عليه بتلذذ، وينغمس فيه بلهفة، لا يشبهه في ذلك إلا من افتتن بجمع المال وتكديس الملايين، فإذا جمع مليونه الأول تلهف لجمع المليون الثاني وأغرق في ابتداع السبل لتحقيق ذلك. ولهذا قال الرسول {صلى الله عليه وسلم} «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا/ مال».

ويتطلب تحصيل العلم منا المثابرة والجد ومواصلة الليل بالنهار، صيفا وشتاء، ربيعا وخريفا، دون أن نتشكى من حر الصيف ولا نتذمر من برد الشتاء، ودون أن يلهينا جمال الربيع ولا تشغلنا تقلبات الخريف، كما يقول أحمد بن فارس، الذي مكنه جده ومثابرته من تصنيف معجمين هما (المجمل) و(مقاييس اللغة):

إذا كان يؤذيك حر المصيـ
ـف وكرب الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيـ
ـع، فأخذك للعلم، قل لي متى؟!

ومن ناحية أخرى، ليس للعلم مكان محدد أو محل مخصص. ولا يقتصر تحصيله على المدرسة فقط، لأن كل مكان يصلح لطلب العلم واكتسابه، فـ «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها» كما يقول الرسول {صلى الله عليه وسلم} وهي كلمة جسد معناها وترجمها عمليا ذات مرة أحد أحفاده هو زين العابدين على بن الحسين الذى قيل له إنه سيد الناس فَلِمَ يجلس في حلقة زيد بن أسلم وهو عبد أسود، فأجاب بتواضعه الذى يضرب فيه المثل: «**إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإن العلم يُطلب حيث كان**»، ولا يتوقف طلب العلم على المدينة التى يقطنها المرء أو البلاد التى يستوطنها، وإنما يطلب أينما كان مهما بعد المكان، تأسيا بمأثور القول: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

ونتيجة لذلك، فقد عرفت الثقافة العربية الإسلامية تقليداً طويلا حافلا يُسمى «الرحلة في طلب العلم»، وكانت تلك الرحلة شاقة في زمن لم تتيسر فيه وسائل المواصلات ولا الطرق الممهدة، ولكن «من احتاج الى العلم رحل إليه وطلبه»، كما يقول أبو العلي اليوسي، الذي جال في المغرب حاضره وباديه في طلب العلم حتى أصبح من الأدباء والعلماء المشاركين وصنف المؤلفات الكثيرة ومنها كتابه المشهور «زهر الأكم في الأمثال والحكم».

ولخص الغزالي لنا عزمه على الارتحال والتغرب في طلب العلم في بيت واحد:

سأضرب في طول البلاد وعرضها
لأطلب علماً أو أموت غريبا

ويفسر لنا أبو على القالي، في مقدمة كتابه «الأمالي» الذي يعد من مصادر الأدب العربي، السبب في كثرة رحلاته في طلب العلم بقوله: «فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة،

فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية».

وتستند الرحلة في طلب العلم الى عدد من الأحاديث النبوية منها: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» ومنها: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له به طريقا الى الجنة».

لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس اليكم

تقييد العلم وحفظه :

على الرغم من أن الثقافة العربية توصي بتقييد العلم بالكتابة خوفاً من ضياعه وتيسيراً لنشره ووصول الآخرين إليه، فإنها في الوقت نفسه لا تعتبر الرجل عالماً ما لم يحفظ عن ظهر قلب المعارف التى درسها، وتسخر ممن يمتلك المعرفة على شكل كتب ووثائق ولكنه لا يعرف ولم يحفظ محتوياتها:

وعند الشيخ
كتبٌ من أبيه
مصفطة
ولكن ما قراها

كما تهزىء بطالب العلم الذى يعتمد على دفاتره التى يسجل فيها محاضرات شيخه أو آراء أستاذه دون أن يستطيع حفظها عن ظهر قلب؛ فـ «العلم في الصدور لا في السطور» كما يقول المثل السائر. وأنشد عبد الملك الأصمعي الذى يعدّ من أشهر رواة الشعر العربي، بيتاً في هذا المعنى:

استودع العلم قرطاساً فضيّعه
وبئس مستودع العلم القراطيس

فالعالم الحقيقي، في العقل العربي، هو الذي يحفظ علمه في صدره ويستحضره أينما كان، قريبا من كتبه أو بعيداً عنها، كما قال الإمام الشافعي:

علمي معي حيثما يممتُ يتبعني
قلبي وعاء له، لا بطن صندوق
إن كنتُ في البيت كان العلم معي
أو كنتُ في السوق كان العلم في السوق

وتذهب الثقافة العربية الى أبعد من ذلك. فإذا درس الرجل درساً فإن العلم هو ما حفظه فقط. وهذا ما يدلّ عليه القول المأثور: «ما العلم إلا ما وعاه الصدر».

شروط تحصيل العلم :

ولكن هذا الحفظ يتطلب توفر شروط معينة ويقتضي اتباع خطوات محددة، يبينها لنا المختصون، ونظمها الشعراء شعراً تيسيراً لحفظها.

ويحدد ابن قتيبة في كتابه الذائع الصيت «عيون الأخبار» هذه الخطوات بقوله: «أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العقل، والخامس النشر».

ويهذب النمري القرطبي هذه الخطوات ويحسنها ويضيف إليها شرطاً أساسياً هو النية، التى تعنى توفر الرغبة في التعلم والعزيمة على اكتساب المعرفة لوجه الله تعالى، فيقول: «أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم

الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر».

ويرى الإمام الشافعي أن من شروط تحصيل العلم أن يكون الطالب على قدر من الذكاء والحرص والاجتهاد، وأن يصحب استاذاً قديرا لمدة طويلة:

أخي لن تنال العلم إلا بستة
سأنبيك عن تفصيلها ببيان:
ذكاء وحرصٌ واجتهادٌ وبلغةٌ
وصحبةُ أستاذ وطول زمان

ويضيف الطوسي، الى ما تقدم من شروط وخطوات، شرطين آخرين: أولهما، أن يتمتع الطالب بصحة جيدة تساعده على صفاء الذهن وانشراح القريحة، وأن يتوفر على ما يقيم أوده من سكن ولباس وطعام؛ وثانيهما، الاغتراب في سبيل العلم عند الضرورة، فيقول نظماً:

بعشر يُنال العلم: قوتٌ وصحةٌ
وحفظٌ وفهمٌ ثاقبٌ في التعلم
ودرسٌ وحرصٌ واغترابٌ وهمةٌ
وشرخُ شباب واجتهادُ معلّم

زكاة العلم :

من جوامع الكلم وروائع الحكم قول الرسول {صلى الله عليه وسلم} «**العلم يزكو على النفقة**». وتتجلى عبقرية هذا القول - إضافة الى معناه العام وأهدافه الإنسانية السامية - في استعمال الفعل «يزكو» ، فهو مشترك لفظي له دلالات ثلاث تتكامل فيما بينها، وهي: زكا يزكو زكواً وزكاء وزكاة فهو زاك: - الشيء: (١) نما وزاد، (٢) صلُح وحسُن، (٣) صار طاهراً (كالمال بعد أن تدفع عنه الزكاة).

ونفقة العلم، هي الأخرى، تتمثل في صور متعددة: قيام العالم بالتدريس، وبالمناظرة، وبالتأليف، وبنشر علمه بأية وسيلة من وسائل النشر، وبإخراجه في تطبيقات عملية، وبإجابة من يسأل، الخ.

ومن خبرتي المتواضعة في التعليم الجامعي، تأكد لي أنني استوعب معلوماتي بشكل أفضل حين أقوم بتدريسها لطلابي أو إعدادها في محاضرة عامة أو حديث إذاعي. وكنت أفهم تلك المعلومات بشكل أحسن إذا خضعت للمناقشة والتدارس مع طلابي أو زملائي. وهذا ما جعل إسحاق التادلي الرباطي يقول: «ليس العلم بكثرة التأليف ولكن بالمدارسة والمثاقفة». وقد وعى هذه الحقائق نابغة عصره الخليل بن أحمد الفراهيدي فقال يوصي أحدهم: «اجعل تعليمك دراسة لك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيها لما ليس عندك».

هذه النفقة الواجبة على العلم كوجوب الزكاة على المال، التى أكدها الرسول {صلى الله عليه وسلم} في حديثين آخرين: «لا تمنعوا العلم أهله» و«**كاتم العلم يلعنه كلُّ شيء**»، إنما هي في مصلحة العالم أولا، والعلم ثانياً، والآخرين ثالثا،

لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء

والإنسانية جمعاء بعد ذلك. فهي في مصلحة العالم لأنه يستوعب علومه بشكل أفضل. أما مصلحة العلم فتصورها كلمة مأثورة للإمام علي بن أبي طالب: «كل شيء يعزّ إذا نزُر، ما خلا العلم». فانتشار العلم يؤدي الى علو مكانته وتغلغله في حياة الناس فيزدادون محبة به وتعظيماً له. وإذا كانت البضائع الأخرى يرتفع ثمنها بقلتها في السوق، طبقاً لمبدأ العرض والطلب، فإن بضاعة العلم على العكس من ذلك إذ يزداد الإقبال عليها كلما كثرت. فالمجتمع الجاهل لا يقبل على اقتناء الكتب وقراءتها، بل المجتمع المثقف هو الذي يشجع العلماء ويعزهم.

** كاتم العلم يلعنه كل شيء. ** علم لا ينفع ككنز لا ينفق منه

وزكاة العلم هذه هي في مصلحة الناس جميعاً لأنهم هم المقصودون بعبارة «أهل العلم» التي وردت في الحديث، ونصه الكامل يدل على ذلك: «لا تمنعوا العلم أهله، فإن في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم» ثم قرأ: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون).

وقد ردد أئمة الفكر وقادة الرأي حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) «العلم يزكو على النفقة» بعده في صور متعددة واستثمروه في مجالات كثيرة. فقد مرّ بنا حديث الإمام علي الذى ورد فيه «.. المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق». ويحث الغزالي على إنفاق العلم بطريقة بلاغية جميلة فيقول: «من أصاب علما فاستفاد وأفاده كان كالشمس تضيء لنفسها ولغيرها وهي مضيئة».

هذه الفكرة المتجذرة في العقل العربي القائلة بوجوب إباحة العلم وتحريم كتمانه أو منع الآخرين من الإفادة منه هي التي جعلت كثيرا من الدول العربية تتلكأ في توقيع الاتفاقات المتعلقة بحقوق الملكية الفكرية أو حقوق المؤلف، ما يستدعي ضرورة التوفيق بين الحقوق التي تعود للمؤلف لقاء جهده وعرق جبينه وتلك الحقوق التي تعود للجمهور لتمكينه من الإفادة من المعرفة أيا كان مصدرها، بحيث يكون العلم مشاعاً كالماء والهواء.

العالم والجهال :

لفظ «الجاهل» في اللغة العربية يعني إما السفيه غير الحليم وإما غير العارف. ويزخر التراث العربي بقصص وطرائف وأمثال وأقوال مأثورة عن علاقة العالم بالجهال بحيث نرثي لحاله ونأسف عليه.

قد يحاول العالم تعليم الجاهل السفيه الذي لا استعداد له للتعلم ولا رغبة له فيه، فيتعالى ذلك الجاهل على العالم الذي يصاب بالإعياء والإحباط كما يقول صالح عبد القدوس:

وإنَّ عناء أن تعلّم جاهلا
فيحسب جهلا أنه منك أعلمُ

وقد يجهد العالم نفسه في تعليم السفيه ولكن هذا الأخير لا يفيد منه وتذهب جهود العالم هباء ولا يضارعه في حاله إلا من منع الراغبين في التعلم منه، كما أشار الإمام الشافعي:

ومن منح الجهال علماً أضاعه
ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد يجد العالم نفسه بين مجموعة من الجهال الذين لا يقدرون علمه ويستهزءون به ويناصبونه العداء ويكيلون له الأذى، طبقاً لقاعدة «الناس أعداء ما جهلوا» أو تبعاً لبيت يُنسب الى الإمام علي:

وقدر كل امرىء ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

فيتألم ذلك العالم لما يفعله أولئك الجهال بأنفسهم ومجتمعهم؛ فـ «الجاهل يلعب بنفسه كما يلعب العدو بعدوه»، كما ورد في القول المأثور. وفي هذه الحالة يستحق ذلك العالم الرثاء أو كما روي عن الرسول {صلى الله عليه وسلم} «**ارحموا عالماً ضاع بين جهال**».

ويروى أنه كان للعبقري الخليل بن أحمد الفراهيدي ولد بطيء التعلم قليل الفهم. ودخل هذا الولد على الخليل يوماً فرآه يردد بيتاً عدة مرات وينقر على آلة بيده، فظن أن أباه قد جنّ، ولم يعلم أنه كان يقطع البيت لتحديد وزنه، فقال الخليل:

لو كنت تعرف ما أقول عذرتني
أو كنتُ أجهلُ ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني
وعلمتُ أنك جاهل فعذرتكا

إذا كانت أخبار التراث العربي تدلنا على أن الخلفاء والملوك والأمراء يقربون العلماء والأدباء والشعراء ويغدقون عليهم الهبات، فإن المقصود بأولئك العلماء كبارهم ممن يبلغ بهم علمهم مجالس أولى الأمر. أما طلاب العلم وصغار العلماء الذين لم يبلغوا مبلغ الشهرة فقد كانوا يعيشون عيشة الكفاف شأنهم شأن الطلاب في كل مكان وزمان حتى لو وفرت لهم الدولة الأقسام الداخلية أو المنح الدراسية. ولهذا تزخر الثقافة العربية بقصص وأخبار عما يقاسيه طلاب العلم من الفقر والعوز. وتلخص مقولة الإمام مالك ذلك، فقد روي عنه قوله: «لن يُنال هذا الأمر حتى يذاق فيه طعم الفقر».

ويضطر العالم الباحث أو الأديب المبدع الى مزاولة مهنة تشغله عن علمه وأدبه بعض الوقت ليكسب قوت يومه، في حين يتمتع كثير من الجهال بالنعم والخيرات والسلطة أحياناً، فيشعر العالم والأديب بالمرارة والظلم. وهذا ما حدث لأبي هلال العسكري، صاحب (كتاب جمهرة الأمثال) الشهير، ما جعله يقول:

العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه

جلوسي في سوق أبيع وأشتري
دليل على أن الأنام قرود
ولا خير في قوم يُذَلُّ كرامُهم
ويعظُمُ فيهم نذلُهم ويسودُ

أما الشاعر أبو الحسين الجزار فقد هجر مهنة الأدب التى أذاقته العوز والفقر وامتهن القصابة فأصبح جزاراً موسراً وقال:

كيف لا أشكر القصابة ما عشـ
ـت حياتي، وأهجر الأدابا؟
وبها صارت الكلابُ ترجّيـ
ـني، وبالشعر كنتُ أرجو الكلابا

وهذه المفارقة التى تتمثل في جوع العالم فقراً وتخمة الجاهل غني، صورها لنا شاعر لا نعرف اسمه - مع الأسف - ولكن نحفظ شعره القائل:

تموت الأسدُ في الغابات جوعاً
ولحم الضأن يُرمى للكلاب
وذو جهل ينامُ على حرير
وذو علم ينامُ على التراب

وقد تكرّم الأمة عالماً من علمائها أو شاعراً من شعرائها بعد وفاته، أي بعد فوات الأوان، كما يقولون، فينطبق عليه ما قاله عبيد بن الأبرص:

لا ألفينك بعد الموت تندبني
وفي حياتي ما زودتني زادي

أخلاقيات العلم :

في الثقافة العربية الإسلامية ثمة ضوابط أخلاقية تقيد توجهات البحث العلمي، وتحدد استخدامات نتائجه، وتبين الخصال التى ينبغي أن يتحلى بها العلماء. فنعمة العلم قد تتحول الى نقمة ما بعدها نقمة إذا جانب العلم جادة الصواب ولم يلتزم بالقواعد الخلقية، كما يقول أحد الشعراء:

العلم أعظم نعمة لكنه
قد يستحيل لنقمة وبلاء
والعلم إن ضل السبيل فأهله
شرٌّ على الدنيا من الجهلاء

وأول أخلاقيات العلم في الإسلام أن يكون العلم لله، وأن تكون نية المرء في التحصيل والدرس والبحث خالصة لوجه الله، أي بما يرضي الله، ويتفق مع مقاصد شريعته، وينفع عباده، ولا يضر بيئة الأرض التى استخلفهم عليها. وقد روي عن الرسول {صلى الله عليه وسلم} قوله: «من تعلم علماً لغير الله، وأراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من النار»، والعلم الحقيقي - في جوهر الأمر - لا يكون إلا لله؛ ولهذا قال الإمام الغزالي: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله».

وثاني أخلاقيات العلم أن يطلب المرء العلم للعلم، لا لطمع في نفسه، ولا لمنفعة شخصية، ولا لمجرد التباهي به أو التعالي على الآخرين. وقد روي عن الرسول قوله: «**لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار**». وقد انتقد أحد الشعراء ذلك الصنف من الناس الذين يقبلون على العلم للتباهي به ولتسخيره لظلم الآخرين وغشهم:

إني رأيتُ الناس في عصرنا
لا يطلبون العلم للعلم
إلا مباهاة لأصحابه
وعدّه للغش والظلم

والعالم الحقيقي يخلو قلبه من الطمع فلا يتزلف

الأغنياء وأصحاب النفوذ، ولا يسعى بعلمه الى أبواب الأمراء بغية منافع شخصية، لأن علمه يمنعه من ذلك. ولهذا دهش أبو هاشم الزاهد عندما رأى شريك القاضي يخرج من دار الوزير يحيى بن خالد، وعبّر عن دهشته بقوله: «أعوذ بك من علم لا ينفع»، فقد كان يتوقع أن يمنع القاضي علمه من التردد على قصور الوزراء. فمن حق العلم على العالم أن يترفع عن الطمع كما يقول على بن عبد العزيز الجرجاني:

ولم أقض حق العلم إن كان كلما

بدا طمع صيرته لي سلما

لأن ذلك الترفع والتعفف يسبغ على العلم هيبة وجلالا ويعظمه في نفوس الناس:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عظموه في النفوس لعُظّما

ولكن أهانوه، ودنّسوا

محياه بالأطماع حتى تجهما

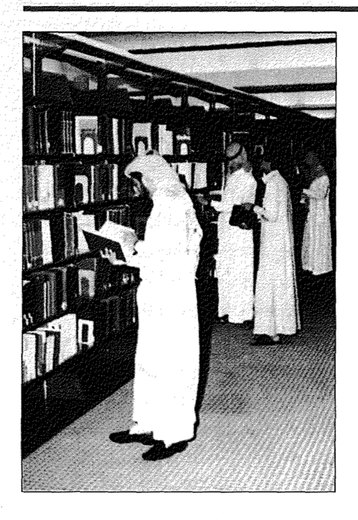
وتذكرني هذه الصورة الشعرية البديعة في بيت الجرجاني الأخير برواية (صورة دورين غراي) للكاتب البريطاني العبقري أوسكار وايلد. وتدور هذه الرواية حول صورة شاب وسيم كريم الأخلاق، ولكنه تورط في أفعال لا أخلاقية، وكلما اقترف إثما ظهرت على الصورة لطخة صغيرة سوداء حتى اسودت الصورة وأمست قبيحة.

إذن، على طلاب العلم أن يتحلوا بالأخلاق الكريمة تكريما للعلم، كما قال أحدهم:

يا صاحب العلم مهلا لا تدنسه

بالموبقات فما للعلم من خَلَف

ويربط الفيلسوف الفارابي العلم بالأخلاق بحيث



يجعل مهمة العلم خُلقية في الأساس فيقول: «**العلم الحقيقي هو التمييز بين الأخلاق وإظهار محمودها وقمع مذمومها». فمن استفاد من علمه أصبح على خلق كريم. وهذا يستدعى الى الذاكرة نصيحة الإمام الحسين بن علي: «لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء».**

ويتصل بمبدأ العلم للعلم مبدأ العلم للحقيقة. فغاية العالم الوصول الى الحقيقة والكشف عنها، كما يقول الحاجي خليفة في كتابه الموسوعي «كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون»: «ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق في هذه الدنيا، ولكن الغرض الوصول الى الحقيقة».

وحتى إذا وضع أحد العلماء فرضية ما، فإنه يجري البحث للتأكد من صحتها أو بطلانها. وبطلان

الفرضية جزء من العلم، لأن البحث أدى مهمته وتوصل العالم الى حقيقة من الحقائق مفادها أن فرضيته ليست صائبة وينبغي العدول عنها، لأن «**الرجوع الى الحق خير من التمادى في الباطل**» كما قال الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ .

والعالم الحقيقي يبحث عن الحقيقة مهما كان مصدرها ولا يستحي من أخذها من الأمم الأخرى، كما يقول الكندي في رسائله الفلسفية: «ينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطلب الحق من الحق».

والعالم الحقيقي لا يتعصب لرأيه، فهو مستعد للتخلي عنه بكل رحابة صدر إذا أثبت له الآخرون بطلان ذلك الرأي، لأن هدفه الوصول الى الحقيقة ولا غير الحقيقة. وفي هذا يقول الإمام الشافعي الذى كان لا يتردد في تغيير آرائه عندما تتضح له حقائق جديدة: «ما ناظرت أحداً إلا ولم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه». فالعلم للحقيقة وهدف العالم الوصول الى الحقيقة والكشف عنها.

وأخيراً فإن من أخلاقيات العلم في العقل العربي، أن يكون العلم نافعاً للناس، أي أن تكون له تطبيقات عملية تنفع الناس وتؤدي الى ترقية حياتهم الروحية والفكرية والمعيشية. أما إذا بقي العلم في صدور العلماء أو على رفوف المكتبات دون أن ينتفع به الناس، فينطبق عليه ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الرسول {صلى الله عليه وسلم} «علم لا ينفع ككنز لا يُنفق منه».

والعالم يعمل وفق معطيات العلم ويسير على هديه، لأن «الإنسان الذي لا يعمل بعلمه كالشجرة المورقة لا ثمر لها» كما يقول أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، أبو حيان التوحيدي. وقد لا تتاح للعالم ظروف الاستفادة من علمه، غير أن الآخرين ينتفعون به، كما يقول الخليل بن أحمد:

اعمل بعلمي وإن قصرّت في عملي
ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

وهذا ما يعبر عنه المثل الفرنسي المعاصر: «افعل ما أقول ولا تفعل ما أفعل» Fait ce que dis, ne fait pas ce que je fais.

ويرى جابر بن حيان أن خطوات العملية العلمية تتلخص في ثلاث: البحث، والحصول على المعرفة، والتطبيقات العملية لتلك المعرفة. أو كما عبّر عن ذلك بقوله: «انظر، واعلم ، ثم اعمل».

ويمكن تلخيص موقف الثقافة العربية من قضية النظرية والتطبيق ومسألة الأقوال والأفعال بالقول المأثور: «خير العلم ما نفع وخير القول ما اتبع». أما إذا لم تكن للعلم فائدة ملموسة في حياة الناس فإنهم سيزهدون فيه وينصرفون عنه كما قال الإمام علي بن أبي طالب: «إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم».

أنـــواع العلـــم :

لا نهاية للعلم ولا سقف له ولا قاع. يمتد امتداد الكون في اتساعه وعمقه وارتفاعه. ولا يستطيع فرد الإلمام بجميع أنواع المعارف مهما عظمت طاقاته الفكرية، ومهما طال عمره، ومهما اتسع وقته. ولهذا قال الإمام على بن أبي طالب: «**العلم اكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه**» ، ونجد هذا المعنى منظوماً في بيتين ينسبان تارة للإمام علي وتارة للإمام الشافعي:

لن يبلغ العلم جميعاً أحدٌ
لا ولو حاوله ألف سنه

إنما العلم عـــمـــيق بحـــره
فـــخـــذوا من كل شيء أحـــسنه

وللعلم تصنيفات عديدة في الثقافة العربية، طبقا للمرتكز الذى ينطلق منه التصنيف. فإذا نظروا الى موضوع العلم صنفوه الى صنفين أحدهما يتناول الطبيعة والآخر ما وراء الطبيعة، أو كما قال الإمام الشافعي: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان.

«وإذا نظروا الى العلم من حيث تطبيقاته العملية صنفوه الى علم نظري وعلم عملي، أو كما قال ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد: «العلم علمان: علم حُمل وعلم استُعمل».

«وإذا نظروا الى العلم من حيث صحته وثباته صنفوه الى علم يقيني وعلم ظني». وقال الإمام الغزالي: «**إن العلم اليقيني هو الذي تنكشف فيه العلوم انكشافاً، لا يبقى معه ريب، ولا يقاربه إمكان الغلط والوهم**».

«وإذا نظروا الى طرق تحصيل المعرفة العلمية صنفوا العلم الى علم عقلي وعلم نقلي أو الى علم تجريبي يحصل بالتجربة والحواس وعلم عقلي يحصل بالنظر المنطقي».

ويقول الزمخشري: العلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية». ويذهب المتصوفة الى أن المعرفة تحصل بطرق ثلاثة لا بطريقين: **عقلي وتجريبي وإلهامي**. وفي هذا يقول الشيخ محي الدين بن عربي في مقدمة كتابه «الفتوحات المكية» : «العلوم على ثلاث مراتب: علم العقل، وهو كل علم يحصل لك ضرورة أو عقيب نظر في دليل.. وعلم الأحوال ولا سبيل إليها إلا بالذوق (التجربة الحسية).. وعلم الأسرار وهو العلم الذى فوق طور العقل وهو علم نفث الروح القدس في الروع ويختص به النبي والولي».

خاتمة :

إذا ما تركنا أقوال الفلاسفة العرب في تصنيفات العلم جانباً، ونظرنا الى بقية الشواهد التى اقتطفناها من تراثنا الأدبي الأكثر شيوعا بين الناس نخرج بانطباع مفاده أن العلم في العقل العربي هو نصوص لفظية تحفظ أكثر منه تجارب عملية تجرى، وأن الرواية أهم من الدراية، وأن الحفظ عن ظهر قلب خير من إعمال الفكر في حل المشكلات أو معرفة كيفية الحصول على المعلومات.

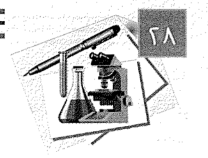
كما يتساءل المرء ما إذا كان تقدم العلم في الغرب هو نتيجة لسيادة المنهج التجريبي الموضوعي الذى سلكه منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وارتباطه بالغاية المادية النفعية البحتة، وطلاقه من الأخلاق، فأصبحت مسيرته أسرع بعدما تخلص من حمولة الضوابط الخلقية وتجرد من التوجهات الروحية [*] [**].

---

[*] جميع الاستشهادات الواردة في هذا المقال مقتبسة من: على القاسمي، معجم الاستشهادات (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ٢٠٠١).

[**] لا نحسب بحال أن الضوابط الأخلاقية والروحية لها تأثير في (الخمول) و(الكسل) العلمي الذى اصاب المسلمين والعرب في زماننا هذا.. ونعلم ان هذه الضوابط كانت الدافع للمسلمين في قرونهم الأولى للانتاج العلمي والعملي، حتى سادوا به الدنيا، ولا يزال العقلاء من الاوروبيين يؤكدون على الدور الفاعل للمسلمين الأولين في الحركة العلمية التجريبية.
والاحصاءات الحديثة تؤكد ايضا أن عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من علماء المسلمين والعرب يؤدون دوراً فاعلا في الحركة التقنية في اوروبا.

المنهل





حدثنا ملك النحاة الحسن بن صافي[١] قال:

كنت في داري بدمشق اهتبلُ الوقت في مدارسة النحو والصرف، وألتذّ بما حويا من شذا العرف، وآنق للمسائل العويصة، والشواهد النفيسة[٢] حتى التهمتُ كتاب سيبويه، وأصول ابن السراج، وجمل الزجاجي، ولُمع ابن جني، ومفصّل الزمخشري[٣]، وصار النحو عندي أسهل من شرب الماء! وغصّت الدار بمئات الأسفار، وتناثرت الأوراق في عرصاتها تناثر العلوج على الشواطىء والمروج!.

ولما رأتْ زوجي تزاحم الأوراق والغبار ضاقت ذرعاً بهذا الحال، فجاءتني تمشي على استهجان، وقالت بلهجة تمثيلية ساخرة:

- مولاي، ملك النُّحاة، جئتُ أشكو إليك سيبويه وبيتويه وأوراقويه وغبارويه!..

فقلتُ مقلداً الممثل عبد الله غيث:

- وما الأمر يا مولاتي؟ إنهم من صفوة رعيتي وخاصة بطانتي!

قالت: إنك يا مولاي، تدعو الى وطن أخضر بيئته سليمة وبيوته نظيفة، وهؤلاء يجتثون أشجاره، ويلتهمون ثماره، ويفسدون هواءه، ويدفنون النفايات النووية فيه!

قلت: إنه محض تخرص وافتراء، وإنما النحاة أهلَّة وضّاءة، وأسرجة وقادة:

إنما النحـويُّ في مـجلسه
كهلال لاح من بين الشُّرف
تخرجُ اللفظةُ من فيه كما
تخرجُ الدرة من بين الصُّدف!

قالت: أرجوك يا مولاي أن تشتري لنا بإحدى الدرر مقشة ننظف بها الدار، وأنت أبو النحو والفهم: ومن حوى النحو صار الفهم في يده طوعاً يحل به ماضمت الكتبُ!

قلت : حاجة صغيرة تطلب من رجل صغير، ولا تطلب من ملك كبير!

(وناديت بأعلى صوتي) : يا جارية، خذي مائة دانق فاشتري بها مكنسة فاخرة من القش!

قالت : أيها الملك الأجل:

بزر جزر عفواً بزر جمهر[٤]، لقد تصرم عهد القش والشّيح والبلاستيك كما تصرّم عهد الشباب المحبب!

ليت وهل ينفعُ شيئاً ليتُ؟
ليت شباباً بوع فاشتريتُ[٥]

قلت: وكيف ذاك أيتها الملكة كيلو كفتة، عفوا كليوباترا[٦]؟!

قالت : إن جاراتي ينعمن بأفخر المكانس وأحلى الملابس، وقد حدثتني عن المكنسة المسحورة التى تلتقط كل شائبة على السجادة، فلا تدع شاردة ولا واردة إلا



د. أحمد عطية السعودي

- الأردن -

التهمتها كما تلتهم أنت علل النحو وعوامله!

قلت : كأنك تريدين أن أشتري لبيتك كاسحة ألغام تفجر ما في بطون كتبي من خلاف بين أهل البصرة والكوفة!

قالت : إنما أريد ما أتباهى به على جاراتي ذوات النثر المشعور والشِّعر المنثور!

قلت : من جاراتك اللائي تقاصرت أمامهن الخنساء بل الثريا والجوزاء؟!

قالت : نازك العراقية، وفدوى النابلسية وسعاد الخليجية[٧]!

قلت : ومن وكيل هذه المكنسة الأعجوبة كما يزعمن؟

قالت : رجل بمكناس في أرض المغرب يقال له ابن مكنسة[٨]؛ يبيع الواحدة بألف درهم!

قلت : وكيف حصل على هذه المقشة الثمينة من دوننا ونحن الخبراء باسم الآلة؟!

قالت : إن جاراتي يقلن إن ابن مكنسة كان ذا بيت كثير القمامة والغبرة فدخل ذات يوم على وزير الصحة وشكا حاله، وذكر حاجته بأبيات ثلاثة:

لي بيتٌ كأنه بيتُ شعر
لابن حجَّاج[*] من قصيد سخيف
أين للعنكبوت بيتٌ ضعيفٌ
مثله، وهو مثل عقلي الضعيف
بقعةٌ صدَّ مطلعُ الشمس عنها
فأنا مذْ سكنتُها في الكُسوف[٩]!

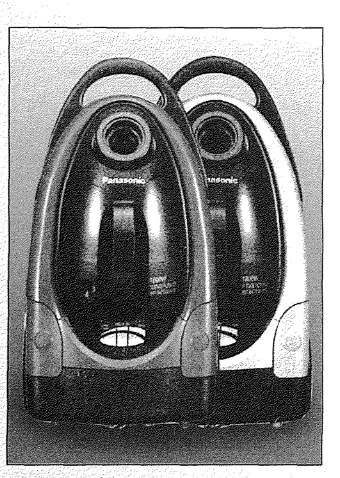
فعرف الوزير قصده، وأهداه مكنسة مسحورة تدور كسلحفاة كبيرة، فصار يلقب بابن مكنسة، وارتضى اللقب والمهنة حتى غدا وكيل المكانس بلا منازع!

قال ملك النحاة : فانفجرتُ ضاحكا، وقطبت زوجتي وجهها، وخشيت أن تصاب بجلطة حادة كما خشيت تلعتي[١٠]، فأعددت حقائبي، ويممتُ شطر المغرب، كأنني صارم في كف منهزم، وانطلقت وأنا أحدو:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى
فما انقادت الآمال إلا لصابر[١١]

حتى وطئتُ المغرب فإذا هي أرض ساحرة الجمال، شاهقة الجبال، كثيرة الأنهار، غزيرة الأمطار، تغريك بالسير فيها، والوقوف على ماضيها، فهنا على شاطىء المحيط الأطلسي وقف عقبة بن نافع متضرعا الى ربه قائلا: «يارب لولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد مجاهدا في سبيلك».

وهنا كان موسى بن نصير، وطارق بن زياد بطل



العبور، ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، وعبد الكريم الخطابي بطل المجاهدين وداحر المستعمرين. وتجولتُ في ربوعها مفتوناً مأخوذاً بجبال أطلس وقمة طوبقال، ونهر أم الربيع ووادي درعة، واستمتعتُ بغابات الأرز والزان والبلوط والصنوبر، ودخلتُ مدنها العامرة: وجدة، وتطوان، وطنجة، والرباط، والدار البيضاء، وأغادير، وتازه، وفاس، ومليلة وسبتة.

وحظيت بلقاء أعيانها وأدبائها: عبد الله كنون، وعلال الفاسي، وتقي الدين الهلالي، وعبد الهادي التازي، وعبد الكريم الخطيب، وعبد الله القباج، وحسن الأمراني. ولكن نفسي لم تهدأ حتى بلغتُ مدينة مكناس، فاستقبلني ابن مكنسة استقبال الابطال الفاتحين، وأغرقني في بحر كرمه وضيافته، ولما أمعنت في النظر الى أركان بيته وجدته نظيفا مرتبا، جميلا مزخرفاً بزخارف الأندلس، فقلت:

ـ يابن مكنسة، أصحيح ما رواه بعضهم عن مكانسك المسحورة وأفعالها المنظورة؟

قال : بلى. ثم جاء بآلة كالقدْر المدورة لها خرطوم كأفعى الأصلة[١٢]، وعصا غليظة كعمود الخيمة، ودس حبلها في الجدار فانطلقت تصوّت، وتئز[١٣] كأنها النائحة الثكلى، فهبتُها وخشيت أن تعضّ أطرافي!

فقال :

يا بن الكرام ألا تدنو فتبصر ما
قد حدثوك فما راء كمن سمعا[١٤]

قلت : ما تسمون هذه الدابة بأرض المغرب يا أبا طاهر المكنسي؟

قال :

هذه آية بها
ظهر الحسنُ واشتهر[١٥]

وليست بدابة أرضية بل هي مكنسة كهربائية!

قلت :

لعل الله فضلكم علينا
بشيء: أن أمّكُمُ شريم [١٦]

قال : يا أبا نزار، ما حزت هذه المكنسة إلا بشق النفس بعد أن عشت خمسين حولا أرجو نوال الوزير حتى رق لي لما قرأ شكواي فاهتز لارتعاشي وسوء معاشي!

قلت : عافاك الله من الداء الرعاش، وسلّحك بالمدفع الرشاش، فما قلت للوزير المهيب؟

قال :

عشتُ خمسين بل تزيدُ
رقيعاً كما ترى
أحسبُ المقْل بندقاً
وكذا الملح سُكّرا
وأظنُّ الطويل من
كلُّ شيء مدوَّرا
قد كبزْ برْ ببزْببزْ
تُ وعقلي الى ورا
عجباً كيف كل شيء
أراه تغيرا
لا أرى البيض صار يؤكلُ
إلا مقشّرا
وإذا دقَّ بالحجار
زجاجٌ تكسرا[١٧]

قلت : ما أحوج زوجتي الى هذه المكنسة الثمينة، بل ما أحسنها لو كانت كأم الحليس:

أم الحليس لعجوز شَهْربه
ترضى من اللحم بعظم الرقبه[١٨]

قال : بل ما أحوجكم معاشر النحاة الى كنس العلل الثواني والثوالث كما دعا ابن مضاء[١٩]!

أما أنت فلا تحزن:

عسى الكربُ الذي أمسيت فيه
يكون وراءه فرج قريب[٢٠]!

قلت : لن أهنأ ولن أهدأ حتى أقف على أسرار المكنسة الكهربائية وبنيتها الصرفية وعللها النحوية.

قال: فعد إذن الى مصر تلق الوزير ابي الفرج عبد الرحمن بن مكانس[٢١]، فعنده خبر الحكاية الطريفة «ضرب المكانس»[٢٢] وما جرى فيها من تعارك وتشاكس!

فامتثلت نصحه، وتوجهت الى مصر أسوق ناقتي وأشدو:

يا ناقُ سيري عَنَقاً فسيحاً
إلى سُليمان فنستريحا[٢٣]!

ولما دخلتُ القاهرة، وسألت عن «معالي» الوزير ابن مكانس قيل لي إنه قد مات، ودفنتْ معه أسرار المكنسة المسحورة! ثم إني عدتُ الى دمشق، وصنفت في الطريق كتابي «المسائل العشر المتعبات الى يوم الحشر» وجعلت أول مسائله المعضلة المعقدة: «الأسرار الدفينة في المكنسة الثمينة»!

الهوامش :

(١) ملك النحاة: هو أبو نزار الحسن بن صافي، فاضل، شاعر من كبار النحاة، لقب نفسه بملك النحاة، فقيه شافعي، له ديوان شعر ومقامات، وله كتاب مشهور في النحو سماه: «المسائل العشر المتعبات الى يوم الحشر» ولد ببغداد، وتوفي بدمشق ٥٦٨هـ - ١١٧٣م.

(٢) اهتبل: أغتنم. الشذا: الرائحة القوية. أنق: أعجب وأسر.

(٣) هؤلاء من أشهر النحاة حتى عهد الحسن بن صافي ثم جاء بعدهم ابن مالك وابن عقيل وابن هشام، والسيوطي، والأشموني، والفاكهي، وخالد الأزهري.

(٤) بزرجمهر : ملك قديم.

(٥) البيت لرؤبة بن العجاج، وهو شاهد نحوي على (بوع) المعتل العين المبني للمجهول المخلص ضم فائه.

(٦) كليوباترا: ملكة سليلة البطالسة في مصر ماتت منتحرة.

(٧) نازك الملائكة: شاعرة عراقية ابتدأت الشعر الحر ١٩٤٧م، فدوى طوقان: شاعرة من فلسطين (توفيت بمدينة نابلس بعد منتصف ليلة الجمعة الموافق ١٢/ ديسمبر/ ٢٠٠٣م). سعاد الصباح: أديبة كويتية.

(٨) ابن مكنسة : أبو طاهر اسماعيل بن محمد، شاعر فكه مكثر من أهل الاسكندرية بمصر، ت ٥١٠هـ - ١١١٦م.

(*) ابن حجاج: شاعر الهزل والسخف والهجاء وأمير الفحش اسمه حسين بن أحمد البغدادي، ت ٣٩١هـ.

(٩) الأبيات لابن مكنسة. وفي كلمة الكسوف تورية وهو يقصد معناها العامي وهو الخجل!

(١٠) يقال : خشيتُ تلعتي: أي شر أقربائي.

(١١) البيت من شواهد النحاة. والشاهد فيه قوله: «أو أدرك» حيث نصب الفعل المضارع بعد أو التي بمعنى حتى بأن مضمرة وجوباً.

(١٢) الأصلة: أفعى عظيمة خطيرة قد تبلع طفلا أو ساق رجل، وهي معروفة في جنوب السودان.

(١٣) أزّت القدْر: اشتد غليانها.

(١٤) شاهد نحوي على نصب الفعل المضارع «تبصر» بأن المضمرة وجوباً بعد فاء السببية في جواب العرض.

(١٥) البيت لابن مكنسة نفسه.

(١٦) شريم: هي المرأة المفضاة. والبيت شاهد نحوي على الجرّ بلعل «لعلَّ الله» على لغة عُقَيْل وإعرابه: لعل: حرف ترج وجر شبيه بالزائد. الله: مبتدأ مجرور لفظاً مرفوع محلا.

(١٧) الأبيات لابن مكنسة نفسه، ولا يخفى ارتعاشه في كلمة كبرت. المُقْل: ثمر الدوم.

(١٨) البيت شاهد نحوي على زيادة اللام في خبر المبتدأ «لعجوز» وأصله: أم الحليس لهي عجوز.

(١٩) ابن مضاء: هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن القرطبي، فقيه، نحوي. ت ٥٩٢هـ.

دعا في كتابه «الرد على النحاة» الى إلغاء نظرية العامل والعلل الثواني والثوالث، وإبطال القياس.

(٢٠) البيت لهدبة بن خشرم العذري. وهو شاهد على وقوع خبر عسى فعلا مضارعاً مجرداً من أن المصدرية «يكون وراءه» وذلك قليل.

(٢١) ابن مكانس: أبو الفرج فخر الدين، وزير وشاعر مصري، ولي الوزارة بمصر ودمشق له ديوان شعر، ت ١٣٩٢م.

(٢٢) ضرب المكانس: كتاب للاستاذ عمر العناني يحكي فيه عن يومياته وكيف ضرب بالمكنسة الغليظة أحد الإنجليز المعتدين وحاصره في المدرسة وذلك في قرية بصيرا بجنوب الأردن عام ١٩٢٩م.

(٢٣) العَنَق: ضرب من السير. البيت لأبي النجم العجلي. وهو شاهد نحوي على نصب الفعل المضارع بأن مضمرة وجوباً بعد فاء السببية «فنستريحا» والألف للاطلاق.

ابن النقيب

شاعر الطبيعة الدمشقي في العهد العثماني

مراحل حياته :

هو عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين محمد الحسيني الملقب بـ (ابن حمزة) وبـ (ابن النقيب) وقد ولد في الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٠٤٨هـ، وهو سليل الإمام علي بن أبي طالب أما سبب تسميته بـ (ابن النقيب) فهو أن أباه كان نقيب الأشراف في بلاد الشام وكان أبوه ذا مكانة سياسية واجتماعية ودينية هامة في العصر العثماني، وكان بسبب ذلك يتردد الى دار السلطنة فيقدم له كل احترام وتبجيل يضاف الى ما تقدم أنه كان مقرباً من مشايخ الإسلام وقضاة السلطنة وكان يمدحهم ويخص صدور الدولة بقصائد فائقة، لكنه لم يطب له التغرب طويلا فرجع الى بلاد الشام وولي النقابة الكبرى بدمشق وقسمة العسكر ودرس بالمدرسة التقوية بالإضافة الى أعماله الكثيرة.. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن أباه بعد أن انعقدت له صدارة الشام في النيابة الكبرى أصبح قبلة الأنظار ومحط الرجاء فقصده الناس لقضاء الحاجات كما أُثرَ عنه أنه صنف تآليف متعددة منها (حاشية على شرح الخلاصة) لابن الناظم.

امتزج الشاعر بأبيه الشريف النقيب والصدر والشاعر، فقد كان أهم مدرسة في حياته لأنه نهل من ثقافته الدينية واللغوية والأدبية، لقد أحرز الشاعر ثقافة عميقة شملت الآداب وغيرها كما توضحت معالمها الكثيرة في ديوانه، ولعل تعليقاته الشعرية على بعض الكتب التى اطلع عليها أو التى طلبها على سبيل العارية، تعطينا أصدق فكرة عن ثقافة الشاعر، وخاصة من خلال شعره نفسه.

استكمل الشاعر ثقافته في وقت مبكر فتضلع من كل علم بطرف لاتساع مدى الثقافة العامة في ذلك العصر ونال الإجازات المختلفة على عادة القدماء من مشاهير العلماء الأعلام حضوراً أو غياباً في دمشق وغيرها ويبدو أن جل اعتماد الشاعر في استكمال ثقافته كان على المتون والأصول، لأنه كان يكره معاناة الحواشي، وقد توضح لنا هذا الاتجاه فيما أورده جامع الديوان في بعض أخباره ، إن قضية المتن والحواشي تؤلف في أدب هذا العصر شيئاً هاماً تعتمد عليه الثقافة فليس من باب

غـادة الشـريف - سـوريا



المصـادفـة أن يشـغل هذا الشـاعـر وهو في ريعـان صباه وفي غرض رقيق من أغراض الشعر بقصة المتون والحـواشي ويوصي المتأدب وينصحه فيما يجب أن يلتزم به في الكتابة والحفظ والاستشهاد.

استكمل الشاعر ثقافته ولما يتجاوز العشرين، كما حظي بالرعاية والتثقيف من أبيه بعد أن لاحظ نبوغه في الأدب، وعرف عنه أنه يعاني الإنشاء ونظم الشـعـر وتزوج وهـو صـغـيـر ورزق بـابن وحـيـد هو سعدي وكان بَرّاً بأبيه.

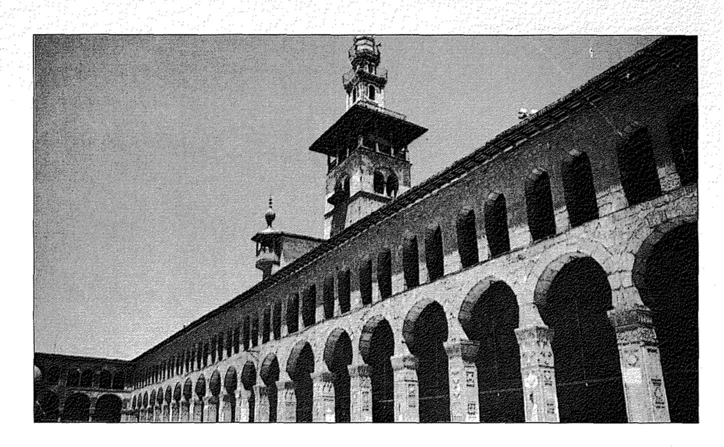
أسـهـم الشـاعـر بشكل ملحـوظ في النشـاط الثقافي، لا سيما أنه كان يعيش في بيئة علمية يلتقي خلالها بالأعلام المشـهـورين في بلاد الشـام وكان يشهد الأندية الأدبية والمجالس الاجتماعية التى كانت تعقد ويتصدرها أبوه.

كان ابن النقيب لين الملتوى ضعيف البنية كما صرح هو ولعل هذه الصفة الخلقية كانت من عوامل وفاته مطعوناً في ربق الشباب.

يقول:

وإني على مـا فيَّ من ليْن مُلْتَـوى
جليدٌ على حمْل الهُمُوم كَتُومُـها

كما كان معتداً بنسبه العربي يحمل بين جنبيه



نفساً أبيّة يقول معبراً :

مــا كُنْتُ أنْ أسْتَـامَ ربْحَ تواصُل
بمذلَّة هـي صــفـقـةُ الخـســران

ومــن الـردَّى أن أرتــدى بمــذلــة
وخـــلائقي تعلُو على كـــيـــوان

أيساقُ لي كأسُ الصدُود فأختشي
لمظنة في نيل بعض أمـــــان

إنها حقاً تمثل إباء الشاعر وكبرياءه حتى في حبه، وهو بعد هذا وذاك سليم السريرة عرف بالود لأخلائه.

تلك هي شخصية الشاعر الحقيقية فهو شاب معتد بشبابه أوتي الفراغ والحدة وورث النبل والأصالة وحظي بالثقافة والمعرفة، زوجه أبوه في وقت مبكر لكنه لم تكتمل له سعادة البقاء، فقد أفل كوكبه النير في أوائل العقد الثالث من حياته، ولما يتمتع بعد بالشباب النضر، ذلك أن شبح الطاعون انتشر في دمشق وكان الشاعر ممن أصيبوا به، فمات مطعوناً نهار الإثنين في الثامن من شهر ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين وألف هـ، ودفن بمقبرة الفراديس (مقبرة الدحداح) غربي قبر أبي شامة، ولعلنا لاحظنا أن ولادته ووفاته كانتا في شهر ربيع الأول والثاني ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين وهو بعد في ربيع شبابه وربق حياته.

آثاره الأدبية :

لم يعمر الشاعر طويلا حتى يتمكن من جمع

شعره وترتيب أغراضه في ديوان خاص كما يفعل الشعراء الآخرون، وانما قام بهذا الجمع ابنه سعدي، وكان للمرحوم خليل مردم رئيس مجمع اللغة العربية فضل السبق في الإشادة والتنويه به وإبرازه الى حيز الوجود فلقد نشر في مجلة المجمع مقالة عرَّفنا فيها بالديوان وأتبعها بملحمة الشاعر الغنائية، ومما قاله: (والديوان من الدواوين النادرة من حيث طرافة الموضوعات وكثرة المواقف الشعرية وقلة الأغراض المشحونة بها دواوين الشعراء، فلقد تنزه عن الهجاء، وخلا من الرثاء وكاد يخلو من المدح لولا بضع قصائد هي أشبه بالإخوانيات منها بالمدح المعهود في قصائد الشعراء).

وأغلب الظن أن ديوانه لا يجمع شعره كله كما أنه لم يقتصر على الشعر القريض، وإنما رأيناه ينظم في الفنون المستحدثة مما لم يعرفه العرب القدماء، فنرى فيه مسمطاً رباعياً مطلعه:

يا مؤثراً للَّهو طيب النعمة
ورافعاً فيه سُجوف الحشمة

ونرى فيه موشحين عارض في أحدهما لسان الدين بن الخطيب ومطلعه :

يا ليالي السفح من عهد الصبا
يا سقى مغناك صوب الديم

وفيه أيضا مقطوعتين من فن الدوبيت جاء في إحداهما قوله:

لله من السفح ظلال الوقف
واتبع أثراً لمادح فيها واقف
أوقفْتُ على جدولها طرفي مذ
أطلقتُ به عنان ذاك الوقف

أيضاً نجد فيه مقطوعة من المواليا وهي الوحيدة في ديوانه:

لو رحت أبكي بكت لأجلي القلوبُ القسيْ
أو بتُّ أشكي للانتْ لي الصخور القسي

ألف الشاعر ملحمة غنائية كبرى تقع في تسعة عشر ومائة بيت وهذه الملحمة تجمع بين أعلام الغناء القديم، ويبدو أن هذه الملحمة الغنائية كانت أثراً شعرياً مستقلا ألفها الشاعر إعراباً عن فلسفته الخيامية في الحياة وتصويراً حقيقياً عن ذاته أولا، وعن بعض أنماط الحياة الاجتماعية في التاريخ العربي، وإن المقطوعات القليلة في ديوانه شيء يسير مما نظمه الشاعر لأنها في الواقع تمثل حياته الخاصة والعصر نفسه، وهناك مسرحية شعرية تجمع بين الشعر والنثر، جرت أحداثها في حديقة الورد وكذلك هناك مقامة أشير إليها في الديوان، ورد ما كتب في ذيلها الى الأمير حمزة الدفتري، وهي تجمع في الواقع بين أسلوب المقامة وأسلوب المسرحية.

أغراضه الشعرية :

نظم في المعاني التى تناسب طبيعته الشعرية الخاصة وتنسجم وفق نوازع نفسه وطبيعة حياته، أما أبرز الأغراض والمعاني التى نظم فيها فهي الأوصاف المختلفة والأغزال والخمريات الغنائية والمدح الإخوانية بالإضافة الى فن الألغاز والأحاجي والمعميات والتأريخ.

الوصف : ووصف الطبيعة :

الأوصاف العامة :

وهي أبرز ما يميز شعره على الإطلاق ونستطيع من خلالها أن نوضح وصف الأحداث السياسية ووصف الأحوال الاجتماعية، ووصف الطبيعة الدمشقية، ويكاد النوع الأخير من الوصف يستوعب أغلب شعره على الإطلاق، ويندرج تحت ما يسمى بالأوصاف العامة ما تصوره من أحداث سياسية، ولها قصيدة واحدة نظمها الشاعر في فاتح جزيرة كريت الصدر الأعظم أحمد كوبرلي باشا، وقد خلد الشاعر هذا الحدث الكبير الذي جاء فيه قوله :

فتحوا بقِنْيَةَ معاقل أرتجتْ
قَدَماً على الأمراء والأجناد
وافي لها الصَّدرُ الرَّفيعُ جنابُهُ
علم الغزاة ومكمد الحُسّاد

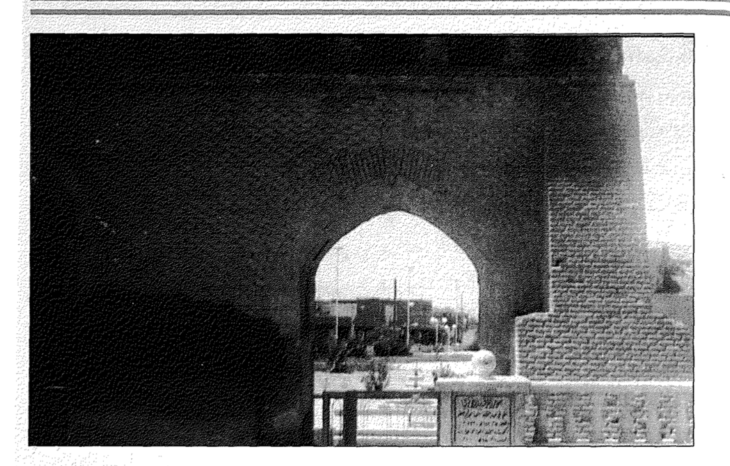
وأحوال اجتماعية وصف لنا الشاعر كثيراً من الأشياء التى تعطينا صورة عن الحياة الاجتماعية في العصر العثماني، فقد وصف لنا التبغ والرقص عند الرجال واللهو بالنرد والشطرنج ووصف لنا الختان وصفاً دقيقاً ورسم لنا صورة الإمام المحدث تحت قبة النسر في الجانب الشرقي من المسجد الأموي وغير ذلك، وأهمها صورتان صورة وصف التبغ وهذا استحداث في العصر العثماني، وقد استهواه طعمه ولا سيما أنه تَبْغيّ المزاج، فوصف النارجيلة، ولعل شعره فيها سابق غيره ومما قال:

أعُدْتَ للتبغ وترشافه
نبعة حُسن كللت بالجُمان
ما قصباتُ السَّبق إلا لها
في حلبة حلَّت محلَّ السِّنان

وصورة معروفة لدينا هي في وصف الختان والمختون ولعل الشاعر أيضاً أول من رسم لنا هذه الصورة الاجتماعية على الشكل الذي عرضه فقال يهنىء شيخ الاسلام يحيى المنقاري بختان ولده ويقول:

ليس تُبرى غُصُونٌ
إلا وعادت عوالي
ولا استقامتْ نصالٌ
إلا ربحتْ نبالُ

هذه بعض الأوصاف الاجتماعية التى تبين بعض الجوانب الهامة من حياة الناس الخاصة والعامة، وهذا الاتجاه يعطينا فكرة عن الحياة العامة، والاتجاه الواقعي في الشعر في كل مكان وزمان.



الأوصاف الطبيعية:

إن شعر الطبيعة أجمل ما في الديوان، إذ يؤلف معظمه، وهذا يجعلنا نعتقد بأن الاتجاه الإبداعي الرومانسي ظاهر في شعره قبل قرن ونصف من انتشاره في القرن الثامن عشر، في الوقت الذي سيطر فيه الاتجاه الاتباعي في أوربا بواعث وصف الطبيعة وهي أربعة أساسية:

أولها: مصدره حب الشاعر لطبيعة بلده دمشق وقد حلل المحبي نفسية ابن النقيب، وعلل ولعه الشديد بالطبيعة الدمشقية وحبه لها بعاملين هما غريزة الشاعر الفطرية التى جبل عليها، وطبيعة دمشق الجميلة.

الثاني: إقبال الربيع وحلول شهر آذار، ولم تكن ربيعيات الشاعر قصيدة وحيدة في شعره، وإنما كان الربيع مجموعة من القصائد والمعاني يتكرر ذكرها في حين.

الثالث: هو أن الشاعر كان شاباً عاشقا يملأ الحب جوانحه، ولم يجد أمامه غير الطبيعة يبثها بعض لواعجه، ويمتزج بها امتزاجا كلياً، فلم يكن وصافاً للطبيعة، وإنما كانت بعض نفسه.

الرابع: هو أن الشاعر كان يحب الشعر الأندلسي، وكان مولعاً بنفح الطيب كما نظم بعض الموشحات عارض فيها لسان الدين بن الخطيب، ولعلنا استطعنا تلمس النفحة الأندلسية المضمخة بالفتنة الشامية. هذه هي البواعث الكبرى كما اتضحت من خلال الطبيعة الدمشقية وكما رآها الشاعر نفسه.

الغزل والنسيب:

استهل الشاعر بعض مدحه بالنسيب في بعض الأحيان، ولم يكن الشاعر لينهج منهج الشعراء القدامى في الأخذ بأسباب الهجاء التقليدي، وإنما كان صورة حية عن دمشق وأرياضها ومتنزهاتها ، والملاحظ أن المقدمة النسيبية في وصف الطبيعة أطول نفساً من الموضوع المدحي نفسه، أما الغزل فظاهر في هذه المطالع التقليدية، وفي هذه القصائد الغزلية الخاصة التى نظمها الشاعر استجابة لنزعات مختلفة فلنستمع إليه يصف لنا حسناء رعبوبة وعدته بالزيارة قبل الغروب:

لستُ أنسى رُعبوبة بشرتني
بازديار قبيل وقت الغرُوب
ثمَّ أومتْ إليَّ أن لستُ أنسا
ك ولكن أخافُ منك رقيبي

ونلاحظ السهولة والانسجام في غزله، فقد كان في بعض الأحيان يختار الأوزان الخفيفة، والأبحر المجزوءة سعياً وراء الجرس الشعري. ويقابل هذه المجالس مجالس أدبية أخرى يبدو فيها الشاعر متسماً بزي الجد والوقار، وقد وصف لنا مجلساً عند بعض الأصحاب ممن اشتهر باقتناء نفائس كتب الأدب فأنشد:

نحن في روضة من الآداب
سقيت بالفهوم لا بالسحاب

أما الغناء فكان جزءاً من المجالس التى أتينا على وصفها من قبل، ولعل طبيعته المرحة وولعه بالغناء كانا عاملا من عوامل اهتمامه بذكر الآلات الموسيقية إذ عنصر الموسيقى يؤلف ركناً أساسياً في شعره، وقد نظم ملحمة غنائية عربية ذكر فيها كل من أحب الغناء من الخلفاء والملوك والسلاطين، ومنها قوله يصف الغناء والمغني :

عشقتني يا فاتني بالغنا
وكنتُ من قبلُ له عاشقا
ياما أحيلاهُ وأشهاهُ منْ
فيك إذا رُحت به ناطقا

ونتجاوز ذكر الغناء والمغنين لنعرض ما ورد في شعره من ذكر للآلات الموسيقية، فله من ذكرها أوفى نصيب، نذكر منها العود والناي والرباب والمزمار والطبل والأرغن وغيرها ، أما أكثر الآلات ذكراً وتكراراً فهو العود، فنرى الشاعر يقرنه بالناى تارة وبالرباب تارة أخرى، وبالأورغن ثالثة، وقد خصه بالأوصاف الكثيرة ووصف أوتاره وصفاً جميلا.

وصور الشاعر اصطحاب الأوتار ساعة الطرب فيقول:

نبهته سحراً والكأس فوق يدي
والعودُ مصطخبُ الأوتار يجليه

كانت الطبيعة تمتزج بالغناء والخمر وقد لاحظنا

ذلك فيما مر معنا من شواهد، ولا بأس أن نزامل الشاعر صبيحة يوم الى روض تسمعنا فيه البلابل طيب شدوها وتحملنا الرياح على أجنحتها:

ألا خلٌ يزاملني صباحاً
وتحملني وإياه الرياحُ
إلى مئناق روض عبقري
تساجلنا به الورقُ الفصاحُ
وتسمعنا البلابلُ طيب شدو
يمرك صوتُ أرغنه الصباحُ

تلك هي صورة عن خمرياته وغنائياته، وقد لاحظنا من خلال هذه النظريات الجزئية المنفصلة أن الشاعر كان ينظر إليها نظرة كلية، ويجمعها في إطار مشترك واحد وهنا كانت تكمن عبقرية الشاعر الذي جمع بين الطبيعة والغزل، وبين الطبيعة والخمرة، وبين الطبيعة والغناء والغزل معاً.

أسلوب الشاعر ومذهبه الفني

اعتداده بشعره :

كان الشاعر معجباً بشعره كل الإعجاب على سنة الشعراء المتقدمين، وما أكثر ما وصف شعره وتغنى به، ففي القصيدة المنظومة عنده تشخيص طبيعي، وتمثيل حي، ولكن الشاعر لم يكن ليقتصر على التشخيص، وإنما نراه يختار لها الصفات اللائقة بالنفس الإنسانية، والعالقة بالوجدان الحي.

نظريته في الشعر :

أما مفهوم الشعر عنده فهو يعتمد على القول: «إن الشعر ضرب من التصوير» يورد فيه الشاعر مختار المعاني المبتكرة ويوشحه بالأسلوب المرن المدمث، وهما ضروريان جداً لإبراز المعنى المبتكر.

أحسن الشاعر عرض فكرته من خلال قصيدة ارتجلها أيام الربيع، وقد أشار فيها الى الجمع بين أصالة الطبع في ارتجاله، والتصنع في الشعر:

فلعمري أشهى القريض الى النف
س ولوع بنكر عيش مثاله
ولعمري إني المبرز في القو
ل إذا ما علا مناط مناله
وإليَّ الأسجاع ثمَّ القوافي
وافتراعُ الأبكار يوم نضاله

يعترف الشاعر بصراحة أنه يحكم النسج، وهي سمة التصنع في هذا العصر، وهي أصيلة وقديمة في أدبنا وأنه على الرغم من ذلك يجمع بين جمال الطبع ورونق التطبع، بين حسن الصنعة وسحر التصنع، وهذا الجمع في نظره لا ينقص من قيمة شعره، لأنه في الواقع ينسجم مع المفاهيم النقدية التى جعلته يلتزمها كل الالتزام.

الرقة والانسجام :

كنا ننتظر من الشاعر مزيدا من التعقيد

والإغراب والتصنع، بيد أننا رأيناه يحجم عن التعقيد والتصنع، فيختار اختياراً مطبوعاً، أو متعمداً الألفاظ الموحية ذات الجرس الشعري الرنان، قصدها لذاتها، وذلك سعياً وراء الفصاحة التى قصدها لذاتها، لقد كان الشاعر مرهف الحس، رقيق المشاعر، يختار متعمداً بعض الألفاظ التى تلائم طبيعته المرحة، وتنسجم مع الطبيعة الحقيقية نفسها، ولعل طبيعة الشاعر الحساسة، أو لعل طبيعة المعاني الشعرية التى طرقها حتمت عليه هذا الاصطفاء الذاتي للكلمة الشعرية.

التكرار والالتزام :

فلقد رأينا الشاعر يكثر من تكرار ألفاظ بعينها، ومنها لفظة (كأن) ولم يأت تكرارها عرضاً وإنما كان استجابة لدواعي نظريته في التصوير الشعري، ولم يقتصر التكرار على (كأن) في التشبيه والتوكيد وإنما تراه يكرر بعض الكلمات الأخرى، ومنها تكرار (أين) الاستفهامية ثماني مرات في ختام ملحمته الغنائية، وتكرار (أم) أربع مرات بعد همزة استفهام، وتكرار (حنانيك) في مطلع أبيات ثلاثة من مقطوعة خماسية، وتكرار (بني عمنا) أربع مرات متواليات.

الحوار الشعري والمسرحي :

جنح الشاعر في بعض قصائده الى أسلوب الحوار الرقيق ولا سيما في المواقف الشعرية التى يقتضيها البيان، ولدى الشاعر عبقرية مسرحية في بعض قصائده التى شفعت بالنثر بين حين وآخر وهذا يعنى أن الشاعر كان يمتلك هذه القدرة الفنية في بعد النظر، وفي المعرفة المستبصرة التى جاءت عفو الخاطر دون تأثر آخر، فكان أحد الرواد السابقين في هذا المضمار، تلك هي مميزات الحوار الشعري في نظمه، ولعلنا لاحظنا عبقرية الشاعر في استخدام هذا الأسلوب الذى نراه قليلا في شعرنا العربي عامة وفي هذا العصر خاصة.

التضمين والاقتباس :

لقد جرى ابن النقيب على سنة الشعراء القدماء، فرأيناه يضمن شعره بيتاً أو بعض البيت بما اشتهر من الشعر القديم، ومن الشعراء الذين أعجب بهم واستقى منهم بعض أبياته المضمنة: المتنبي، وابن المعتز، والحسين بن الضحاك الملقب بالخليع وغيرهم، كما تحدثنا من قبل عن قصة أبيه الذي قرأ بين يديه ما غنته الجارية (نُعمُ) بين يدي المأمون من قصيدة مطلعها:

ولقد أخذتم من فؤادي أنسهُ

لا شلَّ ربي كفَّ ذاك الآخذ

أما الأقتباس فهو مقصور على تضمين الكلام شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف لا على أنه منه، فمن الاقتباس القرآني قوله:

وهو الرسول إليك مني ليتني
كنتُ اتخذتُ مع الرَّسُول سبيلا

وكثر الاقتباس من غير القرآن الكريم فقد رأيناه يضمن بعض الأقوال المأثورة، والأمثال المشهورة من ذلك قوله:

فالحقُّ يعلُو وليْس يعلى
عليه في كُلِّ ما يُرامُ

وقوله :

رحماك ربي فالسيل قد بلغ الزبى
مني وأفضى ربي إليك الموئلُ

لم تكثر الصنعة في أسلوبه، لأن جهد الصنعة لا يأتلف مع جمال الطبع، فقد كان يعتمد الانسجام والرقة والبعد عن التكلف، مما كان معروفاً في عصره، وكان لا يجد حرجاً في الأخذ بالضرورة الشعرية واستخدام الألفاظ الدارجة والأساليب العامية السهلة في بعض الأحيان، فمن الضرورات الشعرية قوله (حتَّام تسجعي) وقد حذف نون الفعل دون مسوغ، هذا بالإضافة الى تجاوزه بعض القواعد النحوية والعروضية من إقواء وغيره، كذلك استخدام كلمة (الحواكير) وهي كلمة عامية يقصد بها الأرض المزروعة شجراً، والتى تجاور البلدة أو القرية والدوالي والماورد والدستبان.

الخاتمة :

لقد كان الشاعر ذاتياً في معظم المعاني التى نظمها، ولكنه لم يفلت تماماً من الأساليب المعروفة في عصره، فقد ظهرت بعض الظهور في شعره، ذلك أن في تجريد الشاعر من عصره، وتقويمه بميزان النقد الحديث ومفاهيمه، أكبر الظلم له ولعصره بالذات.

ومهما يكن من أمر فابن النقيب الدمشقي صورة أصيلة عن الشاعر العربي في العصر العثماني، فقد استطاع بعبقريته الخاصة أن يعطينا أجمل صورة عن دمشق، في مختلف مظاهرها الطبيعية والاجتماعية، يضاف الى ذلك ظهور الانسجام في شعره بشكل ظاهر، ولم يقتصر عليه، وإنما تفتحت عبقريته عن أكمام شاعرية فياضة، وقد وفقت في هذا النمط من الحوار الشعري، والأسلوب المسرحي.

ولم تكتمل لنا هذه الصورة الشعرية الإنسانية لأن الشاعر احتضر في ريعان الصبا، ولم يمتع بالشباب وطول البقاء.

المصادر والمراجع :

«مصدر» ديوان، ابن ا لنقيب (عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين بن محمد الحسيني، المتوفي ١٠٨١هـ.
تحقيق : عبد الله الجبوري، ط ١ أولي في مطابع المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
«مرجع» موسى باشا، (الدكتور عمر) (ابن النقيب شاعر الطبيعة الدمشقي في العصر العثماني) المكتبة العباسية، دمشق، الطبعة الأولى ط١ لعام ١٩٧٠م الموافق ١٣٨٩هـ.

التحنيط فن يخلد الطبيعة

حوار مع الباحث/ درويش الشافعي

في زيارة خاصة لـ (متحف التاريخ الطبيعي) التابع لجامعة اليرموك في الأردن، التقيت بالأستاذ الباحث درويش الشافعي، وهو من الكفاءات المتميزة في مجال التحنيط، ومجال دراسات البيئة ومتعلقاتها، وله في كل ذلك باع طويل، ودراسات وبحوث ومشاركات لها قدرها العلمي في مجالاتها.

إضاءة



- متخصص في علم الكائنات الحية والتحنيط.
- يعمل بمتحف التاريخ الطبيعي بجامعة اليرموك.
- ساهم في تأسيس متحف التاريخ الطبيعي في جامعتى مؤتة وجامعة آل البيت.
- له مشاركات علمية فاعلة في مجال الحياة البرية والبيئة الفطرية، والحيوانات والطيور والزواحف، منها: دراسات في مجال الطيور البرية في الاردن - الحيات - قط الغاب - حالة المفترسات في الاردن - التنوع الحيوي في الاردن - ظاهرة انتشار فأر الحقل - ثدييات الارض ... الخ.

ولقد شدني - حقيقة - رؤية تلك الحيوانات والطيور والزواحف المحنطة، مما دفعنى لاجراء هذا الحوار العلمي الممتع والشيق مع الأستاذ الباحث (درويش الشافعي).. وذلك لنستبين بعض أسرار التحنيط، ووظائفه، وما الفائدة العلمية المرجوة منه.

**** عن مضمون كلمة (تحنيط) يقول الأستاذ درويش الشافعي:**

التحنيط بالانجليزية Taxi dermy وهي كلمة يونانية من مقطعين:

Taxi وتعني ترتيب، Dermy تعني جلد، أي اعادة ترتيب الجلد من جديد، والتحنيط في الماضي يختلف عنه في الحاضر، ففي الماضي كان المحنط يسعى للمحافظة على كامل أعضاء الجثة، وذلك باستعمال مواد مكونة من نباتات برية عطرية وملح الطعام ومادة

أجرى الحوار : محمد محمود السويركي
- الأردن -

الشـيـد «الكلس» والقطران، أمـا التـحنيط في هذه الأيام فيركز على الجلد فقط.

**** أما عن طرق التحنيط والمواد المستخدمة فيه ، فإنه يوجزها في ثلاث نقاط أساسية :**

١ - يستخدم في عملية التحنيط مادة البوركس والشبة.

٢ - الحفظ بالمحاليل، وذلك باستعمال الكحول والفورمالين، حيث تحفظ العينات كالزواحف والبرمائيات والأسماك في وعاء زجاجي ويضاف اليها إحدى المادتين السابقتين أو كلْتَيْهما.

٣ - الطريقة الثالثة وهي التجفيف، وهي أقدم طريقة عرفها الانسان لحفظ غذائه، وللمحافظة على جلود حيواناته، حيث تقوم على تجفيف الماء أو التخلص منه من المادة المراد حفظها، وأكثر ما تناسب هذه الطريقة الحشرات والحيوانات اللافقارية البحرية.

**** متى ظهر علم التحنيط؟.**

* يؤكد الباحث أن علم التحنيط هو علم قديم



النورس الصغير – محنط

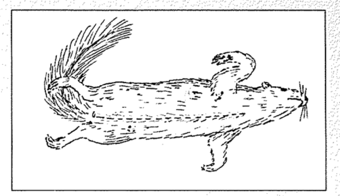
لازم الإنسان منذ نشأته على الأرض وذلك لحاجته الماسة لذلك. فقد اشتهر به قدماء المصريين «الفراعنة» من خلال المومياوات التى ظهرت، فكان التحنيط عندهم هدفا عقائديا أو دينيا، وذلك ليبقى الكائن البشري موجودا في الحياة الدنيا أطول فترة ممكنة عبر عملية التحنيط، وقد أتقن الفراعنة هذا العلم بدليل بقاء هذه المومياوات حتى هذا العصر، وقد وجد أكثر من (٢٥٠,٠٠٠) طائر داخل المقابر الفرعونية.

** آلية التحنيط ..

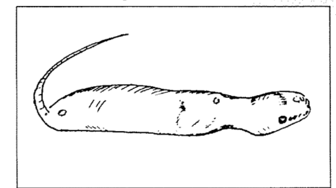
* وعن آلية التحنيط التى تستخدم في تحنيط الكائنات الحية قال الباحث:

يتم سلخ الجلد بآلة حادة، مع تنظيفه بشكل جيد وهذا ما يسمى بعملية «دباغة الجلد»، حيث يستخدم البوركس وهي مادة ملحية لتعقيم الجلد، والمساعدة في تجفيفه ومنع نمو الفطريات، وتستعمل الشبة للثدييات فقط بهدف تثبيت الشعر.

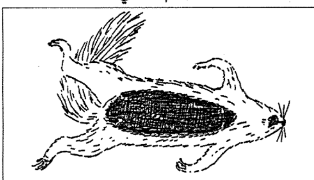
أيضا يعمل مجسم اصطناعي من القطن والقش يحاكي ويشابه الجسم الأصلى، ويوضع بداخل الطائر أو الحيوان، وتثبت السيقان والأجنحة بواسطة الأسلاك غير القابلة للصدأ، وتستبدل العيون الحقيقية بعيون زجاجية، وتعوّض عضلات الوجه المنزوعة بمعجونة أطفال (Plastic Clay)، وتثبت العيون الزجاجية بدل الأصلية، ويملأ فراغ الجمجمة بمعجون الأطفال أيضا.



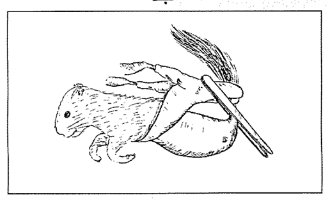
وضعية ماقبل السلخ



الجسم الأصلي



الجلد



طريقة سلخ الذيل

طريقة سلخ حيوان صغير



فني يدهن رأس اليحمور – المحنط

وإذا ما حفظت العينة المحنطة بعيدة عن الغبار ومحمية من الحشرات المتطفلة ووضعت تحت درجات حرارة منخفضة نسبيا، مع وضع حبيبات النفتالين.. فإن الكائن المحنط سيبقى سليما الى ما شاء الله سبحانه.

سر التحنيط عند الأمم السابقة :

** ترى ما السرّ الذى دفع بالأقدمين لعملية التحنيط؟ هل هو حرفة أم ترويح وتسلية، أم لأهداف أبعد وأسمى، أم ماذا؟.

* يرى الاستاذ الشافعي أن سر التحنيط عند الأمم السابقة كان لغرض ديني بحت، وذلك لممارسة الطقوس والمعتقدات التى انتهجها الأقدمون ليخلدوا أنفسهم عبر حياة فانية، في ظنهم أنها خالدة.. بخلاف الأمم الحديثة التى تهدف الى التعريف بالكائنات الحية الموجودة في بيئة ما مثلا، ولاجراء الدراسات والأبحاث ولإعادة تجميعها في مكان واحد أو فيما يعرف بالمتحف، وذلك لتشكل مصدرا هاما للترويج والثقافة، وهي أيضا تعتبر عامل جذب سياحي اقتصادي، كما تشكل وسيلة تعليمية مثالية لدراسة الكائنات الحية.

** هل جميع الكائنات تحنط ؟.

* كل حيوان له جلد يمكن تحنيطه، ولكن هنالك خيارين لنا كباحثين يمكن التعامل معهما.. فاما أن تكون العينة زاحفة مثلا، حيث يكون الهدف دراستها

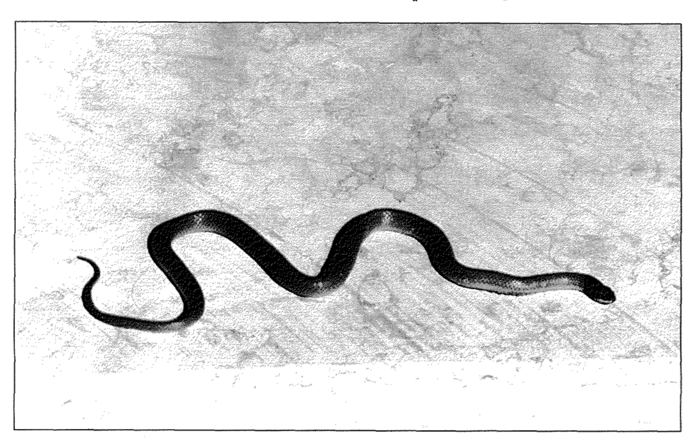
دراسة تصنيفية دقيقة، ففي هذه الحالة يجب حفظها في مادة الفورمالين لأن التحنيط يغيّر من بعض معالمها التصنيفية، أما اذا كان الهدف هو التعريف بها لعامة الناس، فيمكن تحنيطها بما فيها الأسماك والزواحف وغيرها.

وخلاصة القول: فان التحنيط للطيور مثلا لا يغير من معالمها بخلاف الزواحف.

**** كيف يصبح المتحف وسيلة تعليمية تثقيفية؟.**

* يمكن توظيف المتحف وذلك بعرض النماذج الحيوانية بطريقة (الديوراما Diorama)، وذلك لاعطاء تفاصيل ناطقة عن الحيوان أو الطائر في بيئته الطبيعية، بحيث توضع الحيوانات في أماكن تناسبها، كالصحراء أو الغابات أو السهول وبطون الأودية وسفوح الجبال، باختصار هو وضع الحيوان في البيئة المناسبة مع وضع ملصقات تبين الحياة الطبيعية للحيوان في الماضي والحاضر، والحيوانات التى انقرضت في الماضي في الاردن كالفيل ووحيد القرن، وذلك لتوضيح صورة الحياة في المستقبل، على ضوء الماضي والحاضر، وكذلك وضع ملصق يبين اسم العينة المعروضة، وتصنيفها العلمي، واسم الموقع الذى توجد فيه واسم الباحث الجامع وتاريخ الجمع.

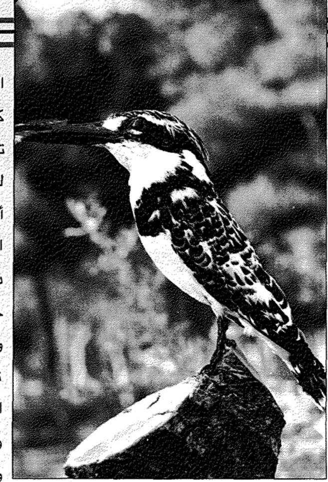
**** مدى تأثير العمل على شخصية وسلوك الباحث.**



ثعبان أسود الرأس

كثير من أصحاب المهن والحرف يتأثرون بطبيعة عملهم.. فالفنان التشكيلي مثلا ينظر لكل شيء حوله من زوايا ومرئيات فنية حتى إن حديثه يصبح انعكاسا ومحاكاة لعمله.. بمعنى أن المهنة تؤثر في سلوك أصحابها..

فماذا عن شخصية وسلوك الباحث الشافعي ومدى تأثره بطبيعة عمله كباحث فني ميداني وقناص ومحنط للكائنات الحية؟.



صائد السمك الأبقع - محنط

* مع مرور الوقت أصابني نفور من صيد الحيوانات، وقد راودتني الفكرة أن أقوم بجمع الحيوانات وهي حية، ثم أقوم باجراء الدراسات وأخذ المعلومات عنها وتصويرها، ثم إطلاق سراحها بدلا من قتلها.. وهذه ردة فعل طبيعية لدى كل صياد أو قناص يمارس الصيد لفترة زمنية طويلة، وذلك لأنه ليس من حق الإنسان التمادي في مطاردة الحيوانات وصيدها.

** اقتراحات

ماذا يقترح الباحث وماذا يقدم لأصحاب العلاقة وأهل الاختصاص من واقع مهنته كباحث وصياد ومحنط وخبير كائنات حية؟.

* أقترح إنشاء متحف وطني عام يغطي احتياجات المملكة، سواء كانت وسائل تعليمية أو تصنيفية أو دراسية، وذلك لخدمة أهداف المتحف.. أيضا أقترح دراسة الحياة الفطرية في الاردن بشكل دقيق، فالمملكة مكان خصب ومناسب للترويح والانسجام، خاصة اذا ما تم اقامة المتحف الوطني.. فهو سيغني ويثري الباحثين والدارسين وطلبة العلم بل سيكون مزارا للجميع.

وبعد:

إن عالم الكائنات الحية «البرية والبحرية»، الصغيرة والكبيرة، عالم غني بالاسرار.. يستحق منا المزيد من الإصرار والغوص والابحار.. بل يستوجب علينا جميعا.. من مؤسسات وأفراد الدعم والمؤازرة لطلبة العلم والباحثين والعلماء.. لكشف المزيد من المكونات.. وخاصة فيما يتعلق بعلم التحنيط، أسراره ومواده وآلية عمله وظروفه بل ومحنطيه.. شريطة العمل بطريقة مقننة تكتفي بالقليل من الحيوانات دون التمادي أو المغالاة، رائدنا في ذلك خدمة الانسان - أينما كان - غذاء ودواء وسعادة وفق شرع الله سبحانه وتعالى.

المسرح والفنون الأدبية الأخرى

المسرحية هي عرض حي يؤديه ممثلون أمام جمهور. وهذا أعظم ما يمتاز به الفن المسرحي. وهو أيضا مفتاح لفهم هذا الفن.

وقد تنبأ بعض النقاد بنهاية الفن المسرحي عندما اخترعت السينما الناطقة. ونظر البعض الى التلفزيون والاهتمام الجديد بالسينما كفن راق على أنهما تهديد للفن المسرحي. ولكن الحقيقة هي أن عدد المسارح الجديدة يزداد وأن كثيرا من المدن الصغيرة في مختلف أنحاء العالم أصبح فيها فرق مسرحية مقيمة تؤدى عروضاً مسرحية، وتقام مسارح جامعية بأفضل التجهيزات الممكنة. وواضح من زيادة عدد المسارح أن هناك حاجة حقيقية الى العروض المسرحية.

ولا شك أن لكل من السينما والمسرح نقاط قوة ونقاط ضعف، ولما كانت أعظم نقطة قوة في المسرح هي التأثير النفسي الذي يشكله الممثلون فإن المؤلفين المسرحيين المعاصرين يؤكدون هذه الناحية في الفن المسرحي. فبعضهم مثلا يفضل المسارح التى يحيط فيها الجمهور بالخشبة من جوانب ثلاثة. في حين أن آخرين يفضلون المسرح الدائري ويكتبون مسرحياتهم بشكل يستفيدون فيه من هذا التصميم. ويذهب بعض الكتاب الآخرين الى أبعد من هذا فيجعلون شخصياتهم تختلط بالجمهور. ففي مسرحية وليام كارلوس وليامز (عشاق كثيرون) مثلا يمكث المخرج والمؤلف بين صفوف الجمهور ويوقفان العرض مرة بعد مرة لمناقشة المسرحية والغرض منها متنقلين في حرية بين عالم المشاهدين وعالم الممثلين. ويشبه تأثير ذلك في الجمهور تأثير الحلم الذي يصحو منه المرء عدة مرات.

ولكن سواء كانت المسرحية تجريبية أو تقليدية كما هو الحال في مسرحية آرثر ميلر (الثمن) فإن الفن المسرحي يتميز عن كل من السينما والشعر والقصة بأنه فن حي.

ست خصائص أساسية للدراما :

للدراما خصائص تميزها، كما هو الحال في القصة، وتنجم هذه الخصائص عن كون المسرحية عرضاً حياً، وهناك مسرحيات تفتقر الى خاصة أو خاصتين من هذه الخصائص كما تفتقر بعض القصائد الشعرية الى خاصة الايقاع أو كما تفتقر بعض القصص الى الحوار. والواقع أن الخصائص ليست قواعد، ولكنها مجرد صفات مميزة تتكرر في معظم المسرحيات ويعتبرها معظم المؤلفين المسرحيين مصدر قوة في هذا النوع الأدبي.

١ـ المسرحية بالتعريف هي فن درامي:

وهذا يعنى عموماً أن لها تأثيراً نفسياً انفعاليا. ويتشكل هذا التأثير غالباً في وقت مبكر من المسرحية بسؤال درامي يستحوذ على انتباه

د. زياد الحكيم

دكتوراه فلسفة في الأدب الانكليزي - لندن

الجمهور قبل أن تصبح المسرحية واضحة بوقت طويل. والأسئلة الدرامية عادة مباشرة وبسيطة: هل يشكل هذا الغريب خطراً؟ من ينتظر هؤلاء؟ لماذا تمقت هذه الشخصيات بعضها بعضاً؟.. وتتحول هذه الأسئلة الأولية في أغلب الحالات الى صراعات محددة. وبالرغم من أن الحاجة الى توتر كهذا ليست ملحة جداً في المسرحيات القصيرة والكوميديات إلا أنها في العادة أكثر إلحاحاً في الدراما منها في القصة أو الشعر.

على أن من الصعب أن نطيل بقاء التأثير الدرامي. ولهذا السبب تصل معظم المسرحيات الى سلسلة من الذرى مجيزة بذلك لعواطف الجمهور أن تهدأ بين ذروة وأخرى. وهذا النظام من العمل المسرحي الصاعد والهابط لا يتبع أي قانون معين. وهو في الغالب حدسي من قبل المؤلف المسرحي - كما هو الحال تماما في كتابة القصة القصيرة.

٢ - الدراما فن بصري :

فالفعل المسرحي على الخشبة عادة ما يكون جزءاً مهماً وعضويا من العرض ككل. ولا يكفي في القرن العشرين أن تتحرك الشخصيات جيئة وذهابا على الخشبة ملقية بالشعر على غرار ما تفعله الشخصيات في المسرح الاغريقي التقليدي. إن حركة الشخصيات على الخشبة في أغلب الأحيان تساوي في أهميتها التعبيرية أهمية السطور نفسها.

ويذهب الاهتمام بالجانب المرئي في المسرحية الى أبعد من الشخصيات، فالديكور نفسه غالباً ما يكون جزءاً مهماً آخر في العرض، ويمكن لنظام الإضاءة المعقد أن يحيل الديكور الى عامل ديناميكي في تطوير الجو في كل مشهد، أضف الى ذلك أن اسقاط الصور المتحركة والثابتة على الخشبة يقوي الجانب المرئي عليها.

٣ - الدراما فن سمعي :

والكلمات في المسرحية هي حديث في المقام الأول خلافاً لما هو الحال في القصة، ويقترب الكاتب المسرحي في ذلك من الشاعر أكثر مما يقترب من الروائي، ويتعين على المؤلف المسرحي أن يقرأ ما يكتب بصوت مسموع كما يفعل الشاعر ليتعرف الى تأثير الكلمات ووقعها.

ويدفع هذا بالبعض الى كتابة مسرحيات شعرية، في حين أن مؤلفين آخرين يعتبرون الحوار الدرامي وسيلة لتشكيل خبرة حالمة تعتمد على الانطباعات أكثر مما تعتمد على حبكة مطورة تطويراً منطقياً، وهذه خاصة مرتبطة بمسرح اللامعقول. ويمكن أن تكون فترات الصمت بين السطور ذات مغزى كبير، ففي أعمال هارولد بنتر مثلا تعادل فترات الصمت في أهميتها أهمية السطور ذاتها أو تكاد.

٤ - الدراما فن حسي :

ويميل المؤلفون المسرحيون المبتدئون الى الاعتقاد

بأن هذه الخاصة قيد من القيود، فالديكور يجب أن يبنى بالخشب والمسامير، ولا يستطيع النص المسرحي أن يتجاهل مصمم الديكور وطاقم الخشبة.

ولكن يعتبر الجانب الحسي في العرض المسرحي مصدر قوة كبيرة، فعندما تقدم المسرحية بشكل واقعي فإنها تكتسب نوعا من المصداقية المكثفة، وعندما تكون المسرحية تعبيرية فإنها تفتح الخيال لما هو إيحائي ورمزي، وهناك جملة من التقنيات التى تخلط الممثلين بالجمهور والجمهور بوهم المسرحية، وهي تقنيات لا نجد لها مثيلا في أي نوع من الفنون الأخرى بما في ذلك السينما.

المسرح أشد تأثيراً في المتلقي من السينما

٥ـ الدراما فن متصل :

يختلف جمهور المسرح عن قراء القصة أو الشعر في أنه يتلقى المسرحية بالوتيرة التى يحددها المؤلف، فهو لا يستطيع التوقف للتأمل في ملاحظة حكيمة أو حادثة مؤثرة ولا يستطيع العودة الى صفحة سابقة أو مراجعة مشهد مضى. وهذه الخاصة لا تجعل المسرحية أفضل أو أسوأ من غيرها من الفنون، ولكنها ميزة يمكن للكاتب المسرحي أن يستفيد منها.

٦ـ الدراما فن للمشاهدة :

واستجابة الجمهور على جانب كبير من الأهمية ولعل موقف الجمهور هنا أكثر أهمية من موقف جمهور المباريات الرياضية، فالشعراء لا يهتمون باستجابة قراء قصائدهم، ومن النادر أن تجد شاعراً يغير بيتاً من قصيدة له استجابة لمقالة نقدية، والروائيون أكثر تأثرا بموقف القراء من الشعراء، فجمهورهم أوسع من جمهور الشعراء، وهم يعرفون ذلك، ولذلك فإن كثيراً من الروائيين يدخلون تعديلات واسعة أحيانا على رواياتهم استجابة لاقتراحات المحرر. توماس وولف مثلا وضع ثقته في محرره ماكسويل بيركنز وأجاز له أن يحذف ما شاء من نصوص رواياته. وإف سكوت فيتزجيرالد ذهب الى أبعد من ذلك فأعاد كتابة روايته (الليل الهادىء) بعد نشرها بسنوات محاولا أن يتغلب على موقف القراء السلبي منها.

أما المؤلف المسرحي فهو أكثر تحسساً لاستجابة الجمهور. فهو قد يكون شديد التوتر بينما يجلس في مؤخرة صالة المسرح ليلة افتتاح العرض، وهو شديد التنبه لتلك اللحظات الرهيبة التى يضحك فيها الجمهور في الوقت غير المناسب أو التى يتململ فيها بدافع الضجر. وتجده يتسقط التعليقات التى

يتبادلها الجمهور في أثناء فترة الاستراحة، وهو يهتم اهتماماً كبيراً - وربما أكثر مما يجب - بالمقالات النقدية التى تصدر في الصحف في اليوم التالي.

وهذا لا يعنى أن المؤلف الجاد هو عبد لما يمليه عليه النقاد والجمهور. ففي أغلب الأحيان يكون للكاتب تصور أساسي للعمل يبقى بدون تغيير، ولكن لما كان الكاتب يتعامل مع عرض حي ومع جمهور يمر بخبرة جماعية فإن اهتمامه باستجابة مشاهديه أمر مشروع.

الحدود الطبيعية للدراما :

ليس هناك حدود قاطعة بين الفنون الأدبية، فالقصيدة قد تعتمد اعتماداً كبيراً على لغة رمزية غير غنائية وبذلك تغدو أقرب الى النثر. والقصة التى تتوسع في السرد تبدو أقرب الى المقالة، والقصة التى تعتمد على الحوار اعتمادا كبيرا تقترب من الدراما، ويبدو أن حدود أي نوع أدبي قد رسمت بناء على الأثر الذي يحدثه النوع في نفس المتلقى، وإذا اقترب الكاتب من نوع أدبي آخر فإن مسؤوليات معينة تتولد وعليه أن يأخذها بالاعتبار، ولكن من أجل أن نفهم الامكانات الكاملة لأى نوع أدبي علينا أن نستكشف حدوده الخارجية.

من الممكن على سبيل المثال أن تقترب المسرحية من الشعر. فالمسرحيات الاغريقية قد كتبت شعراً، وكذلك الدراما الفرنسية الكلاسيكية في القرن السابع عشر. وتخير شكسبير طريقاً وسطا جاعلا الشعر المرسل حرا تماما ولجأ الى النثر في حوار الشخصيات الهزلية والوضيعة. وكتب الكتاب الامريكيون في القرن العشرين من أمثال ماكسويل أندرسون وروبرت لويل دراما شعرية لمعالجة موضوعات راهنة. وواضح من هذه الأمثلة أن استخدام الشعر في المسرحية لا يقلل من تأثيرها ولا يبطىء من وتيرتها.

ولكن تبدأ مشكلات الشعر في الدراما بالظهور عندما تقترب الأبيات من التعقيد اللفظي والمعنوي الذي نربطه غالبا بالشعر. فالدراما شكل مستمر ولا يستطيع الجمهور أن يراجع الأبيات لفهم استعارة معقدة. ولهذا السبب فإن الشعر المعقد فيها يعتبر نقطة ضعف وليس نقطة قوة، إذن يمكن أن تقترب الدراما من القصيدة، ولكن يجب أن لا نخلط بينها وبين الشعر نفسه.

وبالمثل نجد في الدراما عناصر المقالة. فتعطى الشخصيات غالباً سطوراً تبدو في القصة ذات

المخرج والمؤلف في بعض المسرحيات ينزلان للجمهور لاستطلاع آرائهم حول المسرحية المعروضة

مكونات المسرح، مع حركة الممثلين المتناغمة لها أهميتها التعبيرية

نزعة تعليمية وتوجيهية. وقد يلجأ الكاتب المسرحي الى هذا ضمن حدود معينة لأن النوع الدرامي ليس فيه سرد كما في القصة ولأن وتيرة الدراما أسرع من وتيرة الرواية. وتتمتع المسرحية بقوة دفع معينة تستحوذ على الجمهور من خلال مناجاة تشبه المقالة، إذا كانت هذه المناجاة ليست أطول مما يجب.

وتتوسع بعض المسرحيات في معالجة موضوعات أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية، فمسرح المقاومة والاحتجاج، والدراما العمالية في الثلاثينيات من القرن العشرين في الولايات المتحدة كما في مسرحية (بانتظار لفتى) للكاتب كليفورد أوديت مثلا، والمسرحيات الأخلاقية في العصور الوسطى - كلها دراما هادفة بمعنى أن كلا منها يحمل رسالة معينة ويناصرها. وكان معظمها خبرات مسرحية مؤثرة بالنسبة الى الجمهور في ذلك الوقت.

وتتميز هذه المسرحيات بكونها مبسطة من الناحية الأدبية، وهي تعتمد على موضوعات الساعة سواء السياسية منها أو الأخلاقية. ولكن ما أن يفوت الوقت على هذه الموضوعات حتى تغدو المسرحيات عتيقة الطراز. إن مسرحية (مغزى) للكاتب سكلتون مثلا حظيت بنجاح وافر عند أولئك الذين عانوا من تطرف هنري الثامن قبل خمسمئة عام. وأمتعت مسرحية (ماكبرد) للكاتبة باربرا غارسون نقاد الرئيس الامريكى ليندون جونسون عام ١٩٦٦م. غير أن المسرحيتين مبنيتان على موضوعات سياسية واجتماعية لا تغري رواد المسرح اليوم بمشاهدتها.

ومن غير المفيد أن نجادل فيما إذا كان يجب على المسرحية أن تعالج قضايا اجتماعية راهنة أو أن تكون ذات رسالة كما هو الحال في المقالة أو فيما إذا كان يجب عليها أن تهتم بالموضوعات الإنسانية ذات المضامين التى لا يمكن ان ينال منها الزمن. إن لكل من هذين الاتجاهين فوائده المختلفة ويؤدي وظائف مختلفة: فالأول يؤثر في المجتمع الراهن تأثيراً محدداً، وبذلك يقوم بمهمة الاصلاح، في حين أن الثاني يتمتع بصفة الاستمرارية والبقاء والقدرة على مخاطبة الثقافات المختلفة عبر القرون.

وكما هو الحال في الدراما الشعرية هناك مشكلة ضعف التأثير، فإذا كانت المسرحية تشبه المقالة شبها كبيراً فإنها تفقد الوهم الدرامي الذى يجيز للجمهور أن يدخل الى العمل المسرحي وأن يتأثر به، فيظل المشاهد خارج العمل كما لو كان يستمع الى خطبة. وفي هذه الحال تفقد الدراما

القدرة على إثارة عواطف الجمهور وذكرياته وتفقد القدرة على التعليم عن طريق المثال الحي، إذن يستطيع الكاتب المسرحي أن يتحرك باتجاه المقالة ولكنه يجب أن لا يخلط بين المسرحية والمقالة كنوعين أدبيين.

وبالرغم من أن الدراما في بعض نواحيها تشبه القصة إلا أنها تفقد الكثير من فعاليتها إذا أجيز لها أن تهيم بعيداً في هذا الاتجاه أيضاً، فالحبكات القصصية في الغالب تفتقر الى الوحدة الدرامية الضرورية في العروض المسرحية، وهي تقفز عدة قفزات في الزمان والمكان. أما الدراما من الناحية الأخرى فتمتاز بوحدة أكبر. وهناك استثناءات كثيرة، غير أن القيود الميكانيكية للديكور والحاجة الى الانسجام تشجع الكاتب المسرحي على جعل حبكته تتحرك في نسق تاريخي وبدون تنقل كثير في المكان.

ومن الخصائص الأخرى للقصة أنها تستعمل الخاطرة، وبإمكان الدراما الإفادة من هذه الخاصة بجعل الشخصيات تتحدث عن نفسها أو تخاطب الجمهور مباشرة أو باستخدام الجوقة أو بالاستماع الى شريط مسجل. وعلى أي حال، تعتمد المسرحية عموما على مصادر القوة فيها أي على الفعل المسرحي والحوار فبإمكان الجمهور التعرف الى أفكار الشخصية بالاعتماد على ما تفعله وما تقوله. ومن شأن التعبير عن الخواطر بصورة مباشرة أن يبطىء الوتيرة في المسرحية، وهو أقل استخداما في المسرحية مما هو في القصة.

هناك استثناءات لكل ما ذكرناه عن حدود الدراما، فالتجريب في المسرح اليوم يفوق ما كان عليه في أي وقت في التاريخ، إننا نجد مسرحيات تتحرك بحرية الى أمام والى وراء زمنياً مثل أي رواية فضفاضة، كما في مسرحية (بعد السقوط) لارثر ميلر. وهناك مسرحيات لا تستفيد من العنصر البصرى كما في مسرحية (المذكرات الكاملة لبرنارد ميرجينديلر) لجولز فيفر، وهي مسرحية تعرض في ظلام دامس. وهناك مسرحيات ليس فيها ممثلون كما في مسرحية (الرغبة) لبيكاسو، وهي مؤلفة من مشهد كامل يصور «رقصة» لجسمين متحركين.

ولكن لا شك أن العروض الحية التى تقدم على الخشبة تمتاز بمصادر قوة لا نجد لها مثيلا في الأنواع الأدبية الأخرى. ويهتم معظم المؤلفين المسرحيين بتطوير هذه المصادر والاستفادة منها أكثر مما يهتمون بمحاكاة تلك الأنواع الأدبية.

عندما تقدم المسرحية بشكل واقعى فانها تكتسب نوعا من المصداقية المكثفة

هل كان أبو حيان التوحيدي متصوفا؟؟

لقد كانت بداية الحديث عن علاقة أبى حيان التوحيدى بالصوفية والتصوف، انطلاقا من كلمتين ذكرهما ياقوت الحموى، وهو يترجم له، عندما قال ـ وهو يعدد أوصافه: «... وشيخ الصوفية»[١].. وتناقل الذين كتبوا عن التوحيدى هذا الوصف دون تحقيق ـ في التراجم القديمة ـ واستنادا ـ في بعض الدراسات المعاصرة ـ الى كتابه (الإشارات الإلهية) الذى تشيع فيه الأدعية الصوفية.

لكننا نلاحظ ان ياقوت الحموى، الذى وصف التوحيدى بأنه «شيخ الصوفية»، هو ذاته الذى تحدث عنه باعتباره «رئيس جماعة من المتسولين ـ الساسانية»!.. كما وصف خُلُق التوحيدى بالأوصاف التى تنفى عنه أية علاقة بحقيقة التصوف والصوفية الحقيقيين ـ فضلا عن أن يكون شيخهم ـ وذلك عندما قال كلماته المعبرة: «.. وكان التوحيدى مجبولا على الغرام بثلب الكرام»!!.. ثم إنه ـ ياقوت ـ هو الذى حكى من علاقات التوحيدى بالدنيا ومتاعها! والحياة وعرضها ما يتناقض كل التناقض وأشده مع نهج الصوفية والمتصوفين.

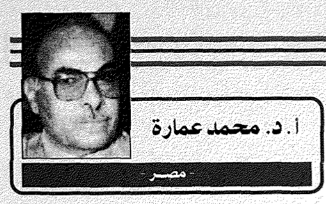
فما هى حقيقة هذا الموضوع؟!..

لو كان التوحيدى شيخا للصوفية، أو حتى من أهل التصوف، لترجمت له كتب الطبقات التى ترجمت الصوفية.. لكن هذه الكتب قد خلت تماما من أى ذكر لأبى حيان.

ثم إن أخلاق الرجل وصفاته، التى وصفه بها واحد من ابرز علماء عصره، وهو الشيخ أبو الوفاء المهندس البوزجانى الذى أحسن الى التوحيدى كما لم يحسن إليه أحد من عارفيه، وصبر على خُلقه على حين انقلب عليه الكثيرون بسبب هذا الخُلق.. فالتقطه من أوساط الدهماء والمتسولين وعوام المنتسبين للصوفية، فعينه حارسا للبيمارستان العضدى، ثم قدمه الى الوزير ابن سعدان ليكون مسامرا للوزير في مجلسه، وطلب منه تدوير هذه المسامرات (الإمتاع والمؤانسة) إن الصفات التى كان عليها التوحيدى، والتى ذكرها له الشيخ أبو الوفاء ـ مواجهة في عتاب قاس ـ وهى التى سلّم بها التوحيدى ولم ينكرها أو يجادل في اتصافه بها، كلها تنفى عن التوحيدى أية أهلية للتصوف وأية علاقة بأهل هذا الطريق.

لقد كتب إليه أبو الوفاء المهندس، عندما رآه يتنكر لليد التى أحسنت إليه ـ بعد أن أصبح مسامرا للوزير ابن سعدان ـ فقال له: «أتظن بغَرَارتك (غفلتك) وغَمَارَتك (جهالتك وبلاهتك) وذَهابك في فُسُولتك (ضعفك وخستك وقلة مروءتك) التى اكتسبتها بمخالطة الصوفية[٢] والغرباء والمجتدين (المتسولين للعطاء) الأدنياء الأردياء، أنك تقدر على مثل هذا الحال (التنكر للإحسان)، وأنام منك على حسن الظن بك»؟![٣]

ولم ينكر أبو حيان التوحيدى، في جوابه على رسالة الشيخ أبى الوفاء المهندس، أيا من هذه الصفات التى وصفه بها ـ والتى تكفى واحدة منها



أ. د. محمد عمارة
- مصر -

لتنفى عنه أية علاقة بالصوفية والتصوف.. وإنما زاد هذه الحقيقة تأكيدا عندما تحدث عن حبه لأغراض الدنيا، وتعلقه بمظاهرها، وحرصه على متاعها - الأمر الذى يباعد ويناقض بينه وبين التصوف وأهله - فقال: «إن هذه العاجلة محبوبة، والرفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة، والدنيا حلوة خضرة، وعذبة نضرة.. وترك خدمة السلطان غير الممكن، ولا يستطاع إلا بدين متين، ورغبة في الآخرة شديدة، وفطام عن الدنيا صعب»[٤]!!

فهو يعلن تعلقه الشديد بزينة الحياة الدنيا ومتاعها، وسعيه للمكانة عند الوزراء بكل حيلة وبكل قوة، وافتقاره الى الصوارف عن هذا الطريق - من دين متين، ورغبة في الآخرة شديدة، وفطام عن الدنيا» - وهي الصوارف التى تميز بها أهل الطريق.

والتوحيدى لا يدع مجالا للشك: «دنيوية منهاجه في الحياة».. فيصرح برفضه للاعتدال المتوازن الذى يتيح للإنسان التوسط الجامع بين الدنيا والآخرة، ويكشف عن فكر غريب ينكر هذه الوسطية، عندما يقيم تناقضا كاملا بين «الدنيوية» و«الأخروية» في الوقت الذى أفصح فيه عن عشقه لمتاع الدنيا وغرامه بمظاهرها، فيقول: «وربما قال بعض المتكلفين: قد قال بعض السلف: (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه). وهذا كلام مقبول الظاهر، موقوف الباطن. وربما قال آخر من المتقدمين: (اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا).

وهذا أيضا كلام منمق، لا يرجع الى معنى محقق. أمين هو من قول المسيح، عليه السلام، حين قال: الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب، متى بعد أحدكم من أحدهما قرب من الآخر، ومتى قرب من أحدهما بعد من الآخر، وأين هو من قول الآخر: الدنيا والآخرة ضُرّتان، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى.

«وهذا الانسان.. لا يستطيع أن يجمع بين شهواته، وأخذ حظوظ بدنه، وإدراك إرادته، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه»[٥].

فهل هناك علاقة بين هذا الموقف، الرافض للاعتدال والوسطية والتوازن الجامع بين الدنيا والآخرة، وبين موقف الصوفية الذين ولّوا وجوههم الى الآخرة مديرين ظهورهم للدنيا؟!.

بل إن التوحيدى - الذى أفصح عن طلبه للمكانة عند الوزراء «بكل حول وقوة» - والذى كانت حياته ومأساته ثمرة لممارسته هذا الاتجاه - يتوسل الى الشيخ أبى الوفاء المهندس توسلا يعف القلم عن وصفه بما يستحقه من أوصاف!!.. فيكتب إليه في ختام كتاب (الإمتاع والمؤانسة) يقول له: «لم يبق في هذه الجماعة على فقره وبؤسه، ومُرِّه ويأسه غيرى.. خَلِّصنى، أيها الرجل، من التكفف. اشْتَرنى بالإحسان، اعتَبِدْنى بالشكر، استعمل لسانى بفنون المدح.. اجبُرنى فإننى مكسور. شَهرني فإننى غُفل، حلِّنى فإننى عاطل. سرحنى رسولا الى صاحب البطائح، أو الى أبى السؤل الكردى، أو إلى غيره ممن هو في الجبال، أو دع لى ألف درهم، فإنى أتَّخذه رأس مال، وأشارك بقّال المحلّة في درب الحاجب. أو تقدَّم إلى «كسج» البقال حتى يستعين بي في بيع الدفاتر»[٦].

فهل هذه اخلاقيات ومقاصد تطلعات الصوفية، أهل الطريق، من أية أمة أو دين، في أي زمان أو مكان؟!.

لقد كان التوحيدى «ناسخا.. وراقا»، لكنه لم يقنع - ككثيرين من أعلام علماء عصره وغيره من العصور، الذين عاشوا على التكسب من نسخ المخطوطات، مع التعلم منها، وتكوين المكتبات الزاخرة بالعلوم والفنون - فسمى هذه الحرفة (حرفة الشؤم).. وسعى الى «العاجلة المحبوبة، والرفاهية المطلوبة، والمكانة عند الوزراء، وجمع الشهوات والحظوظ»، حتى ولو كان ذلك بتزلف العبيد، والمشاركة في «بقالة بدرب الحاجب» - أو بيع الدفاتر عند (كسج) البقال؟!.. بل حتى لو استدعى الأمر «بيع الدين، وإخلاق المروءة، وإراقة ماء الوجه»[٧].

ثم إن خُلُقه في طلب المكانة عند الوزراء - «بكل حول وقوة» - قد حال بينه وبين النجاح في هذا الميدان، فانتهت كل تجاربه مع الوزراء - من المهلبى (٢٩١ - ٣٥٢هـ) - وزير معز الدولة، ببغداد.. الى أبى الفضل ابن العميد (٣٦٠هـ) وزير ركن الدولة في خراسان.. الى ابنه أبى الفتح ابن العميد (٣٣٧ - ٣٦٦هـ) وزير ركن الدولة في الرى.. الى الصاحب ابن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ) وزير مؤيد الدولة، وفخر الدولة، في الرى.. الى ابن العارض أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن سعدان (٣٧٥هـ) وزير صمصام الدولة فى بغداد.. الى أبى القاسم المدلجى وزير صمصام الدولة في شيراز.. انتهت كل تجاربه مع جميع هؤلاء الوزراء بغضبهم عليه، وفراره منهم، وطلبهم إياه.. فلقد كان - كما قال ياقوت الحموى - «مجبولا على الغرام بثلب الكرام»!! وفي تأمل أبعاد هذه الكلمات التى اختارها ياقوت المفتاح لمأساة هذا الرجل، الذى أراد استبدال لذات الدنيا - حتى لو اقتضت «بيع الدين وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه» - بالوراقة والنسخ - التى سعد بها كثير من أعلام العلماء - على حين سماها هو «حرفة الشؤم.. وتكرار ما في الكتب»[٨].

فهل هذا منهاج صوفي؟.. وهل هذه هى طريق المتصوفين من أهل الله؟!!.

لقد طلب التوحيدى المكانة عند الوزراء، حتى ولو كان ذلك - كما قال - «ببيع الدين وإخلاق المروءة».. وكان في طلبه لهذه المكانة رهن إشاراتهم في كل شيء.. حتى إن الوزير ابن سعدان، يطلب إليه في إحدى الليالى ان يخوض به في بحر الخلاعة والمجون، فيقول له: «تعال نجعل ليلتنا هذه مجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر.. فهات ما عندك» فتكون حصيلة أبى حيان إحدى عشرة صفحة من المجون الداعر والدعارة الماجنة.. حبذا لو تأملها الذين يتحدثون عن مشيخة التوحيدى للصوفية في العصر الذى عاش فيه[٩].

أما كتاب (الإشارات الالهية) - الذى يستدل به البعض على تصوفه - فإن من دارسى التصوف من يشكك في نسبته الى التوحيدى، انطلاقا من مجافاة منهجه في الحياة لما تعارف عليه أهل التصوف[١٠].. فالتصوف «تجربة حياة».. وليس نظريات تكتب ولا كلاما يقال!.

الهوامش :

(١) (معجم البلدان) جـ ١٥ ص ٥.

(٢) وهذه الأوصاف دليل على أن المخالطة كانت للدهماء المحسوبين على الصوفية.. إذ أن مخالطة الصوفية لا تثمر الخسة وقلة المروءة.

(٣) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ١ ص ٧.

(٤) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٣، ١٤.

(٥) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٥.

(٦) المصدر السابق : جـ ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٨.

(٧) المصدر السابق : جـ ٢ ص ١٤٣.

(٨) المصدر السابق : جـ ٢ ص ١٤٣.

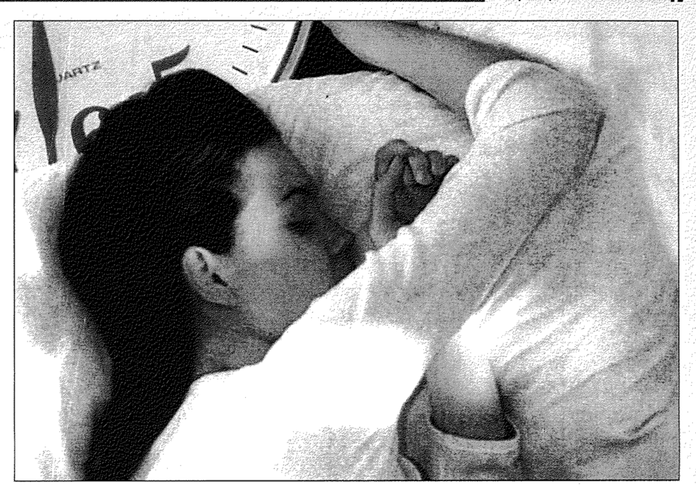
(٩) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٥٠ - ٦٠.

(١٠) د. يوسف زيدان «التوحيدى والصوفية» مجلة (الهلال) عدد نوفمبر سنة ١٩٩٥م.

ياشاطىء البحر

مروان علي المزيني
-المدينة المنورة-

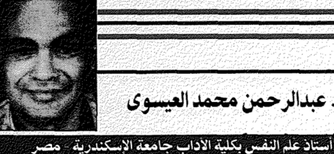
يا شاطىء البحر قد داعبت أوتاري
فتراقصت طرباً في عزف أشعاري
لما استشقت منك عذوية المعنى
ذابت كإشعاع في يم أسفار
همستْ بأذني أمواجٌ يدافعها
خجلُ العذارى في قرب وإدبار
والشمسُ أرختْ من إشعاعها خصلا
يلهو النسيمُ بها في موج إبحار
وتلثمتْ بخمار السُّحْب في خجل
مالتْ مودعة في درب أسحار
قد صافحتْ سفني الأمواج عاشقة
تمضي بها قدما في بحر أفكاري
أمواجك الحرى تأتي إلى قدمي
والموج مشتاق في سبر أغواري
قد كنت تسألني: من يا ترى ملكتْ
منك المشاعر في حلم وإبصار؟
أهي التى عكست في الموج صورتها
لما أضاءت في الدنيا بأنوار؟
فنظرتُ نحوك والآفاقُ ساحرة
وعلمتُ أنك لن تفضي بأسراري
إني غرقتُ ببحر لا مثيل له
فيه النديمُ وفيه مرابع الدار
جنبتْ فؤادي في رفق تغوص به
حورية جمعتْ حسنا بلا عار
حورية حازت قلبي برقتها
وعلى الوفاء يكون اليوم اقراري



أحلام النوم واليقظة وهم ... أم حقيقة ..؟!

ونحن نصطدم دائماً بأسئلة تمس العلاقة بين الخيال والواقع:

- ما العلاقة بين الواقع والخيال؟.
- هل الأحلام عبارة عن أوهام أم أن هناك علاقة بين الخيال والحقيقة؟.
- من أين يأتي الحلم بمادته أو محتواه الظاهر؟.
- هل يستطيع خيال الأحلام أن يحل المشكلات العلمية؟.
- ولماذا يكون انعكاس الحقيقة في الأحلام مشوهاً هكذا في بعض الأحيان؟.



أ. د. عبدالرحمن محمد العيسوى

أستاذ علم النفس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية - مصر

** على هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة أخرى تحاول دراسة الأحلام إيجاد إجابة لها، وغالباً ما تكون هذه الإجابات مؤقتة فقط، ومختلفاً عليها في العادة بشدة. وبالتأكيد فلن نستطيع إطلاقاً الحصول على إجابات نهائيةحول كل هذه الأسئلة الهامة المرتبطة بأحلامنا، إلا أننا نستطيع فقط عرض نتائج متنوعة لبحوث الأحلام وعرض مقولات لإيضاح طبيعتها.

إن محاولات تفسير ظاهرة «الأحلام» موجودة منذ العصور القديمة. ففي ذلك الوقت تساءل الناس عن معنى أحلام سفك الدماء أو الأحلام الجنسية، وفيما إذا كان الإنسان مسئولا عن الذنب المقترف في الحلم، وفيما إذا كان بالإمكان إثارة محتويات محدودة للأحلام بواسطة مثيرات خارجية. إضافة لتساؤلات أخرى كثيرة.

تاريخ دراسة الحلم، هذا يعنى تطور الآراء حول الحلم منذ العصور القديمة حتى القرن التاسع عشر الميلادى. ولقد حاول سيجموند فرويد وضع نظرية في الأحلام وتفسيرها بعد أن انتقد كافة الآراء السيكولوجية والطبية التى كانت سائدة في عصره. حيث كانت تقول إن الحلم هو فقط عبارة عن رجفة الروح الغائمة. وإن الحلم يتكون من موجات عديمة المعنى للخلايا العصبية. وقد أصبح كتابه «تفسير الأحلام» منطلقاً لدراسة الحلم الحديثة. ولقد تمت دراسة الأحلام من خلال أعوانه وأتباعه، وكذلك من خلال أعدائه الذين حاولوا دحض نظرياته. فحتى اليوم لا يستطيع أى عالم يعالج بجدية موضوع الحلم، تجاهل كتاب فرويد. ويركز العلماء الآن، بشكل خاص، على المسائل الواقعة في مركز دراسة الحلم التجريبية:

- متى يحلم المرء؟ وكم مرة؟، ماذا يحلم؟، أيستطيع الإنسان إثارة الأحلام بصورة اصطناعية؟، هل يحلم المرء أحلاما ملونة؟، لماذا غالباً لا يتذكر المرء أحلامه.؟، وماذا عن قابلية الإيقاظ في الحلم؟، ما هي الأحلام المرعبة (الكوابيس)؟، هل هناك نموذج حلم خاص بمجتمع معين؟، ماذا يحدث حين يمنع المرء حدوث الحلم بالقوة؟.. الخ. ويدرسون مسألة حل المشاكل في الحلم.

التاريخ السياسي والعلمي مملوء بالأحلام كيف توصل بعض العلماء الى إبداعاتهم أو توصلوا لحلول لمشكلاتهم العلمية، ويهتم بعض العلماء بشكل خاص بإمكانية تفسير حل المشكلات هذه دون الاستعانة بقوى فوق طبيعية وإن ما فوق علم النفس Par-apsychology يعتبر مثل هذه الظواهر فوق الطبيعية هي المسئولة عن الأحلام التنبؤية والتخاطرية. ويناقش العلماء استخدام الحلم في تشخيصها وعلاج بعض الأمراض العصابية والذهانية. ويدرس العلماء الأحلام الآن من كافة جوانبها كالعلاقة بين ظاهرة الحلم ومظاهره الفيزلوجية المرافقة أو أسبابه الفيزيقية.

هل الأحلام ظاهرة محيرة ومعقدة وغامضة؟

الأحلام تبدو مهمة للحياة، وإن الكثير من نتائج

الأبحاث تشير الى أن الإعاقة المصطنعة للحلم تقود الى اضطرابات لصحة الإنسان. مع التوغل المتزايد في طبيعة الحلم تنمو أيضاً إمكانيات استغلاله العلمي. وهذا لا يقتصر فقط على العلاج النفسي (رضوان، سامر جميل، ١٩٩٤، ص ٨ : ١٠).

تعريف الحلم وطبيعته :

- تعريف الأحلام :

الحلم عبارة عن تتابع للصور متناسق كثيراً أو قليلا يحدث أثناء النوم. (عاقل، فاخر، ١٩٨٥، ص ٣٦).

والحلم، كما يعرفه أ.د/ فرج عبد القادر طه ورفاقه، تعريفاً جامعاً بالقول (الحلم: سلسلة من الهلاوس والتخيلات التى تحدث لنا أثناء النوم. وتختلف الأحلام في مدى تماسكها ومنطقيتها، وعموماً فإن الحلم يعتبر من أهم الحيل الأساسية التى تلجأ إليها النفس البشرية لإشباع رغباتها ودوافعها، خاصة تلك التى يكون إشباعها صعباً أو مستحيلا في عالم الواقع.. ففي الأحلام يرى الفرد دوافعه وقد تحققت في صورة حدث أو خبرة يعيشها في الحلم. والمثال الشعبى القائل «الجعان يحلم بسوق العيش» خير تعبير عن هذه الحقيقة العلمية، ويرجع الفضل الى فرويد في إعادة اكتشاف هذه الحقيقة وتنبيهنا إليها، وإقامة الدليل على صدقها في واحد من أهم وأخطر كتبه هو «تفسير الأحلام» الذى نشره في أواخر القرن الماضى حيث يقرر أن الحلم «تحقيق رغبة». ويضرب من الأمثلة ما يقيم الدليل على هذه الحقيقة التى سبقه إليها المثل الشعبي بوقت طويل) (طه، فرج عبد القادر وآخرون، ١٩٩٣، ص ٣٠٨ : ٣٠٩).

ويعرف الحلم بأنه حقيقة يعيشها ليلا معظم الناس. موقف الفرد من أحلامه وإمكانات التعامل مع هذه الحقيقة متنوعة: فيمكن للمرء على سبيل المثال نسيانها أو الادعاء (أنا لا أحلم إطلاقاً) إلا أنه يمكن للمرء أيضاً أن يوجه الحياة برمتها حسب الأحلام، وهذا ما كان منتشراً بكثرة في الشرق القديم. وختاماً يمكن للمرء جعل الأحلام موضوعاً لعلم، لدراستها وفهم معناها ودوافعها وأثرها في سلوكه اليومى((رضوان، سامر جميل، ١٩٩٤، ص٨).

ويلاحظ أن نسيان الأحلام ليس أمراً إرادياً فقد ينسى المرء أحلامه ولكن لأسباب خارجة عن إرادته ووعيه.

أنواع الأحلام :

فالحلم عبارة عن سلسلة من الصور الذهنية التى تشبه الفيلم السينمائى تمر في ذهن الفرد كبيراً أو صغيراً أثناء نومه. وللأحلام عدة أنوا ع منها:

١- أحلام الجنس :

وهي اكثر ما تكون فى سنّ الشباب، بسبب الهياج الجنسي، وما يرون من صور ومناظر مثيرة لهذه الرغبة.

٢- الأحلام الملونة Coloured dreams :

هناك أحلام يراها المرء بالألوان «الطبيعية» الى جانب الأحلام باللونين الأبيض والأسود. ويقول عالم النفس الأمريكى أيزيك أن الألوان ليست عوناً هاماً في تفسير الحلم، وكل حلم بين ثلاثة أحلام يكون ملوناً، لكن كل المحاولات الرامية للعثور على أى نوع من

التفسير للفارق بين الأحلام بالأسود والأبيض والأحلام الملونة جاءت مخيبة للآمال حتى الآن.

٣ـ أحلام اليقظة Day dreams :

هي نوع من التخيلات أو سلسلة من الصور الخيالية والحوادث المتخيلة التى تمر في خيال المرء عندما يترك العنان لعقله لكى ينتقل على غير هدى بين الصور السارة، فيشبع بذلك الرغبات التى بقيت دون إشباع في الحياة الحقيقية وعلى صعيد الواقع. يستسلم المرء لها أحياناً كوسيلة للهرب من واقعه إذا كان هذا الواقع مؤلما أى أنها مجموعة من الأحداث والمغامرات الخيالية يتصورها الإنسان في يقظته كأنه يحلم (خالد، نور الدين وسالمى، عبد الحميد ١٩٩٨م، ص ٩٩) إذا كان الواقع سيئاً، وهى بذلك عبارة عن تحقيق لرغبات مكبوتة أو رغبات عجز الإنسان عن تحقيقها في عالم الحقيقة والواقع، فيحققها في خياله أو في أحلام يقظته (رزق، أسعد ١٩٧٧م، ص ١٤ : ١٥).

٤ـ الأحلام المحرفة Distortion dreams :

يقوم الحلم بتحريف الرغبة وتقنيعها، وتمريرها من الرقيب عن طريق حيل الدفاع اللاشعورية مثل حيلة التكثيف والإزاحة والترميز، وكلها عمليات عقلية لا شعورية. فللحلم طبيعة «رمزية» حيث لا تظهر فيه الأشياء علنية أو سافرة، وإنما تظهر بصورة رمزية مقنعة (الحفنى، عبد المنعم ١٩٩٤م، ص ٢٣١).

فالحلم سلسلة من الصور البصرية والتخيلات الذهنية، تحدث للفرد النائم ويعتبرها التحليل النفسى حيلا تلجأ إليها الذات الوسطى لتشبع رغبتها وخاصة الصعبة منها أو المستحيلة التحقيق في الواقع (خالد، نور الدين وسالمى، عبد المجيد ١٩٩٨م، ص ٩٩).

٥ـ حلم الهلوسة Onirism :

هلوسة بصرية تبدو كأنها حلم يعيشه المريض بشكل مكثف في حالة اليقظة ويعتقد أنه حقيقة، ويلاحظ خاصة في حالات التسمم الحادة (مثل تعاطى الحشيش أو مثله) أو المزمنة (مثل إدمان الكحول). (خالد، نور الدين، وسالمى، عبد المجيد ١٩٩٨م، ص ٩٩).

٦ـ الأحلام الجنسية Sexual dreams :

الحلم الجنسى يقصد به ذلك الحلم الذى يحتوى مضمونه على رغبة جنسية يتحقق لها إشباع هلوسى تفعيلى يؤدى بالحالم الى ما يطلق عليه ظاهرة الاحتلام.

ولقد اهتم التحليل النفسى بظاهرة الأحلام وتفاعلاتها وأهدافها ووظيفتها، وكشف عن طبيعتها الرمزية، ويعتبر الحلم ذاته دليلا على وجود اللاشعور في أعماق الفرد. وللحلم جانب أو محتوى ظاهر هو تلك السلسلة من الصور الذهنية من الأحداث الواقعة في الحلم، ومستوى آخر كامن أو باطنى أو ضمنى مستتر هو معنى الحلم وما يرمز إليه. فالأفعى تشير الى العدو ، وصعود درج السلم يشير الى الرفعة والارتقاء والنجاح (طه، فرج عبد القادر وآخرون ١٩٩٣م، ص ٣٠٩).

ويصدق هذا أيضاً على أحلام اليقظة، ففى أحلام اليقظة يستسلم الفرد لتخييلات يرى فيها نفسه وهو يحقق آماله، ويشبع دوافعه، ويتخطى العقبات التى تحول دون ذلك. وهكذا يحلم الفقير بفوزه بجائزة مالية

ضخمة، ويتخيل نفسه وقد تسلمها ثم ذهب الى هنا وهناك لشراء ما يطمع فيه، وتحقيق ما يريده من هذا المال، كما يحلم الموتور من خصم بفوزه عليه وبمصائب كبيرة تلحق به وهكذا (طه، فرج عبد القادر وآخرون ١٩٩٣م، ص ٣٠٨).

مقارنة بين أحلام النوم وأحلام اليقظة :

إلا أنه في أحلام النوم غالبا ما تكون الرغبات مموهة مخفاة، بحيث لا يعي الحالم نفسه دوفعها في كثير من الحالات، وذلك لأن العمليات والحيل والأساليب التى يلجأ إليها النائم في صناعة حلمه وإخراجه لكى يشبع دوافعه تكون عمليات وحيل وأساليب من طبيعة خاصة، تميز اللاشعور. فيها يستخدم من حيل ومنطق وأساليب تفكيره. ومن هنا فإن كثيراً من أحلام النوم تبدو ممسوخة خلواً من المعنى والمنطق، شبيهة بتفكير المجانين ومنطقهم، على عكس أحلام اليقظة. ويرجع ذلك الى أن حالة النوم تعطى فرصة أكبر للاشعور حتى يعبر عن نفسه، ويشبع دوافعه ويخرج مكنوناته، حيث تخف حدة المقاومة التى تفرضها الشخصية على لاشعورها وتترخى بعض الشيء من سطوتها عليه طالما أن الإنسان نائم ولا يخشى أن يقوم بسلوك واقعى يضر به ذاته أو بالآخرين. ولهذا فإن ذاكرتنا في النوم أقوى من ذاكرتنا في اليقظة. ففي أحلام النوم تتذكر بوضوح كثيراً من الأحداث والشخصيات المنسية في حالة اليقظة والحقيقة أن الأحلام تجد الفرصة أمامها سانحة للخروج إلى العلن، وذلك في غيبة الرقيب الداخلى اللاشعورى الذى يمنع ظهورها بصورة سافرة. وكنا في أحلام اليقظة أقرب الى الشعور بينما نكون في أحلام النوم أقرب الى اللاشعور، فإن أحلام اليقظة تكون أكثر استخداماً لأساليب التفكير الشعورى ومنطقنا العقلانى المعتاد وأكثر اشباعاً للدوافع الشعورية، بينما تكون الأحلام في النوم أكثر استخداماً لأساليب التفكير اللاشعورى ومنطقه المغرب، وأكثر إشباعاً بالمثل لدوافعه. ومن هنا يصعب تفسير أحلام النوم لأننا غير متعودين على أساليب التفكير اللاشعورى الممسوخ ومنطقه المغرب. كما أننا أقل معرفة بدوافعه داخلنا في نفس الوقت. وينجح التحليل النفسي، وحده، بمعونة مستدعيات صاحب الحلم في تفسير أحلام النوم المغربة وكشف ما يتحقق فيها من دوافع تشبعها هذه الأحلام، خاصة إذا كانت دوافع لا شعورية وعلينا أن نؤكد هنا أن أحلام النوم لا تنتج كلها عن دوافع لا شعورية بل إننا نجد فيها الكثير من الدوافع الشعورية التى يعرفها الحالم جيداً ويحس بها ويعيها. الأمر الذى يكشف عن الطبيعة الرمزية للأحلام، وعن قدرتها على الاختفاء والتقنع وأنها في الجملة ظاهرة بالغة التعقيد، تتدخل فيها كثير من العوامل الشعورية واللاشعورية، وكذلك العوامل الفيزيقية أو الجسمية المصاحبة للنائم. (طه، فرج عبد القادر، وآخرون ١٩٩٣م، ص ٣٠٩).

تفسير الأحلام : Dream interpretation :

١ـ تفسير الحلم أو تأويله :

يتم بتحليل الحلم، وترجمة المحتوى الباطن الى محتوى ظاهر، والعمليات المكثفة الى اللغة اليومية المنطقية. ومن أكبر إسهامات فرويد كتاب «تفسير الأحلام» (١٨٩٩) الذى يطرح فيه نظريته في الحلم وتفسيره (الحفنى، عبد المنعم ١٩٩٤م، ص ٢٣٩)

٢ـ تفسير الأحلام عند فرويد :

يرتبط بنظرية فرويد في تفسير الأحلام بنظريته عن الشخصية، فالمهمة التى يأخذها المفسر أو المحلل على عاتقه تنحصر بشرح المحتوى الظاهر للحلم على أساس محتواه الكامن. والمحتوى الظاهر هو الحلم كما «يبصره» المرء وربما كما يدونه. أما الحلم الكامن فهو الأفكار والرغبات والتمنيات كما يعبر عنها في الحلم بعد نزع أقنعتها وتلبساتها التنكرية. وهناك طريقتان استخدمها فرويد في عملية التفسير والتحليل. التفسير الرمزى للأشياء الواردة في الحلم وطريقة التداعى النفسى (رزوق، أسعد ١٩٧٧م، ص ٨١ : ٨٢).

خاتمة :

وفيما يتعلق بالأحلام التنبؤية والتى يراها الحالم في منامه ثم تتحقق في عالم الواقع والحقيقة، فهذه مسألة مازالت تستعصى على العلم الحديث، وكذلك فإن القول بأن الأحلام إن هى إلا رغبات وحاجات يرغب الإنسان في تحقيقها في عالم الواقع، ولكن كيف يفسر الإنسان وقوع الأذى بشخصه أو موت أو إيذاء شخص عزيز عليه؟ هل يسعى الإنسان لتحقيق ذلك وفيما يتعلق بالطبيعة الرمزية للأحلام حيث إنها لا تظهر في الحلم بصورة علنية سافرة وإنما بصورة رمزية، نقول إن هذه الرموز ليست عامة، ولكن لكل ثقافة رموزها بل إن للفرد نفسه رموزه الخاصة، فهناك من يرمز لديه تناول الطعام الشهى بالنصر والحصول على المال وتناول الأشياء سيئة المذاق بحدوث ما يعكر الصفو، وهكذا.[*]

(*) المنهل :

نلحظ أن كثيراً ممن يكتبون عن الأحلام يحصرونها في جانب المعطيات المادية لها، وتعلقاتها الدنيوية، ولا نصيب في دراساتهم تلك للجانب الروحي في الاحلام أى معطياتها وتعلقاتها الروحية سمواً وارتقاء بها الى قدسها الأعلى.

وحسبنا في ذلك أن مرجع اكثر الدارسين ما كتبه فرويد، ومن نقل عنه من الدارسين، أوروبيين وعرب..

النفس المؤمنة لها تطلعاتها الروحية، وهي دائمة الرجاء والأمل في الله سبحانه وتعالى أن يكرمها بأغلى ما تمنى وتحب وهي الجنة..

وتحقيقا لهذا فإن من المؤمنين من يرى الرؤية في منامه ثم يصبح ليلمسها حقيقة ماثلة بين عينية.. والمؤمن (يرى أو يُرى له)..

وذلك الصحابي الذى سأله سيدنا رسول الله [صلى الله عليه وسلم] : كيف أصبحت؟ قال أصبحت مؤمناً حقا.. قال: لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: كأني أرى أهل الجنة يتزاورون في الجنة وأهل النار يعذبون في النار.. قال: عرفت فالزم.. هذه رؤيا.. لكنها رؤيا روحية.. إن قصها على أصحاب التفسير المادي، لا شك كنا سنجد لها مجموعة من التفسيرات المتغايرة.. ورؤيا ذلك الصحابى التى نفذها سيدنا أبى بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.. وهى أول رؤيا تنفذ وتأخذ حكماً شرعياً.

وبعض العلماء فرّق بين (الحلم) و(الرؤيا)..

ويقال ان الحلم من الشيطان والرؤيا من الرحمن.. على كل حال: نأمل ان نجد من أصحاب التخصص أن يحدثونا عن هذا الجانب الروحي مما يحدث للمرء في منامه، سواءاً أكان (حلماً).. أم كان (رؤيا).



دائرة معارف القرن العشرين

تأليف العلامة محمد فريد وجدي

نشأ محمد فريد وجدى نشأة عصامية في تعلمه، حيث ودّع المدرسة التحضيرية ليتلقى علوم العصر بمفرده، وكانت اللغة الفرنسية قد دانت له قراءة وكتابة، فجعلها نافذته الى الاطلاع على العلوم الحديثه، ووفقه الله سبحانه وتعالى الى دوائر المعارف العالمية التى ترجمت إليها، فكانت مادة كبرى لتحصيله، وقد وافته بكل ما يطلب في ميادين العلوم المختلفة مما لم يوجد له نظير في المؤلفات العربية، وليعلم القارىء أن ذلك كان في نهاية القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين، حين لم تكن لدينا كليات جامعية تصدر مؤلفات عن العلوم المعاصرة، ولم يكن لدينا أساتذة يشرحون مسائل الطبيعة والفلسفة وعلوم التربية والاقتصاد والسياسة، بل كانت المطبعة لا تُصدر غير كتب التراث وما يدور حوله من مقتبسات وتعليقات، وقد وُجد من المترجمين أمثال محمد مسعود وأحمد فتحى زغلول، ولكن عملهما في هذا النطاق لم يتجاوز الفصول الاجتماعية والسياسية وحدها، كما انتشرت مترجمات القصص الأوربية في الصحف على نحو سيء الاختيار في أكثره، إذ كان المراد تسلية القارىء لا إمتاعه بضرب من الفن الأدبى يريه كيف تُشرّح العواطف، وتوصف الأحاسيس وتكشف السرائر الدفينة للشخصيات مع شرح الملابسات والأسباب.


محمد فريد وجدى

لذلك رأى فريد وجدى نفسه مضطرا الى استذكار معلومات الدوائر العلمية المهمة وكأنه يستعد إلى أداء امتحان فيما يُحَصّل، وكانت طريقته أن يلخص هذه المعلومات في جزازات مختلفة مع تفرع علومها، واختلاف موادها، ليرجع إليها موجزة ملخصة بعد أن قرأها في أمهاتها مسهبة، ونظر فوجد لديه من هذه الجزازات المتناثرة ما يملأ مجلدا ضخما، ففكر في بنى وطنه، وقال في نفسه إذا كان الله عز وجل قد رزقنى القدرة على شراء الدوائر العلمية الأدبية ثم على قراءتها واستيعابها، والعمل على تلخيصها في هذا الكم الهائل من الأوراق فلماذا لا أتقدم بها للقراء ليجدوا فيها ما أجد من ألوان المعرفة الغائبة، والدراية القاصية عن متناول أيديهم، ومع أنه كان مشتغلا بأبحاثه الكثيرة الخاصة بتوضيح مقاصد الإسلام، ورد



أ. د. محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر - مصر

الشبهات الظالمة التى الصقت به، فقد كان بجانب ذلك يرى من حق أبناء أمته عليه أن يصدر لهم ما جمعه من هذه الدوائر في معجم علمى سماه (كنز العلوم واللغة) وقد انتهى من طبعه سنة ١٩٠٥م ولم يُرد جوار ما ذخر به من مسائل العلوم المعاصرة أن يُخليه مما يدل على الكمال العقلى والإبداع العلمى مقتبسا من أقوال الأساطين الكبار ما يدل على طموحهم الإنسانى الرفيع، كما راعى الحالة المتواضعة للعلم في مصر، فضم الى هذا الكنز ما كان القارىء مفتقرا إليه من العلوم الطبية والصحية والفوائد المنزلية وقال عنه في صدر المقدمة إنه: «دائرة معارف عامة تحتوى على فصيح اللغة العربية، وخلاصات العلوم العقلية والنقلية والطبيعية والتاريخية والعمرانية، وتراجم المشاهير، وفيها من الفوائد الطبية والعلاجية، والوسائل الحيوية ما يحتاج إليه الإنسان في سائر أحواله المعيشية».

وواضح مما تقدم أن هذا العمل يحسب للرجل في مضمار الإصلاح الاجتماعى قبل أن يحسب له في مضمار البحث العلمي، لأنه رأى حالة القارىء المصرى بخاصة والقارىء العربى بعامة مجدبة فقيرة مما يساعده على إصلاح عيشه، وتنظيم حياته، وعلاج جسمه في ضوء من العلم الصحيح، فحاول أن يضيء مصباحاً يأتلق في سواد هذا الليل الدامس، وليست الوطنية الصحيحة هى الكتابة في مسائل السياسة وحدها، كما فهم أكثر الناس ويفهمون، ولكن الوطنية الصحيحة هى خدمة الأمة في شتى ميادين الحياة، خدمة نافعة تيسر على المواطن أمور معيشته. وتريه أقرب السبل الى إحاطة نفسه من شرور الأمراض، وآفات الجهالة، وضيق الأفق العلمى، والذين يكافحون في هذا المضمار أبطال حقيقيون، وهذا ما فهمه الشاب الناهض حين قرأ واستوعب، ثم لخص وأوجز، ثم جمع ونشر، فأفاد الناس فائدة كبرى، دون حرص على استهواء الغرائز في قصة خليعة أو ترجمة مريضة لفنان شاذ!.

ثم تقلبت الأيام بالرجل، وخاض بحار الصحافة المائجة بأهوالها وأعبائها، حين أصدر جريدة الدستور على نحو ما أشرنا من قبل، حتى إذا انتهت خاتمة الدستور الى نهايتها المتوقعة، رأى أن ميدان الإصلاح الحقيقى قد اتسع أمامه في ضرورة تأليف دائرة معارف عامة تشمل ما جد بعد عصور الازدهار العربى من تقدم فكرى في دنيا العلم والفلسفة والأدب والاكتشافات الحديثة، وأن ما سبق أن نشره في مجلد (كنز العلوم واللغة) هو بذرة ضئيلة لم يتسن لها أن تنمو وتزهر وتورق، وعليه أن يعجل نماءها باصدار موسوعة شافية وافية يسميها (دائرة معارف القرن العشرين) وهو عمل خارق لا يكاد ينهض به فرد واحد، ولكن الإرادة القوية، والعزيمة الجبارة، هونتا كل صعب، فخلع عنه أوهام التردد، واندفع الى المحيط الزاخر عابراً أمواجه العلمية المتلاطمة مدى ثمانى سنوات متصلة حتى أخرج للناس دائرة معارف راقية في عشر مجلدات وفي ما يقرب من تسعة آلاف من الصفحات، لم يخل منها حرف واحد من فائدة محققة. وقد تم ذلك ما بين سنة ١٩١٠، وسنة ١٩١٨م، فصدرت الموسوعة الحافلة، ولعل مقدمة الجزء الأول منها تكفى لإيضاح منهجها الرائد، حيث قال الأستاذ محمد فريد وجدى[١]، بعد حمد الله والصلاة على نبيه: «فقد وضعنا كتابنا (كنز العلوم واللغة) قبل خمس سنوات، وكان غرضنا الأول منه، أن نحصر معلومات البشر كلها في دائرة واحدة، ليلم بها المطالع إلماما جمليا فيستفيد منها لعقله وروحه وجسده قدر ما تسمح به الحال، فجمعنا بين اللغة والعلوم النقلية والعقلية والطبيعية على اختلاف أصولها، وفروعها في مجال واحد، مرتبة ترتيب القاموس لتسهل مراجعتها على الطالب، وقد لقى عملنا هذا غاية ما يتاح لمثله من

الإقبال والتقدير سواء من جانب الأمة، أو من جانب الهيئات الرسمية، فكما تسابق الناس لاقتنائه؛ أسرعت نظارة المعارف، فاعتمده مجلسها العلمي رسميا، وتلاه الأزهر العامر فقرره لمكتباته، فكانت هذه الشهادة المزدوجة أحسن مكافأة للمؤلف بعد جهاده الطويل وسهره المتواصل.

ولكنا اليوم وقد آنسنا من وقتنا فراغا، ذكرنا حاجة الأمة الى دائرة معارف، أغزر مادة وأجمع فوائد، فإن الذى كان يكفيه بالأمس أن يقرأ في مادة من المواد العلمية خلاصة موجزة أصبح لا يقنع إلا ببحث مستفيض، وهو مسوق الى ذلك بعاملين، عامل الشهوة العلمية، وعامل الحاجة الى استكمال أسباب الحياة المدنية، فللطالب وللمعلم وللطبيب وللكاتب ولصاحب الأسرة حاجات متنوعة من اللغة والمذكرات والإحصاءات والأصول والفوائد يحب كل منهم أن يجدها دون إضاعة للوقت في بحث وتنقيب، لأن الوقت أصبح لدينا كما لدى غيرنا من ذهب، ولكن من أين لهم هذا إلا بدائرة علوم مستكملة لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها؟، ذكرنا هذه الحاجة العظمى وكنا في الأربع السنين الماضية دائبين على جمع ما فاتنا جمعه في (كنز العلوم واللغة) فأجمعنا على وضع (دائرة معارف) على أسلوب يناسب الحاجة العصرية، ليكون بإزاء سابقه كدائرة معارف لارس بجانب قاموسه الصغير، فعولنا أن نتوسع في قسم اللغة توسعا لا يدع حاجة في نفس، وأن نتبسط في القسم العلمى تبسطا يبلغ بالطالب غاية ما يرمى إليه، جاعلين نصب أعيننا أن يكون الكتاب جامعاً بين الحاجة العقلية والحاجة المعيشية، فكما يحرص عليه العالم ليسيح منه في نظريات العلوم يحرص عليه الرجل العادى ليبحث فيه عن مسكنات آلامه، وصحة أهله وعياله، ووجوه السير في أعماله، وأمور دينه وكل ما يحتاج إليه في معاملاته أمام المحاكم والبوليس والبريد، والتلغراف والمجالس الحسبية والأوقاف مما لا سبيل الى الاطلاع عليه سواه.

فبدل أن نقتصر على بعض اللغة، نلم باللغة كلها، فلا ندع لمقتنيه حاجة لسواه، وبدل أن نكتفى من تاريخ أرسطو بعمودين كما فعلنا في كنز العلوم نأتى عليه في صفحتين، وبدل أن نلخص علم الطبيعة في صحيفة، نلخصه في خمس صفحات... الى آخر ما جاء في هذه المقدمة الكاشفة!.

وإضاءة لما في هذه الدائرة العظيمة من ذخائر علمية بالغة الأهمية، أشير الى مقال لي كتبته في الجزء الأول من كتاب (أهم مائة كتاب في مائة عام) حين طلبت منى إدارة الهلال أن أقوم بتعريف لدائرة المعارف الوجدية باعتبارها إحدى الظواهر العلمية الرائعة في هذا العصر، وقد نشر في المجلد الأول ص ١١٩ وما وليها من الصفحات، وقد قلتُ فيه:

«إذا كان من المستغرب الآن أن يقوم فرد واحد بتأليف دائرة للمعارف الإنسانية تقع في عشرة أجزاء كبار حيث يوجد المتخصصون في مختلف العلوم والفنون والآداب في كثرة كاثرة تتحدث عنها عشرات الكليات والمعاهد والأكاديميات، فليس من المستغرب في مطلع هذا القرن أن ينهض العلامة الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى وحده بعبء تنوء به العصبة أولو القوة إذ استشعر حاجة العالم العربى الى موسوعة تجمع معارف العصر، وتطلع ذات اليمين وذات الشمال، فلمس فراغا مخيفا في وسائل المعرفة للقارىء العربي، ولو أخذ يتعقب من يستطيع أن يشاركه في تحرير بعض الأبواب، لتعذر عليه أن يخرج جزءاً واحد من الأجزاء العشرة لوجود أكثر من مبرر للنكوص والتردد، ولكنه اصطحب عزيمة الأبطال من ذوى الهمم النادرة ليقوم وحده بهذا الجهد الجاهد دون ملل، فكان مثله مثل من يعمد الى جبل شاهق يسد آفاق الكون لينسفه نسفا بجهده الفردى، وليس عجيبا أن يفكر هذا التفكير، ولكن العجيب أن ينتقل هذا التفكير من حيز الخيال الى حيز الحقيقة، فلم تمر ثمان من السنوات حتى وجد القارىء العربى بين يديه موسوعة كبرى تجمع شتات المعارف، وقد سبقتها موسوعة للبستاني وولده لم تتم، ولكن موسوعة فريد وجدى كانت نظاماً آخر، إذ تفى بحاجة القارىء العربى المسلم في كل اتجاه يريد، وأعجب ما نعجب له أن يقوم ناقد فيقول إن عمل وجدى غير موضوعى، إذ كان الواجب أن يقوم به المتخصصون لا أن ينفرد به وحده حتى يأتى على

الوجه الأكمل، ثم يضرب المثل بدوائر المعارف الغربية التى يعكف على إنتاجها أساتذة البحوث المتخصصة في تحديد صارم لا يعرف الشمول، ومثل هذا الناقد مثل من يأتي إلى طبيب واحد في قرية منعزلة، ليقول له لا تبذل جهدا ما في معالجة عشرات المرضى الذين يتساقطون من حولك، لأنك لا تحسن غير معالجة مرض واحد فحسب، ولك أن تجهل جميع معلوماتك العامة لأننا في زمن التخصص! ولتدع المريض يموت دون إنقاذ!! هذا النوع من النقاد لا يعترف بظروف الزمان والمكان وبدل أن يقول إن جهداً جبارا من جهود المعرفة الإنسانية قام به عالم واحد يجب أن يستقبل بالتقدير والإعجاب، راح يُهَوّن من قيمة عمل ضخم، لو بدأنا فى مثله الآن لانتظرنا عشرات السنوات حتى نظفر بشىء ذى بال، وإنى لأتساءل: لماذا لا نبدأ الآن والزمن غير الزمن، والحال غير الحال؟.

ونستمر في دائرة التعجب لنذكر أن هذا العمل الرائع في حينه لم يقابل بما يجب من التنويه الحافل في صحف يومية تتقاذف بالشتائم الساقطة ملء صفحاتها المسئومة، وفي مجلات أسبوعية تقف في أمرها على التطرف والاستهواء، وإذا مكثت أقلام المشغولين بنفوسهم وأحزابهم عن تقدير هذا العمل الضخم فإن الجمهور قد تلقف هذه الموسوعة في إقبال نادر، إذ نفدت طبعتها الأولى سريعة وأعيدت الطبعة الثانية في زمن متعاقب لتجد الذيوع الكبير، ولكن صمت ذوى الأقلام عن الإشادة بهذا الجهد الحافل قد عبّر عنه الأستاذ الكبير داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام حيث أفرد الافتتاحية الصادرة بتاريخ ١٩٢٥/٤/٣م لتقدير هذا العمل، والثناء على هذه الموسوعة، وقال فيما قال: رجل واحد مفرد، يقوم بعمل جاد يسهر عليه الليالى، لا ليتلألأ على صدره نيشان، ولا لتدفع له رتبة أو يقام له حفل تكريم، والمسئولون مشغولون بكل شيء عن العلم والأدب، لا يعرفون عن المؤلف إلا أنه أديب كاتب، على حين نجد المنافق والدساس والمداجى يقدم على صاحب الدائرة في كل شيء، يقدم عليه بالمال ينصبّ له انصبابا، وبالمقام يرتفع ويعلو، وبالتقديم الذى لا ينتهى عند حد، أما وجدى فإنه في عزلة، وإنه مجهول.

هذا ما قاله داود بركات، ويلمس به القارىء حسرة على النبوغ المهدر، والجهد المضاع. اهـ

ومرت الأيام، ووجد من النقاد بعد سنوات من تطاولوا الى نقد دائرة المعارف، ومنهم من تنزه عن الغرض في نقده، ومن حاول أن يكون أستاذاً يوجه من لا يستطيع أن يدرك شيئا من قوله، فضلا عن نقده، والليالى تلد العجائب، ولنترك هؤلاء الى ناقد أديب، وكاتب لامع هو الدكتور محمد حسين هيكل صاحب المؤلفات الخالدة في الأدب والتاريخ والسياسة فقد كتب في تحليل الدائرة بحثاً علميا نشره في جريدة السياسة ثم جمعه في كتابه المعروف بأوقات الفراغ، وقد أثنى عليها بدءا ثم استشهد ببعض نماذجها فقال[٢]:

«وما نشك في أن عددا كبيرا من القراء يجد في مراجعة هذا الكتاب فائدة له غير قليلة، فأنت إذا رجعت في الكتاب الى كلمة من الكلمات رأيت تفسيرها اللغوى ثم انتقلت في أحيان كثيرة الى بحث طويل ينطوى تحت هذه الكلمة من تاريخ أو فلسفة، خذ مثلا لفظ مصر، لقد كتب المؤلف عنها في مجلده التاسع ٢٢٦ صفحة (من ص ١٥ الى ص ٢٤١)، جمع فيها تاريخ مصر القديم والحديث، وتكلم عن تقسيم البلاد وعن التعليم فيها، وعن قوانينها النظامية، وعن دينها العام.. ثم خذ كلمة (إله) تجد بحثها في الجزء الأول من ص ٤٨١ الى ص ٥٦٢، وتجد المؤلف يبدأ الكلام عن الله سبحانه وتعالى، بقوله (العقيدة بوجود الخالق فطرة فطرت عليها النفس الإنسانية، أو هي في مرتبة العلوم الضرورية، التى تحصل للإنسان كثمرة من ثمرات مواهبه العقلية، ثم يجيء بكلمات لكبار الفلاسفة عن إثبات وجود الله، وفي هذه الكلمات والبراهين شيء يتمتع به الذهن، وقد ترى في هذه المادة غير البحث في الإله، وأدلة وجوده، فلتات عن العلم والمادة وغيرهما، ثم ينقلك المؤلف الى رأيه الخاص في المسألة، وعقيدته بالله (عقيدة في درجة المحسوس بلا دليل) وكذلك بحثه في المذهب المادى، والمذهب الروحى، ثم راجع كلمة (موت) في الجزء التاسع تراها قد استغرقت منه ٢٦ صفحة بينها خمس صفحات من رسالة لابن مسكويه في علاج الخوف من الموت، وفيها ثمانى عشر صفحة

عما يجب للمسلم بعد الوفاة من جنازه وصلاة ودفن.

وأنت كلما رجعت في دائرة المعارف الى شيء من الشئون الروحية، فأنت واجد دائما بحثاً، كما أنت واجد رأيا خاصا للمؤلف منته منه الى نتيجة معينة، كذلك كلما رجعت الى شاعر من الشعراء أو كاتب من الكتاب، أو مؤلف من مؤلفيهم في الفقه فأنت واجد شيئا من تاريخ هذا الشاعر أو الكاتب أو الفقيه، وغير قليل من شعره وما كتب، وللمدن والبلاد العربية حظ عظيم من عناية المؤلف فالأندلس وبغداد ومكة المكرمة كانت مواضع بحثه وان كان لمكة المكرمة من هذه العناية القسط الأوفر، ولكن بغداد لم تحظ منه بأكثر من صفحة واحدة.

هذا بعض ما قاله الكاتب الكبير محمد حسين هيكل، ومنه نعرف استيعاب الباحث لكثير مما يعالج من الشئون كما نعرف أنه يحرص على إبداء رأيه الخاص في كثير مما يتعرض له من المسائل، فليس الرجل جامعاً فحسب، ولكنه ناقد وموجه، وشارح! ولعلنا بعد ذلك نرد في حجة واضحة على من يقولون إن الأستاذ غير أزهرى النشأة فهو لا يتعمق البحوث الدينية كما حاول السيد محمد رشيد رضا أن يقرر ذلك في لحظة من لحظات غضبه المتسرع، لأن الدائرة ببحوثها الإسلامية المستفيضة تؤكد رسوخ الأستاذ في الأصول الأولى للتشريع، وقد كتب عن القرآن الكريم والحديث وعلم الكلام والتفسير ما لم يكتبه بعض المتخصصين الذين يكتفون بالمناصب والألقاب، وبأيسر جهد نستطيع أن نستخلص من دائرة المعارف، كتاباً في الفقه الاسلامى وكتاباً في قصص الأنبياء، وكتاباً عن أعلام الإسلام، وكتابا عن عقائد الإسلام فيما يسمى بعلم الكلام! فهل كتب الذين يرمونه بعدم الاطلاع على كتب المتأخرين شيئا مما كتبه في علم واحد! لقد ذكر الدكتور هيكل أن الأستاذ وجدى كتب في مادة (مصر) ٢٢٦ صفحة، أيدرى القارىء كيف جمعت هذه الصفحات، وكيف قرأ المؤلف العلامة عشرات الكتب التاريخية فى شتى العصور القديمة والحديثة ليكتب هذا الجزء الرائع من الكتاب، وليقدمه موجزا خالصا من اللجاجة والفضول، وكذلك نضرب المثل باتجاه مباعد في ميدان البحث الفلسفي، فنذكر مثلا ما كتبه عن الفيلسوف الإغريقى «إفلاطون» في الجزء الأول فقد قدم في عدة صفحات متوالية ما يكفى القارىء خوض ركام هائل مما كتب عن إفلاطون غامضا مبهما لا ينتهى الى وضوح! أما كفاه جدارة وألمعية أنه جعل من آراء الفيلسوف الغامضة متسعاً للإبانة الشافية، وأنه أنزل فلسفته من عليائها لتخاطب قارئى الدائرة على اختلاف مستوياتهم العقلية.

وأرجع الى النقد الصريح الذى وجهه الدكتور محمد حسين هيكل الى الدائرة حين أكد أن الدائرة العلمية الصحيحة لا يقوم بها رجل واحد مهما كانت كفايته، وإنما الأصل أن يعهد لجماعة من الباحثين بكتابة المواد المختلفة، كل في ميدان تخصصه، وقد عرضت الى هذا النقد في صدر المقال، وأوضحت كيف أن الأستاذ رأى الميدان خاليا فاقتحمه وحده،وبذل فيه جهد المستشهد، وما كان له أن يلام.

وقد اتجه نقد الدائرة الى أمور ذكرتُها في مقالى عنها بكتاب (أهم مائه كتاب في مائة عام) ولا أترك هذا المجال دون أن أشير الى خلاصة ما قيل منقولا عما كتبت.

لقد ازدحمت الدائرة بمختلف المواد العلمية، فكان من المشاهد أن الكاتب يستوفى الكلام مبسوطا في مادة، وموجزا في مادة أخرى، وفق ما لديه من المراجع القريبة من متناوله، وهذا النقد ليس خاصاً به وحده، فكل باحث يكتب موضوعه وفق ما يتيسر له من المصادر، وفي دائرة المعارف الإسلامية التى كتبها أعلام متخصصون من أساتذة الاستشراق، يرى القارىء هذا التردد بين الإيجاز والإطناب مع أن الباحثين مختلفون ويكوّنون لجانا ممتدة الى شتى الدول من فرنسية وألمانية وهولندية وانجليزية وأسبانية وغيرها، ولا تعيب الباحث أن يفيض في بحوث درسها حقّ دراستها وأصبحت لديه ذات منادح واسعة الأنحاء، كمسائل المادة والروح والألوهية والقرآن الكريم والوحى والنبوة ومذاهب التطور والارتقاء، والأسطورة الدروونية، والتنويم المغناطيسى، فأكثر هذه المباحث تكاد تكون فصولا مستقلة يكتبها باحث متخصص،، لأن العلامة فريد وجدى قد اهتم بها منذ أخذ يقرأ ويفهم ويكتب حتى صارت جزءا من مقوماته

الفكرية، واذا كانت معاجم أوربا هى مرجعه المباشر في قضايا العلم الحديث، فإن المؤلفات المعاصرة في اللغة العربية للأعلام الكبار من أمثال محمد عبده وعلى مبارك ورجال البعثات الأوربية من لدن محمد على الى عهد المؤلف كانت موضع التقائه العلمي، حيث ترددت أسماء محمد حسين الرشيدى، ومحمود عمر الباجورى، ومحمد فهمى حسين ومحمد كامل الكفراوى، وعيسى حمدى، ومحمود صدقى، ومحمد لبيب البتانونى، وأحمد عيسى، وعلى مراد الكيماوى، وحسين الهراوى حتى جاز للدكتور محمد طه الحاجرى أن يقول إن هذه الأسماء المعاصرة تبين أن وجدى لم ينفرد بتأليف الدائرة وحده، والأشبه أن يقال إنه انفرد بوضعها، وهذا ما أخالف فيه الدكتور محمد طه الحاجرى لأن النقل عن هؤلاء المعاصرين في كتبهم الذائعة، لا يختلف عن النقل عن القدماء من أمثال الغزالى والرازى والفارابى وابن سينا وابن مسكويه وابن حزم، فكما رجع العلامة فريد وجدى الى المراجع القديمة رجع الى المراجع الحديثة سواء بسواء، وهو هو الناقل، والملخص والمستوعب والمناقش، ولو أنه كلّف بعض معاصريه بكتابة بعض المواد، لقلنا إنه لم ينفرد بالبحث، ولكنه طالع ونقب واختار ثم لخص ما رآه أهلا للتلخيص، فكيف يقال إنه لم ينفرد لأنه رجع الى المعاصرين! ولعل مما يثبت جدارة هذه الموسوعة أن الذين انتقدوها في فصول مسهبة، قد جعلوها من مصادرهم العلمية كالدكتور محمد حسين هيكل حيث كانت من مراجعه الموثوقة فيما ألفه من تاريخ العصر الاسلامى الأول! وغير الدكتور هيكل من زعماء الفكر الحديث كثير.

وقد ظلت الحاجة ماسة الى دائرة معارف القرن العشرين، فطبعت للمرة الثالثة سنة ١٩٧١م بدار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت، وقد ظهرت في الثلاثينيات وما بعدها من هذا القرن ترجمة عربية لدائرة المعارف الإسلامية التى كتبها أساتذة الاستشراق، قام بها نخبة من شباب كلية الآداب المصرية، فلم تستطع الموسوعة الأوربية أن تحجب بريق الموسوعة الوجدية، إذ أن أكثر من كتبوا بها من المستشرقين، قد صدروا عن أوهامهم الخاصة بالإسلام، ولم يرتفعوا الى مستوى النظر المجرد، مما اضطر القائمين على نشر هذه الدائرة أن يشفعوا بعض المواد بتعليقات لكبار العلماء في مصر، ومن هؤلاء الأستاذ محمد فريد وجدى نفسه إذ أبلى بلاء حسنا في كشف كثير من أخطاء هذه الدائرة الأوربية في الصحف والمجلات عقب صدور أجزائها، وقد قال بصدد بعض هذه الأخطاء «بقيت لنا كلمة نوجهها لحضرات الأفاضل الذين يترجمون هذه الدائرة، هى أنها تشمل على الكثير من التهم الباطلة على الإسلام ورسوله، وهم يعلمون أنه لا يدفع بعض هؤلاء المستشرقين الى التورط في هذه الخطة المريبة الا ما يحملونه في صدورهم من البغضاء لهذا الدين.. وما قاله الأستاذ وجدى قاله الأستاذ محمد كرد على وأحمد زكى باشا ومحمد أحمد عرفه وعباس محمود العقاد ويوسف الدجوى.

ولازلت أذكر مما قاله الأستاذ محمد كرد على «إن الدائرة قد احتفلت بترجمة الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى، وتحدثت عنه مقدرة لا لشيء إلا لنزعته الإلحادية مع أنها لم تذكر شيئا عن أحمد شوقى ومحمود سامى البارودى واسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم، وهم من أعلام الشعر، وهذا المقال وحده يغنى عن كل تعليق»[٤].

هذا وقد كنت أرجو من الأستاذ وجدى أن يفرد ما كتبه بالدائرة من فصول إسلامية ممتازة في كتب مستقلة، لتكون أيسر تناولا، وأسهل تداولا بين أيدى القارئين، حيث لا يستطيع أكثرهم أن يجمعوا المجلدات العشرة في مكاتبهم الخاصة، لأن هذه البحوث الجيدة باستقلالها الفكرى، وإقناعها المنطقى جديرة بأن تكون مصدر إشعاع منير.

الهوامش :

(١) مقدمة الجزء الأول من الموسوعة ص (٣) الطبعة الثانية.

(٢) في أوقات الفراغ ص ١٦٣ ، ط ثالثة.

(٣) مجلة نور الاسلام ، ربيع الأول ١٣٥٢هـ ، ص ٢١٢.

(٤) الثقافة عدد ١٨ سنة ١٩٣٩م.

نفحات من حطين

«ليطمئن قلب السيد الوالد٠٠ فإن كل شيء على ما يرام بفضل الله تعالى»، ووافقت عبارة «الأفضل» رضى عميق الأثر في نفس والده، فليس بالأمر اليسير أن يكون كل شيء على ما يرام٠٠ وأما أن يحدث ذلك بفضل الله فهذا مما يمتلىء به قلبه يقينا وطمأنينة، ويكاد يلمسه في تحركاته جميعا.

إنه ليستحضر الآن - وهو يسيطر بطلائع جيوشه على سهول طبرية وبحيرتها بعد انتصاره الباهر على حاميتها من الإفرنج - سلسلة الأحداث العجيبة التى واجهها في جهاده الدائب، منذ أوفده بطل الإسلام العظيم، الشهيد نور الدين محمود زنكي، مع عمه أسد الدين شيركوه الى مصر قبل عشرين سنة، للمساعدة في رد جيوش الغزاة عنها٠٠ حتى هذه الساعة التى بات فيها المسؤول الوحيد عن قيادة المسيرة الإسلامية لحماية البقية الباقية خارج قبضة الصليبيين من أرض الإسلام، ولتجمع الطاقات الإسلامية الضائعة من أجل استرداد الأجزاء الغالية التى اغتصبها هؤلاء الغزاة، فأقاموا إماراتهم الخطرة من أقصى الموصل حتى ضفاف النيل٠

أجل ٠٠ إنه ليستحضر أحداث حياته أثناء هذه الغمرة من السنين، ويتفكر في ما أحاطته به عناية الله من الرعاية الخارقة، التى أنقذته من عشرات المؤامرات، وذللت له مئات العقبات، فلا يراوده أدنى شك في أن وراء هذه الرعاية الربانية حكمة بالغة لإرادة غالبة، تهيىء الأسباب لتنقذ به الإسلام من الأخطار التى تهدد وجوده٠٠ لقد ورث تركة الفاطميين، الذين دمروا بانحرافاتهم الدخيلة، وترفهم المفسد، وطغيانهم الرهيب، قدرة الملايين من سكان مصر على مقاومة الغارات الصليبية المتتالية، فكان عليه أن يعيد تنظيمها، ويرد إليها الثقة بنفسها والعدالة التى كادت تجرد من آثارها٠٠ وكذلك كان عليه - بعد مصرع عمه أسد الدين وأستاذه نور الدين - أن ينهض بالعبء الضخم في توحيد المناطق الإسلامية، التى جعلتها فرقة أمرائها وتشاحنهم على الصغائر فريسة مغرية لمطامع أعداء الإسلام، يحرشون بينهم، ويضربون بعضهم ببعض، ويعينون على بعض، ليقضوا في نهاية المطاف عليهم جميعا٠٠ ولكم لقي في معالجة هذه الأوضاع من مآس ومفاجآت توشك أن تطفىء كل أمل بالخلاص، لولا رحمة الله التى كانت تتجلى في أحلك لحظات الخطر فتبدد الظلام، وتفجر النور، وتسوقه إلى النجاح من حيث لا يحتسب ولا يتوقع!٠

لقد استعان خصوم الوحدة الإسلامية على صلاح الدين بكل الوسائل٠٠ حتى الصليبيين فحالفوهم عليه، وحتى الفداوية من الباطنيين، فتوسلوا بهم لاغتياله مقابل الأموال المغرية٠٠ ولو أتيح له أن ينسى كل ما عرض له من تلك الأموال لظل هذا الجرح الذى في خده الأيمن يذكره تلك الحادثة الغريبة التى واجهته أثناء حصاره حلبا قبل اثنتي عشرة سنة، يوم هاجمه أحد هؤلاء الباطنيين

سميحة الصعبى

- دمشــق -

وهو بين أركان حربه وأبطال حرسه، فأهوى بسكينه على رأسه يطعنه دراكا، ولما حالت الخوذة دون عمل السكين ولم تنل منه سوى ذلك الجرح، دفع برأسه إلى الأرض محاولا ذبحه على مشهد من أولئك الذين أخذتهم دهشة المفاجأة ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظه فاستردوا وعيهم ومزقوا ذلك الغادر·· وما كادوا ينتهون منه حتى انقض على صلاح الدين رفيق آخر له، يريد تحقيق ما فات الأول، ولكنه لقي مصرعه أيضا·· وهكذا حدث لثالثهم ورابعهم حتى قضى على القتلة جميعهم بفضل الله، ولم يظفروا منه بغير ذلك الجرح، الذي يرده أبدا الى تذكر فضل الله عليه·

إنه ليفكر في تلك الأحداث وعواقبها، وما قد حقق الله على يده أخيراً من توحيد تلك القرى المتدابرة بالحكمة والحزم والتوفيق غير العادي، فيزداد يقينا بأن الله لا يؤخر منيته إلا ليقضى به أمرا عظيما·· وهذا ما يرفع طاقته المعنوية الى مستواها الأسمى، ويضاعف من توجهه الروحي، حتى لا يرى سعادة إلا في طاعة الله والدعوة إليه، والاكباب على كتابه وحديث نبيه، حتى بين الصفين وهو يقارع العدو، ويقبل معانقة الموت!·· وها هو ذا الآن ·· إنما قدم بهذه الطلائع للوفاء بنذر قطعه على نفسه لله، أن يهب كل ما بقي من حياته لقتال أعداء الإسلام، وإنقاذ المسلمين، ولا سيما حجاجهم، من عدوان الصليبيين، وعلى رأسهم ذلك الأحمق الذي لم يف حتى الساعة بعهد، ولم يكف عن غدر··

لقد استيقظت أمراضه كلها أثناء وجوده في حران، وبلغت من الشدة حدا يئس من شفائه الأطباء والأحبة·· وحين عاوده بعض الوعي في اللحظات التي توهموها الأخيرة·· كان كل ما تحرك به لسانه دعاءه الحار إلى الله أن يستبقيه حتى يثأر لرسوله من أرياط ويسترد للمسلمين قبلتهم الأولى·

واستجاب الله ضراعة عبده، ورد إليه عافيته كأتم ما تكون، فراح يبث رسله في كل اتجاه يستنفر المجاهدين لموافاته الى هنا، حيث يتوقع الملحمة الحاسمة·

وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه صلاح الدين في طبرية، كان شديد القلق كثير التطلع إلى أنباء قائده حسام الدين لؤلؤ الذي وجهه على رأس قوة كبيرة لمنازلة مراكب المجرم أرياط، التي جهزها خصيصا لإيذاء الحجاج الوافدين إلى بيت الله الحرام عن طريق البحر الأحمر· وبوجه أخص جيوش ذلك الطاغية عن الوصول إلى مدينة رسول الله {صلى الله عليه وسلم}· وكان على صلاح الدين أن يحافظ على مواقعه بانتظار حشوده· وفي الوقت نفسه أن يحكم الحصار على السبل الموصلة إلى الكرك· مقر ذلك الغادر، ليحول بينه وبين جيشه الزاحف الى المدينة، فيقطع عنه النجدات والإمداد والأنباء· إلا أن قلقه لم يكن مستمرا· لأنه على ثقة من كفاية قائده، وأشد ما يكون ثقة برحمة الله التي لم تتخل عنه قط، ولن تتخلى عنه أبدا·· ولكم كان سروره كبيرا عندما جاءه صاحب الحمام المدرب يحمل إليه رسالة قائده الأرمني البطل، وفيها بشريات النصر الذي كاد يكون من الخوارق·

إنه يخبره باستيلائه على مراكب البرنس أرياط جميعها بما فيها ومن فيها·· وبالقضاء على حملته

البرية في مشارف تيماء بأيسر الجهود!. وما هي سوى أيام قلائل حتى وصلته تفاصيل ما أجملت الرسالة، وفيها ذلك النبأ المعجب المطرب، الذي يقص على صلاح الدين ما استعمله قائده من المكيدة الناجحة، بشرائه ولاء المرتدين من العرب، الذين كان جل اعتماد أرياط عليهم.. الأمر الذي أدى إلى بعثرة فلوله وفرارهم، ثم استسلامهم جميعا إليه بفضل الله.

ويخر المجاهد العظيم ساجدا لربه، ثم لم يكد يرفع رأسه حتى جاءته الأنباء بوصول سرايا المجاهدين الذين لم يكد ينقطع سيلهم بعد ذلك.. ووجد في تلاحق هذه المبشرات آيات بينات على رضوان الله وأخذه بناصر المسلمين، بعد أن عرفوا طريقهم الصحيح فثابوا إليه تائبين مستغفرين. وأصدر السلطان أمره إلى صفيِّه وكاتبه القاضي الفاضل ليرفع خلاصة وافية عن الأحداث إلى مقام أمير المؤمنين في بغداد، كي يكون على بينة من أحوال رعيته وجيوشه وما من الله عليهم، جريا على عادته من تقديم الطاعة والاحترام المستمرين الى ذلك الرمز الأعلى لوحدة المسلمين كلما وجد لذلك مناسبة.

ورأى أن يبدأ حملته الكبرى بضرب حصون الكرك، تلك الحصون الأشد خطرا على المسلمين. ورتب جيوشه، وعين لكل قائد مهمته ومجاله، ووزع فرق المنجنيقات على المواطن اللازمة.. ولكنه ما أن هم بتنفيذ مخططه حتى وافته الأخبار بتحشد القوى الصليبية كلها لمؤازرة البرنس الغدار. حتى قومص طرابلس، الذي كان أرغبهم عن قتال صلاح الدين، لم يسعه خلاف ملوكهم الآخرين، فمضى بجيشه صوب الكرك مكرها بتأثير أرباط وتحدياته المثيرة. وهكذا استتم زحف الستين ألفا من صليبيي عكا والناصرة وصور وجبيل والقدس وطرابلس وغيرها، وعلى رأس كل فريق أميره أو مليكه.. وقد تخلوا عن خلافاتهم المزمنة، وتعاهدوا على التعاون حتى سحق آخر مسلم في جيوش صلاح الدين.

وانطلقوا بخيلهم وخيلائهم يحلمون بمذبحة كالتي نفذوها في أكناف المسجد الأقصى، يوم قتلوا سبعين ألفا من الشيوخ والنساء والأطفال اللاجئين إليه.. حتى واجهوا عساكر المسلمين في السهول المجاورة لقرية حطين. ولم يمهلهم صلاح الدين ريثما يستردون أنفاسهم، بل سرعان ما أصدر أوامره بمصادمتهم فور ظهورهم.

وصدق المسلمون الحملة، وصدق الفرنجة الصدمة، حتى فرق الليل بين الفريقين، فانصرف كل منهما لتنظيم صفوفه، واتخاذ الأهبة للحملة القادمة، ولما أقبل صباح السبت التالي استؤنفت المعركة، ثم بلغت أشدها في ميعة الضحى حيث ارتفع بلاء العدو الى منتهاه، وذلك بما ألهم الله القيادة الإسلامية من حسن الاختيار لموضعها المناسب، فجعلت ظهور المجاهدين إلى الشرق، فما أن أخذت الشمس إلى الأعلى حتى شرعت تقذف بسهامها وسعيرها الى أعين العدو وأجسامهم، فاجتمع عليهم وهج الضوء ووقدة الشعاع ووقع النبال وتأجج الظمأ، ثم حرارة السلاح الذي أمسى أحد أعبائهم الكبرى.

ثم جاء أمر السلطان الحكيم لقاذفي اللهب، فراحوا يرسلون كرات النفط المشتعل على صفوفهم، فإذا العشب اليابس تحت أقدامهم يستحيل جحيما متصلا.. ومن ثم يأتي تحرك الهجوم الإسلامي الساحق، مصحوبا بعواصف التكبير المرعب.. وما هي إلا سويعات حتى أنزل الله النصر على أوليائه، وأحل الهزيمة الكاملة بأعدائه، فانهاروا كالبنيان الضخم ضربه الزلزال فأحاله أنقاضا.

وأسفرت الملحمة عن ثلاثين ألف قتيل من العدو، ومثلهم من الأسرى، وقد سوى القدر بين ملوكهم وسوقتهم، فقيدوا جميعهم كالأنعام المذللة، لم يفلت منهم إلا قومص طرابلس، الذي لم يكد يشاهد

بوادر المعركة حتى توقع وخيم العاقبة فانسحب جريحا مع جنوده طلبا للسلامة، واستولى الذعر على قلوب القوم، حتى رأى الفلاح المسلم يقود العشرات منهم بحبل خيمة، وكأنهم حزمة من الدمى يجرها طفل!.

وأقبل ذلك المساء الرائع يغمر سهول حطين بنفحات النسيم المنعش، في أعقاب يوم ملأه الحر والكر، وجيء بملوك العدو وأمرائه مكبلين بالأغلال الى سرادق البطل المؤمن، وقد حطم العطش والرعب وأشباح التوقعات الرهيبة نفوسهم ولكن روح الإسلام المهيمن على قلب بطله لم يسمح له بإبقائهم طويلا على هذه الحال، فإذا هو يأمر بفك قيودهم، ثم يبالغ في إكرامهم فيفسح لهم المقام، حتى يأخذ كل منهم منزلته اللائقة عن يمينه ويساره.. ويقبل الساقي على السلطان بالجلاب المثلوج فيأخذ منه حاجته، ثم يناوله كبير ملوكهم «كي» فيشرب، حتى إذا ارتوى ناول الوعاء أرياط الذي أكب عليه بلهفة البعير المهيوم. غير أن ذلك لم يرض صلاح الدين فقال للملك الأسير بلهجة لم تخل من الجفاء: إنما ناولتك ولم آذن لك أن تسقي هذا الذي لا عهد له عندي.

والتفت إلى أرياط يقول: كم حلفت وحنثت، وعاهدت ونكثت، وركبت رأسك حتى أكبك الله على منخريك!!. وحاول أرياط أن يدافع عن نفسه بما حسبه مقنعا فتمتم في جزع لم يستطع كتمانه: إنها السياسة.. وهذا سبيل كل حاكم تهمه مصلحته.

وانقض القائد الإسلامي غضبا من ذلك التعليل العليل، ثم أمر الترجمان أن يقول له: أما نحن المسلمين فلا نعرف هذه الحربائية، وإنما نحافظ على عهودنا حفاظنا على أعراضنا، تحقيقا لأمر الله الذي يقول لنا في كتابه الحكيم {وأوفوا بالعهد.. إن العهد كان مسئولا}.

وما لبث السلطان أن نهض الى القسم الداخلي من السرادق متوكئا على سيفه، وجيء إليه بالغادر الناكث، فأثبت في وجهه الكالح عينين تموجان بمثل الشرر، وفي صرامة مرعبة أمر الترجمان أن يبلغه حكمه الحاسم: إن جرائمك فوق العفو، وتطاولك على مقام رسول الله مهدر لدمك، ومع ذلك فإن لك فرصة أخيرة هي الإسلام.

وأطرق المجرم كأنه يقارن بين العرضين، ثم تكلم في مثل الهمس: ولكن لجوئي الى الإسلام سيجردني من كل كرامة في أعين قومي.

ورد صلاح الدين: أنا واثق أن غادرا مثلك لا يتسع عقله ولا قلبه، ولكني أردت تبرئة ذمتي أمام الله.. والآن.. قل لي: هل تذكر آخر جناياتك على المسلمين؟! هل تذكر موقفك من تلك القافلة الآمنة، إذ كنت تقتل نساءها ورجالها وأنت تصرخ فيهم: أين محمدكم؟. أدعوه لينصركم!!. أفرأيت كيف أنتصر الله لرسوله، وقيض لي وفاء نذري بالثأر من عدوه!!.

وبحركة خاطفة تدحرج رأس أرياط، ثم حمل إلى رفاقه، الذين سرت الرعدة في فرائصهم خشية على رؤوسهم. ولكن صلاح الدين لم يلبث أن عاد إليهم ليبدد خوفهم بهذه الكلمة المطمئنة: إن هذا تعرض لسب رسول الله، وتحدى دين الله، فنال جزاءه العادل.

وكتب السلطان إلى مقام الخلافة بنبأ النصر العظيم، الذي سرعان ما انتشر ذكره في كل بقعة من ديار الإسلام، فانتعشت القلوب، وتألقت المساجد بصلوات الشكر. ثم جاءت الزحوف تترى باتجاه الأرض المباركة، وعلى رأسهم الصفوة المختارة من كبار العلماء والصالحين، تريد أن تستدرك ما فاتها من شرف المشاركة في حطين، بالإسهام في تحرير القبلة الأولى من مخالب المعتدين الغاصبين!!.

أ .. ل .. ف .. ب .. ا .. ء

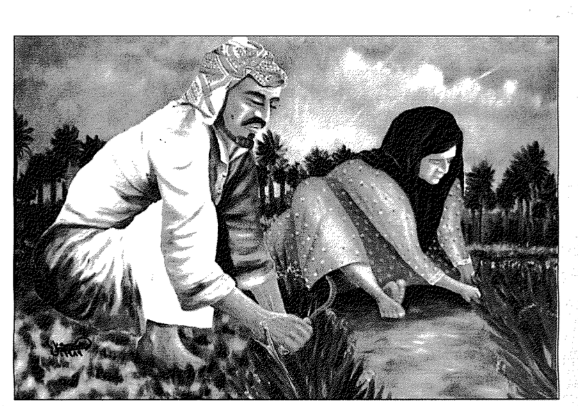
دخلت المدرسة أول مرة فرحة نشطة، وجدت نفسها في مكان واسع كبير - ليس مثل دارهم الضيقة، أخذت تجري - بحرية وانطلاق - وهي تصعد السلم مع بقية الأطفال ناحية فصل «أولى - أول» المدرسة حاجة كبيرة خالص .. وحلوة خالص. دخلت المعلمة وأغلقت الباب وقفت بجوار تربيزة مكسورة الأرجل.. يوجد خلف المعلمة مساحة سوداء كبيرة معلقة وسط الحائط، اسمها «السبورة».

بدأت المعلمة تتكلم كلاماً، لم تعرف له معنى واضحاً.. أخذت تتحدث عن التعليم.. واللغة.. والحروف، هناك أمر يشغلها، هو أن المعلمة تبدو أصغر من أمها وأجمل: شعرها مسترسل جميل، وجهها أبيض رائق، عيونها هادئة، قدها أقرب إلى الامتلاء، ليس جافاً مثل جسد أمها، تلبس فستاناً مثل خضرة الفجل الورور.

تعجبت لماذا ليست أمها عطيات في حلاوة «أبلة» أحلام؟!

تأملت المعلمة تلاميذها الصغار، وتوقفت نظراتها عند نادية.. هذه الطفلة الوديعة عمرها ست سنوات، لأن ملامحها تشع طهارة وبراءة، تعرف جيداً - لأنها من القرية ذاتها - إنها ابنة الرجل الفقير - على عليوة - العامل الزراعي، لكن وجهها فيه شيء، يجذبك إليه، ويحببك فيه.

سوف تعرف في المستقبل كل شيء عن الطفلة الوديعة وعن كل أطفال الفصل الخمسة والأربعين.



أ.د. طـه وادي

- مصر -

أفاقت نادية على صوت المعلمة بعد أن كتبت بعض الحروف بالطباشير الأبيض على السبورة السوداء:

أول درس، وأهم درس يا أطفال، هو أن نعرف كتابة الحروف ومعناها، فمن يعرف الأبجدية.. يعرف كل شيء.. وأى شيء.

لم تكن نادية قادرة على متابعة أفكار أبلة أحلام، لأنها كانت سعيدة بالتجربة الجديدة.

أول مرة تأتى الى المدرسة.. وترى الأبلة .. وأول يوم لا تذهب فيه مع أمها، لشراء الخضروات وغسلها في الترعة وبيعها أمام الدار.

كانت حزينة من أجل أبيها، الذى يعمل طوال النهار، ولا يعود إلا في الليل. ومن أجل أمها، التى تبيع الفجل والجرجير والكرات والبصل، ولا تقدر على بيع الفاكهة مثل البلح والتين والجوافة والبرتقال، أو على الأقل تبيع أصنافاً أفضل من الخضر، مثل الطماطم والخيار والبطاطس والكرنب.

أعادتها الى الفصل كلمات المعلمة، وهى تشير بمسطرة طويلة ناحية السبورة:

ألف .. باء .. تاء .. ثاء ..

الأطفال يرددون خلفها فرحين: ألف .. باء .. تاء .. ثاء ..

لم تكن تعرف معنى هذه الحروف، لكنها شعرت بلذة، وهى تردد الحروف مع زملائها.

قبل أن تذهب نادية الى المدرسة خرج أبوها مع الفجر، والدنيا مازالت مظلمة، الشغل صار قليلا في القرية، والرزق أصبح شحيحاً، ضاقت البلدة بمن حملت.

نصحه أحد عمال الترحيلة بأن يذهب مثله الى البندر، ويجلس أمام باب العفش عند محطة القطار، هناك يتجمع الشغيلة من بلاد بعيدة، يعملون في البناء.. أو تحميل العربات، أو تفريغ ما بها في مخازن التجار.. أو تنظيف بعض المبانى الحكومية.. أو قصور الأغنياء.. أو رصف الطرق (أكل العيش - يا ولد يا على - يحب الخفية)، وربنا يقول: اسع يا عبدي وأنا أسعى معك.

اكتشف - بعد التجربة - أن العمل في البندر أكثر والرزق أوسع، وأن أهل البندر فيهم خير كثير.

صحيح.. خيرُ الناس في المدن، وشرهم في القرى، عندما يكون هائماً في الطريق يجد من يعطيه شيئا لله.. خمسة قروش أو عشرة، وأحيانا ربع جنيه، بل ذات مرة أعطته سيدة كريمة جنيها كاملا، وفي بعض الأوقات يسمع أن بعض المحسنين يعملون «عقيقة» .. أو ليلة لأهل الله - خاصة في شهر رمضان.

حين يأكل الطعام الذى رزقه الله به، فإنه لا ينسى أسرته، لذلك يجلس القرفصاء، ويضع منديله المحلاوى في حجره، فيأكل لقمة، ويضع أخرى في المنديل، الى أن يزدحم الجوف الجائع، ويمتلىء المنديل الفارغ.. بعد ذلك يخرج شاكرا ربه، ماسحا شاربه بالدهن المتعلق في يده اليمنى.

في اللحظة التى كانت تردد فيها نادية ابنته الكبرى - العزيزة جداً عليه - وراء المعلمة: ألف .. باء .. تاء .. ثاء، جلس (على عليوة) قلقا على رصيف المحطة في انتظار أى عمل، لكن العمل كان عزيزاً في هذا اليوم.

في أول النهار جاء مقاول وصاح فيهم، وهو قاعد في مقدمة عربة نصف نقل: توجد طبلية خرسانة في عمارة بجوار المدرسة الصناعية، مطلوب عشرة

عمال.. مفهوم عشرة فقط، العربة معطلة اليوم، من يقدر على المشى إلى هناك، فليحضر عند المعلم (توكل).

أحس أن عظامه مفككة، فهو يعمل كل يوم، وقد حضر فجر اليوم محملا على عربة كارو، جاءت إلى المدينة لتنقل بضاعة لأحد التجار، لم يجد نفسه قادراً على المشى من المحطة الى المدرسة، أى من أول البلد إلى آخرها. لكى يقتل حدة الانتظار، أخرج رغيفاً من الخبز المتنوع الأشكال، الذى تبيع به زوجته الخضار، وحزمة فجل من الذى تنادى عليه عطيات بصوت مشروخ «لوبية يا فجل لوبية» تذكر أسرته، التى تغرب من أجلها أعز الأبناء لديه هي نادية، التى يشعر نحوها بحب شديد. هذه الفتاة فيها شبه كبير من أمه - رحمها الله - يغضب كثيراً من زوجته، إذا رآها تضربها أو تكلفها مالا تطيق.

مرت ساعة .. ساعتان .. أكثر .. أقل .. لا يدرى. لكن الذى بدا يدركه - بشكل مؤكد - أنه لن يحصل اليوم على شغل، أحس أنه ضائع في ميدان المحطة، كل الناس تذهب وتجيء.. وهو قاعد على الرصيف، أخذ ينقل بصره المحيَّر بين الداخلين الى المحطة والخارجين، وبين الراكبين في الشارع والمشاة، وبين البيوت والمحلات.

الميدان سوق .. أو مولد.. تذكر الموالد، وليالى الموالد.. الفول النابت .. واللحمة الهُبر .. والصدقات بغير حساب .. والصوان الكبير يمتلىء بالذاكرين.. الله حي.. الله حي. حركة الذاكرين الواصلين، مثل موج البحر، تذهب يميناً وتجيء يساراً. الكل مشغول بحب الله .. وأهل الله .. ورسول الله .. وصوت المنشد يرتل في خشوع:

يا أهل بيت النبي، دا أنا خدام في واديكم
طمعان في نظرة رضا، ليا العشم فيكم
أنتم رجال الحمى، طالت أياديكم
تاخدم بايد العيان، اللى احتمى فيكم

أيقظه من شطحاته عامل فقير مثله أخبره بفكرة، لم تخطر له من قبل. إذا كان لابد أن تحصل على فلوس اليوم فتعال معى الى مستشفى الأمل. ماذا نفعل؟ هات وخد، لا أفهم! هات دماً وخذ فلوساً، مشى بجوار زميله يجر أعضاءه المجهدة، حتى وصلا الى مستشفى ضخمة فخمة أشبه بـ(لوكاندة) عظيمة، ترقد على شط النيل مباشرة اعترضهما بعض رجال الأمن - الذين يلبسون ملابس زرقاء وسوداء. صعلوك .. لا تدخل من باب الملوك.

كل معلوماته عن المستشفيات مستمدة من الوحدة الصحية في القرية.. والمستشفى العام في المدينة، يستحيل أن تكون تلك البناية العظيمة مستشفى مثل الأماكن التى زارها، وأخذ منها شراب الحديد، أو شربة الدود، أو حبوب السلفا.. له أو لزوجته أو أحد أبنائه. ظن في البداية أن الحكومة أرادت أن تصلح الخدمات الطبية للناس - أبناء الشعب الغلابة، لكن الزميل صاح فيه: فق .. واصح يا بلدينا، هذه المستشفى لا علاقة لها بالحكومة أو الشعب مشروع استثمارى يا غشيم، لم يحاول أن يفهم.. أو يتكلم، فهو لا يعرف شيئا عن الحكومة أو الشعب، كل ما يهمه أن يحصل على فلوس، حتى يطعم الأفواه الجائعة التى تنتظر عودته، كما تنتظر الأرض الشراقى مياه الساقية. أسلم ذراعه للتمرجي، أحس أن قلبه ينخلع مع لتر الدم، الذى سحب من ذراعه، ضاع إحساسه بالفقد والضعف، حين أعطوه زجاجة لبن وعشرين جنيها.. ورقة العشرين جنيها.. ورقة جميلة خضراء، كان يراها من بعيد في يد المقاول، لكنه يمسك الآن بيده التى سحب منها الدم، ورقة صحيحة بعشرين جنيها، كانت الورقة جديدة - أعطاها له

الصراف من حزمة داخل أستك رقيق - أخذ يتأمل - بفرحة طفل - الورقة من الوجه.. ومن الظهر قربها من عينيه، ومن أنفه ذى الفتحات الواسعة، رائحة جميلة وشعور غريب الفلوس.. الفلوس المفتاح السحرى لكل شيء يا أبو نادية.

مال نحو ركن هادىء، حتى لا يراه أحد، طبق الورقة مرتين، ثم وضعها داخل البطاقة العائلية، ثم لف البطاقة في المنديل المحلاوى، ووضع الثروة في جيب الصديرى توجد معه قروش قليلة تكفى لأجرة السفر، لن يفك الورقة المقدسة، سيعطيها صحيحة لعطيات، حتى تشترى بعض ما يحتاجه البيت، امرأته حكيمة مدبرة، سوف تشترى للعائلة يوم الخميس - يوم السوق - اثنين كيلو كرشة، وتطبخ لهم ثريداً وشوربة، شوربة اللحم تصلح المعدة وتقوى العظام، حتى يقضى ليلة سعيدة مع أم العيال، سوف يشترى علبة سجائر ماكينة، فقد أفسد صدره دخان الجوزة، سيأخذ نفساً عميقاً من السيجارة، ويحس نشوة الخرمان أسكره التبغ حين يجلس على المصطبة بجوار زوجته، لن يعطى جاره عبد السميع الشاذلى سيجارة، بل حتى ولا عقب. رجل دون.! عمره ما عزم عليه بسيجارة، ولا حتى نفس جوزة! شق طريقه بصعوبة داخل الأتوبيس المزدحم، عندما نزل أمام البلدة تحسس جيبه، فلم يعثر على المنديل، الذى وضع داخله البطاقة والعشرين جنيها. بدأ الأتوبيس يتحرك، وهو يحاول اللحاق به، لكن الأتوبيس أسرع بعيداً، مخلفا وراءه سحابة دخان، لم يفقد الأمل، ظل يجرى.. ويجرى.. ويجرى الى أن وقع مغشياً عليه. لا يدرى كيف وصل الى البيت.. ولا من حمله ولا كيف أفاق. فتح عينيه بصعوبة فرأى زوجته وأطفاله متناثرين على أرض القاعة، التى يعيشون فيها. حين تحركت عيناه، تمتمت زوجته فرحة: حمدا لله على سلامتك، لقد ظن بعض أهل القرية أنك مت، الأسطى فاروق المزين كشف عليك، وأعطاك حقنة، بعد أن قرب رائحة النشادر الى أنفك، قال بعد أن بدأت تتحرك بصعوبة: عملت ما أقدر عليه، والله هو الشافى. اخرجوا يا ناس يا طيبين، ودعوه يستريح حتى الصباح!. وهو خارج وضع فى يده - دون أن يلمح أحد - الشيخ عمران امام المسجد جنيها ثمن الحقنة. أخذ يتأمل الزنزانة، التى يسجن نفسه فيها كل ليلة، السجن الحقيقي.. هو الفقر. لو كان أثر الفقر سيعود عليه وحده لتحمل، لكن ما ذنب هؤلاء الأبرياء الجوعى..!!

عاودته آلام الذراع اليمنى.. وأحس جيشاً من النمل، ينهش العرق الذى سحبوا منه الدم. كان مكسور الخاطر مجروح القلب. آخر شيء كان يمكن أن يفعله، هو أن يبيع دمه لمن يستحق.. أو لا يستحق.. بثمن بخس. يبدو أن الله لم يسامحه على ما فرط في حق نفسه، وفي حق أولاده، لذلك أرسل إليه من سرق الفلوس من جيبه. يا الله .. يا رب الفقراء؟!

حاول أن ينام .. حاول .. حاول، لكنه لم يستطع على ضوء لمبة جاز صغيرة، جلس نصف قاعد .. ونصف نائم.. على الحصيرة، وزوجته قاعدة في الركن، تعد حزم الفجل والجرجير والكرات التى لم تبع، لأنها انشغلت بهمّ زوجها، حين جاءوا به مغمى عليه. كما أن نادية التى تساعدها، لم تستطع أن تفعل ذلك، لأن قلبها كان خائفاً.. ودموعها لم تتوقف، إلا بعد أن أفاق أبوها.

لا تدرى عطيات الحزينة ماذا تفعل بالخضار البائت، سوف يذبل وتصفر أوراقه في الصباح. لن تكون له فائدة، حتى لو حاولت أن تعيد إليه الروح بأن تبله في ماء الترعة، الحل الذى استراحت إليه هو أن تعلف به الفراخ والأرانب التى تربيها، فهى تربى الفراخ وتبيع البيض والفراخ، وتسمن الأرانب ولا تأكل

لحمها.. كل هذا من أجل العيال.. العمل خير من الشحاذة.. لم تكن حياة الزوجة أفضل من حياة زوجها، فهى تجاهد مثله من أجل العيال الخمسة.

لو كانت نادية ولداً ما ارسلته الى المدرسة، وانما صحيح.. الولد وتد مع أبيه حتى يساعده ويتعلم منه، ويريحه عندما يكبر.

نادية عادت من المدرسة تردد كلاماً، لا أفهمه: ألف.. باء.. تاء.. ثاء. صرخت فيها بأعلى صوتي: أسكتي يا بنت. أقول لك ما أخذناه مع أبلة أحلام. قلت لك اخرسى، واجلسى هنا أمام المشنة، حتى أغسل جلباب أبيك، إياك أن تلعبى مع الأطفال!!

تبادل الزوجان - في الضوء الشاحب والليل البارد - نظرات حزن وغيظ مكتوم، من أجل العشرين جنيها التى ضاعت.

الزوجة غاضبة على زوجها، لأنه حاول أن يقلد الأفندية، ويركب الأتوبيس، لماذا لم يأت ماشياً أو راكباً عربة كارو - كما يفعل كثيراً عند العودة من البندر؟ مقدر ومكتوب.. الغلبان لا يشبع من الغلب، يا وكستك يا عطيات.

أما الزوج فقد كان ساخطاً على الدنيا وما فيها، لعن اليوم الذى عرف فيه طريق المدينة التى استولى بعض أهلها على دمه ونقوده في وقت واحد، المدينة غول مفترس.. لكن هل يقدر على ألا يسافر إليها مرة أخرى؟! لم تستطع نادية أن تنام هى الأخرى، فقد أحست أن هذه الليلة، ليست عادية في حياة والديها.. لم تكن تدرك على وجه اليقين.. ماذا حدث.. ولا معنى ما حدث، لكنها أحست - بالفطرة - أن هناك مصيبة حدثت لأبيها في البندر، وأنه مريض تعبان، فقد جاء به الرجال محمولا، لا يقدر أن يتحرك أو يتكلم، المصائب التى حلت بأبيها - الذى تحبه ويحبها - جعلتها حزينة تبكى - بغير دموع، وقتلت في عقلها الصغير فرحتها بالمدرسة، وأنستها ما تعلمت من الحروف مثل: ألف.. باء.. ولم تعد قادرة على تذكر بقية ما حفظت.

شرخ جدار الصمت الليلى.. الحزين.. البارد، صوت ضعيف من الأب، يطلب من الزوجة أن تعد كوباً من الشاى. تركت الخضروات، التى ترتب وضعها في المشنة، والتفتت إليه. لم تكن واثقة أن لوازم الشاى موجودة عندهم: شاى.. شاى إيه يا رجل؟ نحن بعد العشاء بزمن، يمكن في نصف الليل، لن يجعلك الشاى تنام، استرح الآن والصباح رباح.

قلت لك اعملى الزفت وخلاص.. لم تشأ أن تغضب زوجها، كما لم تستطع أن تخبره الحقيقة. حاولت أن تقوم بصعوبة، أسندت يديها على الأرض، حتى تستطيع أن تتحرك بعد يوم حزين طويل، لا يريد أن ينتهى. أخذت تبحث في الركن الذى تضع فيه الحلل والأطباق، حتى وجدت وابور الجاز، حركته بيدها اليسرى بجوار أذنيها، فأدركت أن الجاز فيه قليل. ملأت كوزاً من الصفيح بالماء، ثم وضعت نصف الماء في الوابور، تعرف - بالخبرة - أن الماء أثقل من الجاز، لذلك سوف يعلو الجاز على سطح الماء، ويكفى لعمل الشاى. بعد مدة استطاعت أن تشعل الوابور، ووضعت الكوز الأسود على لهب الوابور الأصفر، الممتزج ببعض دخان. لمحت فأراً يتحرك عند باب القاعة، لم تكن قادرة على مطاردته، وخشيت - إن هى صرخت أن توقظ الأطفال الصغار، فيقتل الخوف لديهم الرغبة في النوم. وضعت ملعقة من الشاى في الماء، وتركته يغلى، حتى يكون الشاى ثقيلا. بدأت رائحة الشاى تصل الى منخار زوجها، تمنى أن تكون مع الشاى سيجارة، حتى يصلح مزاجه المنحرف.

بطرف الجلباب الأسود، حملت الكوز الساخن

بحذر، ووضعته على الأرض، أحضرت الكوب وملعقة صغيرة من الألمونيوم، تظاهرت بأنها تبحث عن علبة السكر.. الشاى يا امرأة.. ساعة حتى تعملى كوباً من الزفت صرت عجوزة.. لم تعد لك فائدة في الليل أو النهار. اصبر يا أبو نادية، الصبر طيب.. تذكرت نادية .. حاولت أن تشركها في الأمر، حتى تخفف من وقع الخبر على الزوج .

نادية .. نادية .. اين وضعت علبة السكر يا شقية؟ لم تكن نادية قد نامت لذلك هبت واقفة حين سمعت صوت أمها. كانت قلقة لا تستطيع أن تنسى ما حدث في المدرسة.. وما وقع للأب، عاش قلبها الصغير مشاعر الفرحة والأحزان في يوم واحد.. يوم اسود طويل، لا يريد أن ينتهى.

كانت معجبة بأبلة أحلام، وتمنت أن تكون مثلها في كل شيء، حتى في الفستان الأخضر وتسريحة الشعر. سألتهم المعلمة بعد أن قرأت معهم الحروف أكثر من مرة: أول حرفين في الأبجدية هما ألف باء.. هل تعرفون السبب يا أطفال؟.

أخذ الأطفال يفكرون والمعلمة تنظر إليهم، لكن الأطفال لم يقولوا شيئاً، ولم تقل لهم شيئاً.. وظلت نادية متعطشة لتعرف إجابة السؤال.

حين رأت الأم نادية واقفة، طلبت منها أن تحضر علبة السكر، وهى تعلم سلفاً أن ليست فيها حبة واحدة. توجهت الطفلة نحو دولاب في الحائط، وأحضرت منه العلبة، وظلت واقفة بالقرب منها، حتى تكون قريبة من مصدر التدفئة. فتحت الأم العلبة في هدوء، وأخذت تحرك فيها الملعقة، آه.. العلبة ليس فيها سكر.. فرد الزوج مغتاظاً: أين السكر يا امرأة؟ سكر إيه يا رجل؟ اثنين كيلو، ماذا تصنع لعائلة، فيها رجل كييف وطفل رضيع.. وأبناء لا يعرفون طعم الحلوى إلا إذا تناولوا ملعقة سكر؟.

أنت امرأة مهملة، لا تعملين حساباً للرجل الذى يتغرب في بلاد الله من أجلك ومن أجل أبنائك.. خشيت الطفلة أن تنشأ معركة بين الأبوين، وقد شهدت كثيراً من معاركهما.

قالت حتى تحل الأزمة: كانت في العلبة معلقة سكر، لكنى أكلتها يا أبى.. لم يستطع الأب أن يحبس غيظه.. ومن نحن حتى تأكلى السكر يا بنت الكلب؟! أخذ يسب البنت.. ويسب أمها .. ويلعن يوماً أسود، لا يريد أن ينتهى.

صاحت امرأته: ماذا نفعل؟ .. نحن عائلة فقيرة.. أنت وحدك المسئول عنا..

استيقظت في داخله شياطين الغيظ والغضب أخذ يسب كل ما يتذكره.. ومن يعرفه.. قالت له نادية بصوت باك: اهدأ يا أبى.. لا تزعل.. نسى كل الوساوس التى تشتعل في صدره، والتفت الى نادية: أنت السبب .. لماذا أكلت السكر؟.

توقف الزمن .. وتبادل الثلاثة نظرات قلق وغيظ وغضب.. لا يدرى الأب كيف تحرك من مرقده، وحمل - بيده التى سحبوا منها الدم - وابور الجاز المشتعل، وقذف به ناحية الطفلة الخائفة، وذهل الأب..!! أخذت النار تسرى في بقية الجلباب.. الأم تصرخ، والطفلة تعوي، والأب مذهول، لا يستطيع أن يتحرك.. اشتد صراخ الطفلة، حين انتقلت النار من الثوب الى الجسد.. نادية تجرى .. تبكى.. تصرخ.. تستغيث.. استيقظ أخوتها الصغار وظل الأب مذهولا غير قادر على الحركة، بينما المحترقة تجرى هنا .. وهناك .. والنار مشتعلة في الثوب والجسد.. ثم بدأت تمتد إلى الشعر.. والوجه.. وهى تصرخ وتصيح.. تصرخ وتصيح.. فتحت الأم باب القاعة، وأخذت تستغيث بصوت عال: الحقونا يا عباد الله.. الحقونا يا عباد الله.. الحقونا يا .....!!

الموارد الطبيعية الحيّة الى أين؟!

وقت أن دخل العالم عصر (الثورة الصناعية)، كان يعيش على الأرض ما يقرب من بليون نوع من الكائنات الحية، وكان ذلك يعني - بالنسبة لعلماء البيئة والبيولوجيا - غنى الأرض بأنواع الحياة، في تربتها، ومائها، وهوائها؛ ومن جهة أخرى، كان رجال الصناعة والاقتصاد يترجمون ذلك إلى وفرة في الموارد الطبيعية الحية، تضمن لهم الاستمرار في تدوير مصانعهم وتوسيع مشروعاتهم.

وها نحن نعيش في مفتتح القرن الواحد والعشرين، وقد تأكد لدينا أن للموارد الطبيعية الحية قدرات وحدوداً، وأننا قد تجاوزنا تلك القدرات والحدود؛ وأن ذلك التجاوز قد أساء كثيراً الى الأرض، التى هيأها لنا الله شديدة التنوع والغنى بالحياة والأحياء؛ وأن الوقت قد حان - ولعل الأوان لا يكون فات - لإعادة حساباتنا، وتغيير نظرتنا الى تلك الموارد الطبيعية، لعلنا ننجح في صون التنوع الحالي في الأحياء التى تعيش معنا على سطح كوكبنا، ونمنع دفع مزيد من الكائنات الحية الى هاوية الانقراض٠٠ من فضلك، راجع الجدول التالي:

(جدول يوضح الوضع الحالي للكائنات الحية التى انقرضت فعلا والمهددة بدرجات متفاوتة لخطر الانقراض)

مجمل عدد الأنواع	الحالة					مجمل عدد الأنواع
	منقرض فعلاً	مهدد بالانقراض	معرّض للانقراض	نادر	حالات غير محددة	
نباتات	٣٨٤	٣٣٢٥	٣٠٢٢	٦٧٤٩	٥٥٩٨	١٩٠٧٨
أسماك	٢٣	٨١	١٣٥	٨٣	٢١	٣٤٣
برمائيات	٢	٩	٩	٢٠	١٠	٥٠
زواحف	٢١	٣٧	٣٩	٤١	٣٢	١٧٠
لا فقاريات	٩٨	٢٢١	٢٣٤	١٨٨	٦١٤	١٣٥٥
طيور	١١٣	١١١	٦٧	١٢٢	٦٢٤	١٠٣٧
لبونيات	٨٣	١٧٢	١٤١	٣٧	٦٤	٤٩٧

مجمل عدد الكائنات المنقرضة والمهددة بدرجات متفاوتة : ٢٢٥٣٠ نوعاً.



أ. رجب سعد السيد

الاسكندرية - مصـــر

وفي حومة الاهتمامات المتزايدة بقضايا ومباحث الموارد الطبيعية الحية، التقى العلماء حول مصطلح هو «التنوع الأحيائى»، وجدوا فيه ضالتهم ليكون بمثابة الإطار العـام لصـورة تضم كل الأنواع من الكائنات الحية، نباتية وحيوانية، بالإضافة الى الكائنات الدقيقة، الموجودة في أنظمة بيئية مختلفة. إنه اصطلاح دال على القدرة التى وهبها الله سبحانه وتعالى للطبيعة على التنوع؛ وهو يتسع ليشمل عدد وتكرار إيجاد كل من: الأنظمة البيئية، وأنواع الكائنات الحية، وأيضاً العوامل الوراثية المحددة لصفاتها.

ثمة - إذن - ثلاثة مستويات للتنوع الأحيائى:

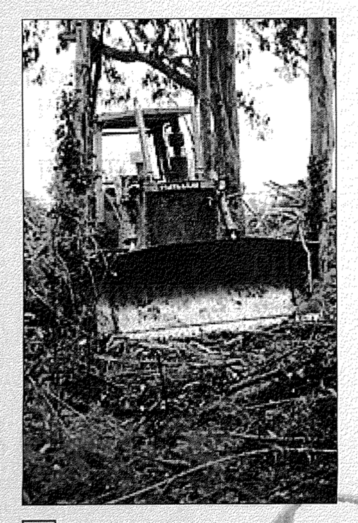
الأول: تنوع الصفات الوراثية، ونعني به مجموع المعلومات والصفات المشفرة في (جينات) كل النباتات والحيوانات والكائنات الدقيقة الموجودة على سطح الأرض؛ ويمثل هذا المستوى القاعدة العريضة لتنوع الحياة في كوكبنا.

الثاني: هو التنوع الحاصل في مجمل الأنواع من الكائنات الحية، والتى يعتقد أن عددها، حاليا قد تناقص الى خمسين مليون نوع وإن كان عدد الأنواع التى تم التحقق من وجودها، وقام العلماء بوصفها وتوثيقها، لا يزيد كثيراً عن مليون وأربعمائة ألف نوع، نصفها من الحشرات!.

أما المستوى الثالث: فهو التنوع في الأنظمة البيئية، ويأتي من التباين في أنماط حياة التجمعات المختلفة من الكائنات الحية، ومن تعدد وتنوع التفاعلات البيئية في المحيط الحيوي، الذي يضم كل الأنظمة البيئية. وفي هذه الأنظمة تتم عمليات دوران الأملاح المغذية في أطوارها الثلاثة، من الإنتاج الى الاستهلاك الى التحلل؛ كما يدور فيها أيضاً كل من الماء والأكسجين والميثان وثاني اكسيد الكربون؛ وهي العناصر الرئيسية المؤثرة في أحوال المناخ.

إن قضية صون التنوع الأحيائي للأرض لشديدة الالتصاق بالمسائل الاجتماعية وقضايا التنمية الاقتصادية، بمختلف المجتمعات ولا يمكن معالجة أي منها منفصلة.

وعلى سبيل المثال، فقد طال استغلال الدول الصناعية لبيئة الحزام الاستوائي للأرض، وهي البيئة التى تشتمل على أكبر مخزون طبيعي من الكائنات الحيـة، على سطح الأرض؛ ومنه أخذت تلك الدول خاماتها التصنيعية والدوائية، كما استثمرتها سياحياً.



فلما حل الإنهاك بتلك البيئة، لم تقم الدول الصناعية المستغلة بتقديم العون الكافي لدعم جهود صونها وإنعاشها، بالرغم من أن هذا الدعم هو ـ في الواقع ـ تأمين لاستمرار انتفاع تلك الدول بموارد البيئة الاستوائية.

لقد تزايد الوعي العام بقضية الموارد الطبيعية الحية، وبأهمية صون التنوع الأحيائي للأرض، غير أن فريقاً من علماء البيئة لا يزال مشفقاً من غياب بند ترشيد استغلال الموارد الطبيعية في خطط التنمية لبعض الدول، أو تهميشه في كثير من برامج التنمية ومشروعاتها؛ لذلك فإنهم يرون ضرورة الاستمرار في التأكيد على القيمة الاقتصادية للتنوع الأحيائي، لإبرازها وجعلها ملموسة للحكومات ولرجال الاقتصاد، ليعطوا للقضية اعتبارها، وحق قدرها من الأهمية، عند وضع خطط التنمية واتخاذ القرارات التنفيذية.

ويمكن تقدير القيمة الاقتصادية للتنوع الأحيائي في مستويين:

أولها: تقدير قيمة المنتجات الطبيعية، التى يجرى استغلالها، من الطبيعة مباشرة وعلى حساب كثير من أنواع الكائنات الحية ـ نباتية وحيوانية ـ دون أن تمر بمرحلة تسويق، مثل أخشاب الوقود والأعلاف، وحيوانات الصيد.

وثانيها: هو تقدير القيمة الاقتصادية للمنتجات الطبيعية الحية، التى تستغل تجارياً، مثل أخشاب الأشجار التصنيعية، والأسماك وأنياب الفيلة (العاج)، والنباتات الطبية. وكما رأينا، فإن المستويين السابقين يتضمنان أوجه الاستغلال المباشر والملموس للموارد الطبيعية الحية، فإذا أتينا الى الأوجه غير المباشرة، أمكننا أن نعطي تقديرات اقتصادية ـ يراها البعض أعلى وأضخم ـ لمجموعة من القيم غير المحسوسة، مثل عملية البناء الضوئي، وهي أضخم عملية تصنيع للمواد الكربوهيدراتية على وجه الأرض، وهي أساس الحياة في كل صورها؛ ومثل تنظيم أحوال المناخ الأرضي؛ وهما عمليتان تتحكم فيهما بعض مكونات الأنظمة البيئية.

ويعتقد جانب من علماء البيئة أن ثمة ستة معوقات رئيسية تحول دون تحقيق تقدم كبير في جهود صون التنوع الأحيائي؛ وهي:

١ ـ أن مستهدفات خطط وبرامج التنمية الوطنية لا تعطي الاهتمام المناسب لقيمة الموارد الطبيعية الحية.

٢ ـ أن الجانب الأعظم من مردودات استغلال الموارد الطبيعية الحية يصبُّ في خزائن التجار ورجال الصناعة، الذين لا يلتفتون ـ غالباً ـ الى تحمل أنصبتهم من التكلفة البيئية لاستغلال تلك الموارد؛ بينما يقع عبء هذه التكلفة على كاهل الوطنيين من سكان البيئة محل الاستغلال، الذين قد يفاجأون بنضوب تلك الموارد، واختلال الأنظمة البيئية في مواطنهم، وقد يهتز استقرار معيشتهم.

٣ ـ أن العلاقة بين الأنظمة البيئية المختلفة، والأنواع من الكائنات الحية التى تعيش بها، والتى تمثل عماد حياة البشر، بحاجة الى مزيد من الدراسة من أجل مزيد من الفهم. وكما سبق أن ألمحنا، فإن إمكانيات وجهود علماء التصنيف، في رصد ووصف والتوثيق العلمي للكائنات الحية، لا تزال قاصرة عن الإلمام بكائنات حية تعيش معنا الآن، وتخلو منها الخرائط التصنيفية؛ بل إن بعض هذه الكائنات ـ للأسف ـ ينقرض قبل أن يتعرف عليه العلماء!.

٤ ـ أن ثمة قصوراً علمياً آخر، يتمثل في عدم كفاية سُبل الإدارة العلمية للأنظمة البيئية؛ وعلى سبيل المثال، لا تزال علوم إدارة المصايد البحرية (المسامك) عاجزة عن تحقيق الاستغلال الأمثل للموارد البحرية الحية، ولا يزال الجدل دائراً حول حقيقة المخزون الطبيعي من تلك الموارد، وخصوصاً اللبونيات البحرية؛ وهذا هو أصل النزاع القائم بين الهيئات والمنظمات البيئية الغربية، واليابان، حول حظر صيد الحيتان.

٥ ـ أن معظم المنظمات والهيئات العاملة في مجال

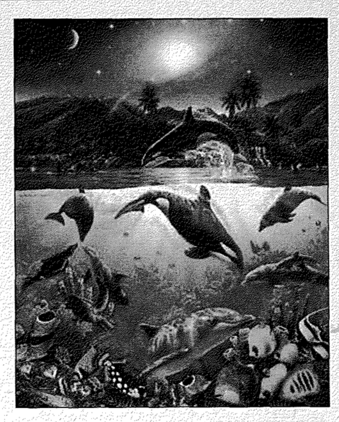


صون البيئة والموارد الطبيعية الحية يعمل منفصلا بعضه عن بعض، وتتركز أنشطته في مجالات ضيقة، ذات تأثير محدود.

٦ ـ أن المؤسسات التى تتصدى لتحمل مسؤولية حماية التنوع الأحيائي تفتقر الى التمويل المادي، وفي أحد المؤتمرات حول التنوع البيولوجي، أقامه جهاز شؤون البيئة بمصر، كانت الشكوى العامة لكل العلماء المشاركين بالمؤتمر أن مشروعاتهم العلمية لا تكتمل، نتيجة عجز الموارد المالية.

وفي رأينا، أن حماية التنوع الأحيائي هي مسؤولية الجميع، أفراداً وحكومات؛ وإن كانت أعباء مسؤولية الحكومات أكبر، لأن السياسات الحكومية، وبخاصة تلك التى تغيب عنها الاعتبارات البيئية، هي التى تتحمل وزر تدهور الأنظمة البيئية والموارد الطبيعية الحية؛ فهي التى تهيمن على الموارد المائية والغابات، وهي المسؤولة عن النمو العمراني على حساب الأنظمة البيئية والموائل الطبيعية؛ وهي التى تستورد المبيدات، أو تسمح بجلبها، بآثارها المدمرة للتنوع الأحيائي، وعلى تلك الحكومات أن تراجع سياساتها البيئية، كخطوة أولى لحماية ذلك التنوع.

وعلى أي الأحوال، فقد أظهرت الدراسات البيئية، متعددة التوجهات، بعض الأفكار العملية، التى يمكن الأخذ بها حماية للتنوع الأحيائي؛ ومنها: أن حماية وجود الكائن الحي يبدأ بحماية بيئته، وهذا ما يدفع بعض الإدارات الحكومية الى إصدار قرارات بتحريم استغلال الموارد الطبيعية الحية في بعض البيئات الحساسة، واعتبارها مناطق محمية. والجدير بالذكر أن عدد المحميات الطبيعية في العالم قد تجاوز ٤٥٠٠ محمية، يزيد مجموع مساحاتها عن ٥٠٠ مليون هكتار.



ومن التوجهات العملية لحماية التنوع البيولوجي أيضا، المشروعات والبرامج التى يجري تنفيذها في حدائق الحيوان، وبنوك البذور، والحدائق النباتية؛ حيث ينصب الاهتمام على الأنواع النادرة والمهددة بالانقراض، من النباتات والحيوانات البرية، فتخضع لبرامج الإكثار والتربية، ثم تعاد فتطلق في بيئاتها الطبيعية. وهذا توجُّه عملي طيب ثبتت فعاليته في أحوال عديدة.

ومن الضرورات اللازمة لحماية الموارد الطبيعية الحية، أن تعيش الكائنات الحية في محيط حيوي خال من التلوث، وإلا فلا معنى لأي جهد يبذل لإعادة إعمار الأنظمة البيئية بالكائنات النباتية والحيوانية، التى أصبحت نادرة أو أوشكت على الانقراض.

وبالرغم من تاكد حقيقة اهمية التنوع الأحيائي، كضرورة لصحة الأنظمة البيئية المختلفة، فإن هذه الأنظمة لا تزال تتحمل ضغوطاً تفوق قدراتها على التجدد وتعويض الفاقد. إن ذلك يستدعي وضع تشريع عالمي يرعى جهود التعاون المثمر في مجال صون التنوع الأحيائي، وفي هذا المجال، نشير الى الاتفاقية التى أعدها برنامج الأمم المتحدة للبيئة، بالاشتراك مع منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (فاو) - اتفاقية حماية التنوع الأحيائي - التي رحب بها عدد كبير من الدول، ويجري العمل بها الآن.

ولا يجب أن يغيب عن فكر القائمين على إعداد وتنفيذ برامج حماية التنوع الأحيائي نقطة هامة، هي وضع السكان المحليين، المستوطنين حول مناطق الموارد الطبيعية، والمستفيدين منها، والذين أسسوا ثقافاتهم التقليدية، على مدى أجيال متعاقبة، بدعم من هذه الموارد. إنهم يعتبرون كلَّ ما على (أرضهم) جزءاً من تاريخهم الحضاري والاقتصادي، وأن حرمانهم منه، ولو بحجة صونه أو إدارته وتنظيمه، يُعدُّ مساساً بمقومات حياتهم وتهديداً لوجودهم ذاته. من هنا، يجب أن ننتبه الى ضرورة وضع مصالح هؤلاء الوطنيين في الاعتبار، والتعامل مع كل (حالة) محلية منفصلة عن غيرها، فلكل منها درجة حساسيتها الخاصة، التى لا يجب إغفالها، ضماناً لنجاح برامج ومشروعات حماية التنوع الأحيائي، ومن ثم برامج التنمية.

ومن العوامل المهمة المساعدة على إنجاح مشروعات وبرامج حماية الموارد الطبيعية الحية، توفر قواعد قوية للمعلومات؛ على أن تشتمل هذه المعلومات بالدرجة الأولى على أوصاف دقيقة لكافة الأنواع النباتية والحيوانية المتجمعة في مختلف الأنظمة البيئية؛ فمن الضروري أن نعرف: ماذا لدينا، قبل أن نبحث في : ماذا سنفعل بما لدينا. ولقد سبقنا الى هذه المسألة مجموعة العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية على مصر، فاهتموا برصد (كل شيء) .. فوصفوا عدداً ضخماً من الكائنات الحية، برية وبحرية، ومن الطيور المصرية؛ ورسموها رسماً علمياً دقيقاً. ونحسب أن ذلك العمل لم يكن خالصاً (لوجه العلم)، أو لمجرد التسلية، أو على سبيل التسجيل التذكاري، وإنما كان عملية تمهيدية ضرورية لرصد الثروات، قبل البدء في استغلالها، على مدى عهد استعماري، كان المنتظر له أن يدوم طويلا.

إننا ندعو الى ضرورة أن تهتم مراكزنا العلمية،

في الوطن العربي، بإعداد وإصدار القوائم التصنيفية المصورة (كتالوجات) للكائنات الحية في البيئات المتنوعة، وأن تدعم جهود العمل التصنيفي، وأن يجري تبادل الخبرات والمعلومات البيئية في البلدان العربية، وألا تعامل هذه المعلومات على أنها (أسرار). لقد بادر عدد من البلدان العربية، بالفعل، الى تكوين (مجموعات مرجعية)، و(وحدات تنوع بيولوجي)، مستقلة، أو تابعة لمراكز بحثية؛ ونأمل أن يعمَّ هذا النهج كل بلاد العرب.

ومن الأهمية بمكان أيضا، أن تهتم الهيئات الأهلية والحكومية والعالمية، العاملة في مجال صون التنوع الأحيائي، بتحديد أولوياتها وأن يكون واضحاً لديها، ما هي الكائنات الحية التى تراها أولى بالرعاية؟؛ وما هي الأنظمة البيئية التى تستوجب تركيز الجهود، لحمايتها من التدهور؟. وتأتي ضرورة هذا التحديد من أن المشكلة أكبر من أن تحيط بكل أبعادها هيئة أو منظمة بمفردها، وأن العالم الذى نعيش فيه يشهد تغيرات أكثر وأسرع من أن تحيط بها كلها برامج صون البيئة. والجدير بالذكر، أن بعض الخبراء يرى أن البيئة الاستوائية يجب أن تحظى - على المستوى العالمي - بالأولوية، في مجال رصد ووصف وتسجيل مكونات مواردها الطبيعية الحية، وذلك لتميزها بالتنوع الأحيائي الضخم، كما أنها تتعرض لأشد الأخطار البيئية التى تجعل بعض سكانها - من *الكائنات الحية* - يختفون من خريطة الحياة، قبل أن يفلح علماء البيئة والتصنيف في رصد وجودهم.

إن العمل العلمي في مجال صون الموارد الطبيعية الحية - كجزء من برامج صون البيئة، بعامة - له صفة العالمية، وتقل قيمته إذا افتقد الى الاستراتيجية الواضحة، والخطط التنفيذية الفاعلة، التى يتفق فيها على ملامح المشاكل، وعلى أهداف واضحة، يمكن تحقيقها. ولعل الهيئات العالمية، مثل البنك الدولي، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، وبرنامجها الإنمائي، مع بعض المنظمات غير الحكومية المؤثرة، مثل جماعة (السلام الأخضر)، تشترك - متعاونة - في وضع هذه الاستراتيجية المأمولة، والتى يجب أن تشتمل علي: ترسيخ منظور عام للمشكلة، والاتفاق على الأولويات، وتحديد المعوقات التى قد تعترض طريق العمل التنفيذي، والبحث عن نقاط الالتقاء بين برامج صون التنوع الأحيائي، وبرامج التنمية.

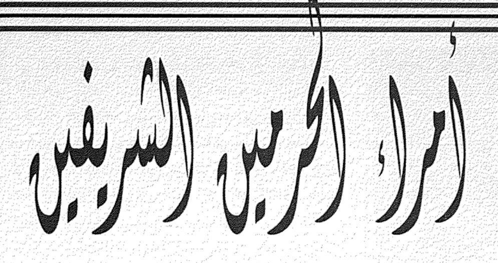
وأخيراً، يبقى سؤال هام، يحتاج الى إجابة، هو: من يسدد قيمة الفاتورة؟!.

والإجابة، ببساطة وبوضوح شديد هي: إن على من استفادوا من التنوع الأحيائي للأنظمة البيئية - أو بالأحرى من اشتركوا في استنزاف موارد تلك ا لأنظمة - أن يشاركوا بتحمل الجانب الأكبر من تكاليف علاج هذه الأنظمة المنهكة. إن تلك المشاركة هي - في الحقيقة - استثمار لصالح البلدان الغنية، يهدف الى إنعاش قدراتها الإنتاجية ولمنفعة كل الأطراف.

لقد خلفنا وراءنا قرناً من الاستغلال غير الرشيد لموارد العالم الطبيعية؛ وها نحن قد وضعنا أيدينا على جوهر المشكلة؛ وأمامنا فرصة - لعلها آخر الفرص المتاحة أمام البشر - لاتخاذ القرارات المناسبة، والسعي من أجل تأمين الموارد الطبيعية الحية، وحماية الأنظمة البيئية وإنعاشها، لتعود قادرة على إمداد خطط وبرامج التنمية، في الألفية الثالثة من عمر حضارة البشر، باحتياجاتها من الخامات.

لقد ولى القرن العشرون، وقد تركنا في مفترق طرق إذ أن توجهاتنا خلال السنوات القليلة القادمة هي التى ستحدد في أي السكتين نسير: (سكة الندامة)، بالاستمرار في *الإساءة* الى مواردنا الطبيعية الحية وتدميرها، دون أن ندري، أو ربما بوعي تام، أننا نصدر الفوضى الى أبنائنا وحفدتنا، ونحرمهم من فرصة طيبة للحياة؛ أم (سكة السلامة)، بأن نتيح لخريطة الحياة في كوكبنا أن تعود إلى الازدهار، وبأن ندرك أننا، بني الإنسان، لسنا وحدنا على سطح الأرض، وأن ثمة كائنات أخرى، قد ننظر إليها على أنها (متدنية) في سلم التطور الذي صنعناه نحن بأنفسنا، ولكن استمرار وجودها - معنا - هو ضرورة لاستمرار الحياة.





سبق القول في الحلقة الماضية أن الأمير مكثر بن عيسى قد ظل عليها حتى سنة ٥٩٧ للهجرة المباركة. وفيها انتزعت منه بالقوة العسكرية ولاية البلد الحرام. وبذلك انتهت ولاية أسرته للرحاب الأبطحية. وبه انقرضت دولة الهواشم، وكان سبب ذهاب ولاية البلد الحرام منهم الى يد أبى عزيز: انهماكهم في الترف واللهو والملذات وتبسطهم في الظلم والجور، فسلط الله عليهم:

الأمير أبو عزيز قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم الحسنى الهاشمى أمير ينبع:

فقد خرج أناس من أهل مكة شرفها الله تعالى الى ينبع وشكوا الى الشريف أبى عزيز قتادة ما يلاقونه من ظلم وجور من الهواشم. وطلبوا منه النصر، فوعدهم بالنصر والمدد، فأذن الله عز وجل بزوال دولة الهواشم، فجاء الشريف قتادة في جماعة من قومه وفاجأ الهواشم بحضوره، وما شعروا إلا وهو بينهم بالبلد الحرام. فلم يكن لهم طاقة بمقاومته، فصار أمر البيت الحرام الى أبى عزيز اعتبارا من سنة ٥٩٧ للهجرة المباركة. وذكر العلامة عماد الدين بن كثير القرشى في تاريخه البداية والنهاية: أن أبا عزيز كان رجلا عادلا منصفا. وكان طويلا مهابا لا يخاف أحدا من الخلفاء والملوك ولا يهابهم. وكان أمير المؤمنين الناصر لدين الله العباسى حاول استدراجه اليه الى بغداد فلم يقدر. وكان الخليفة يتمنى رؤيته، ولكن ابا عزيز كان شديدا فقد بعث الى الخليفة ابياتا من الشعر جاء فيها:

بلادى وإن جارت على عزيزة
ولو أننى أعرى بها وأجوع
ولى كف ضرغام أذل ببطشها
وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها
وفي بطنها للمجد بين ربيع

الى آخر الأبيات التى ذكرتها أكثر من رواية. وقيل إن هذه الأبيات لم تصل الى الخليفة، وقيل إنها وصلت فغضب الخليفة وبعث إليه مكتوبا يهدده بالحرب. وكتب يقول كما ذكرها العلامة عبد الملك العصامى في سمط النجوم العوالى: أما بعد: اذا نزع الشتاء جلبابه. ولبس الربيع أثوابه. قابلناكم بجنود لا قبل لكم بها ولنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون. فذهب الشريف قتادة يستنصر ابناء عمومته من آل الحسين أمراء المدينة الشريفة. فاجتمعوا لمواجهة الخليفة واستطاعوا أن ينتصروا عليه. وقد ذكرتها في كتابى جلاء العينين: بشكل افضل. وكان الشريف أبو عزيز قوى النفس فاضلا شاعرا أديبا وكان يطوف بالبيت الحرام ويخشع ويتضرع وكان نقمة على المفسدين. وكان شيخا طويل القامة، وفي أيامه نعم أهل بيت الله عز وجل بالأمن والاستقرار، ونعم الحجاج بالاطمئنان والأمان. وقد استمرت ولايته حتى توفى سنة ٦١٧ للهجرة عن سبعين سنة. وقيل كانت وفاته على يد ابنه الحسن، وقيل مات مسموما، ودفن بمكة شرفها الله، فخلفه عليها ابنه:



السيد ضياء محمد عطار

- المدينة المنورة -

الأميـر أبـو عـالى شـهـاب الدين الحسن بن قـتـادة الحسنى :

فصارت إليه ولاية البلد الحرام سنة ٦١٧ بعد وفاة ابيه. كما ذكره الإمام تقى الدين الفاسى في شفاء الغرام، وقد أيدت ولايته دار الخلافة العباسية، وكان أخوه الشريف راجح بن قتادة يناوؤه في الأمارة فلم يقدر عليه، فاستمر حتى جاء الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل الأيوبى فحاربه ودار بينهما قتال بين الصفا والمروة فانهزم الشريف حسن أمام الملك الأيوبى، حيث أن العلامة الحافظ عماد الدين ابن كثير القرشى ذكر في تاريخه البداية والنهاية: أنه في سنة ٦٢٠ سار الملك المسعود الى مكة شرفها الله وقاتل بن قتادة. فهزمه واستقل بملك مكة شرفها الله، فخرج الأمير شهاب الدين الحسن بعد هذا من البلد الحرام وقصد الشام فلم يلتفت إليه أحد حتى ذهب الى العراق فأرادوا قتله قودا ثم توفى بها ودفن الى مشهد الإمام موسى الكاظم سنة ٦٢٣ من الهجرة، وكانت مدة ولايته نحوا من ثلاث سنوات، فلما خرج من الحرم تولى الأمر بالبلد الحرام:

الملك المسعود يوسف الملقب بأقسيس بن الملك الكامل الأيوبى رحمة الله عليه:

وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٠ من الهجرة المباركة، كما ذكره الإمام الفاسي في شفاء الغرام، وكان قدوم الملك المسعود الى الديار المكية المقدسة تم بإيعاز من الشريف راجح بن قتادة الذى كان ينازع أخاه الحسن في إمرة البلد الحرام. فبولاية الملك المسعود حدثت أمور عجيبة بالبلد الحرام: كما ذكرها العلامة نجم الدين عمر بن فهد الهاشمى في تاريخه إتحاف الورى، فكثرت الأقوات وأمنت الطرق وسلم الحجاج من شر قطاع الطرق بين الحرمين. وأبيد الشر، واختفى الفساد بجله. وكان الملك المسعود شهما مقداما. وقال العلامة ابن كثير القرشى في تاريخه البداية والنهاية: إنه تأمر على مكة فأحسن فيها المعدلة وأمنت الطرق والحجيج. وكان تدخل الملك المسعود في الأمر لمصلحة أهل بلد الله عز وجل. وقد اقام الملك المسعود في إدارة البلد الحرام حتى حج بالناس سنتها. وعين على البلد الأمين أميرا من قبله فغادر البلاد الحرمية. فاستمرت ولايته للبلد الحرام نحوا من ست سنوات وبضعة ايام. وقد توفى الملك المسعود بمكة شرفها الله في شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٦ للهجرة ودفن بها رحمة الله عليه، وكان من ولايته على البلد الأمين:

الأمير حسام الدين ياقوت بن عبد الله الملكى المسعودي:

تولى امارة البلدة المعظمة في شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٥ من الهجرة الشريفة، بتولية من الملك المسعود والى البلد الحرام. كما ذكره الإمام الفاسي في شفاء الغرام. وقد دامت ولايته حتى توفى الملك المسعود فكانت مدتها نحوا من سنة واحدة. وممن تولى الملك الكامل والد المسعود:

الأمير شجاع الدين طغتكين بن عبد الله الكاملي.

وكانت ولايته فيما بين سنة ٦٢٦ من الهجرة وبين سنة ٦٢٩ للهجرة بتولية من الملك الكامل. وكان الأمير طغتكين قد أوقف رباطا على الفقراء بمكة شرفها الله في مكان ملاصق للمسعى، وقد حدثت وقعة بينه وبين الملك المنصور صاحب اليمن يرافقه الشريف راجح بن قتادة. فعلى إثرها خرج الأمير شجاع الدين طغتكين الى ينبع. ثم تمكن من جمع قواه فعاد فقاتل الملك المنصور ملك اليمن الذى تولى الأمر بمكة شرفها الله، واستطاع أن يهزمه فأعاد سيطرته على البلاد الحرمية من جديد. وقتل أثناء ذلك خلق كثير. وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٦٢٩ للهجرة، والله تعالى أعلم: وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

شاعر البحرين (إبراهيم العريض)

سمع الأدباء ـ بعد الحرب العالمية الثانية صوته العذب قادماً من قلب الخليج العربي.. من البحرين.. حمل مشعل الكلمة العربية الأصيلة في المرحلة المبكرة من نهضة الخليج العربي. ولد في بومباي بالهند عام ١٩٠٨ من أبوين عربيين وبعد شهر من ميلاده توفيت والدته فتعهدته بالرعاية سيدة هندية جارة لوالده بحيث كانت تغذي الطفل بلبن البقر حتى أصبح يدب على الأرض.



الشاعر إبراهيم العريض

ثم تخلت الجاره الهندية عن رعايته وتربيته لانحراف صحتها فيما اضطرت سيدة هندية أخرى كانت تعمل في بيت والده غسالة بتربيته ورعاية أموره حتى أكمل دراسته الابتدائية وبطبيعة الحال كان لا يحسن التكلم باللغة العربية في هذه الفترة بحكم نشأته وإقامته في بيئة هندية وعندما حصل على الشهادة الثانوية في بومباي عام ١٩٢٥م قرر الإقامة مع أفراد عائلته في البحرين، وهنا اشتغل في سلك التعليم مدرساً للغة الإنكليزية خاصة أنه كان يحسن نطق مفردات الإنجليزية ويعرف قواعدها بشكل جيد. ثم تولى إدارة إحدى المدارس الحكومية بالبحرين لمدة أربع سنوات وبعد ذلك أسس مدرسة أهلية ذات مناهج مدرسية متطورة وبرامج متعددة من الأنشطة المدرسية كالتمثيل والرسم بشكل كان باهر النتائج.

وعندما قل المال واقترب شبح العجز المالي أغلق شاعرنا (ابراهيم العريض) هذه المدرسة والتحق بشركة النفط المحدودة كرئيس لقسم الترجمة فيها.

في مقتبل حياته الأدبية عجز عن ترجمة أحاسيسه الوجدانية والتعبير عن مكنونات نفسه باللغة العربية وذلك بحكم صعوبة تكلمه باللغة العربية ودراسته الطويلة بالفارسية الأمر الذى دفعه الى استخدام الريشة والفرشاة فرسم لوحات مبدعة وصور مناظر خليجية خلابة ولكنه لم يستمر في درب الفن التشكيلي وإنما لازم أستاذه المرحوم سلمان آل تاجر مدة من الزمن تعلم في خلالها نطق بعض مقررات اللغة العربية وقواعدها وأرشده الى معانى المفردات



عثمان محمد مليباري

- مكة المكرمة -

الصعبه ووضح له تراكيب الجمل وتأليف العبارات العربية.

ومما زاد تعلقه باللغة العربية تعرفه بالشباب الذين قدموا للعمل في مدارس بلاده «البحرين» كمدرسين للغة العربية وآدابها. وعرض عليهم محاولاته الأولية في قرض الشعر فوجد من عندهم ترحيباً وتجاوباً وفي مقدمتهم المدرس الشاعر السوري (يحى عمر) الذي أرشده الى الابتعاد عن زخرف القول وبريقه الخارجي وأن يستل مادة شعره من معين الكلمة الطيبة بإشراقها وعبقها. وهنا أدرك أن الشعر هبة من الله وكسب من العلوم والآداب مصهورة في بوتقة الفن.. لذلك عكف على القراءة والتحصيل حتى أصبح نجماً متألقاً في سماء الشعر العربي الخليجي.

وشعر ابراهيم العريض مفعم بالحس الفني والرؤية الحياتية النابضة مع صفاء في الأسلوب واتساع في الخيال - شأن الشعراء الأفذاذ والأدباء العظام. وعطاء «العريض» في محراب الأدب الإبداعي تمثل في محاور ثلاثة هي المرأة والطبيعة والبطولة.. المرأة في نظره - هي سر الحياة تحرك طاقات الحياة في قلبه، وهي الأم.. الزوجة.. الابنة.. والأخت: إنه يخاطب المرأة فيقول:

هم يرون الجمال صبغة زهر
وأرى العطر فيه أصل القياس
هم يرون الربيع.. صوت هزار
وأراه في قلبه الحساس
لك حبي أن حمت كالعطر - عطر الو
ورد فاستخلصيه دون احتراس
لك حبي ان نمت كالنور نور الـ
ـبدر لا يخدش الدمى بالماس
لك حبي ان همت كالماء ماء الـ
ـمزن أنقى ما كان فوق الرواسي
أنا أهواك حيث أنى أبقى
بك نفسي ما بين ورد وآسى

وشاعرنا امتلك قريحة طيعة وبصيرة نافذة فأخرج لنا صوراً مختلفة الألوان متنوعة الأفنان عن ضواحي بلاده البهيجة بألفاظ واضحة وتراكيب سهلة تتخللها معان فلسفية وفكر واسع إنه يحكي عن فتاة ريفية تمشي وهي قريرة العين - في حقول القمح والماء يجري تحتها سلسلا والطير فوقها يرفرف جناحيه منشداً:

أبصرتها خوداً على فقرها
كأنها الريحان في الآنية
وسط نثار القمح تمشي به
في حقلها ضاحكة لاهية
قريرة العين بما تجتلي
من فرشة محتضناً واديه

والماء يجـري تحـتـهـا سلسـلا
ينفض برديه من السـاقـيـه
كم أنشـد الطيـر على بابهـا
بكل مـا تشـعـره هانيـه
كـأنما ينبع من قلبـهـا
مـا انطق الله به شـادية
أغنيـة في الحب مـعـسـولة
لا الوزن يزديهـا ولا القـافـيـة

وكان الشاعر البحريني يذكي أمته بمشاعر العزة والكبرياء ـ ما دامت الأمة العربية ـ تشهد التحديات من أعدائها المتمثلة في جرائم الصهاينة بعد أن وقعت أرض الديانات ومسرى سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} في أسر اليهود وأصبح أهلها ٠٠ أهل فلسطين في خيام الهوان حيث لا وطن لهم يأوون إليه ولا بيوت ذات حجرات يسكنون فيها ولا حتى الأندية يجتمعون في رحابها.

ومن أعماق قلب شاعرنا (العريض) المغمس بالجراح ـ يأتي صوته في ديوانه ٠٠ في ملحمته (أرض الشهداء) حيث صور مواجع قبة الأقصى وحكى عن مجازر صيدا وشاتيلا وكل جهاد الشهداء في دجى الخطب من أجل رد كيد الأعداء وسحق ظلم الغاصبين إذ كان حال الفلسطينيين ولا يزال ـ حال مؤلم بعد العز فأرضهم نكبت ورياض حقولهم محيت حتى أصبحت شواظاً.

قال :

يادعد لقـد ضـاق بنا فـيـهـا المقـام
لا مـراعـينا كمـا كـانت ولا البيت الحـرام
أين جـمـيـزتنا ٠٠ في ظلهـا كنت أنام
سلم الجـزع فـقـد قطعـهـا القـوم الطغـام
أين شـاء كنت أرعـاها وللشـاء بغـام؟
لم تعـد منهـا ولا ثاغـيـة فـالكل هامـوا
أم غـدت مـسلوخـة فـاللحم غـال والطعـام
أين أصـحـابي ٠٠ حـمـدان وفـوزي وهشـام
بعضـهم يسـهـر مثلي ثاكلا والبعض نامـوا
شـتـت من شـمـلنا الأيام فـالدنيـا ظلام
والذى قـد نام منا خطه منهـا الرجـام
لا تقـولي: أين نمضي أين يمضي المستـهام

«وطن ضاع ٠٠ عليه من ضحاياه السلام»

وتجديد شعر العريض اقترن بالموهبة الأصيلة والصياغة الفنية، فأنتج منه صوراً منغمة من العواطف ونماذج ثرية بالذكريات.

فقلت لها ـ يامىّ ـ أما لروض ناضرا
ولا الطيـر أحلى مـا يكون لسـانا
يا حـسن من خـد تورد في الصـبـا
وأعـذب من ثغـر يفـيض بيـانا
قـد كـان أولى أن يبـيـع لبـعـضنا
عـوالم بعض في ربيع صـبـانا
ومـا قيـمـة الأزهار في جـانب الصبا
ألبس الصبـا ـ يا ميّ ـ أعظم شـأنا
أناشـدك الحب الذي عـهـدنا به
سـوياً كـأخـفـى مـا يكون مكانا

الى أن يقول:

تعـالى إلى عـهـد وثيق من الهـوى
نعـيش عليـه في الحـيـاة كـلانا

في المنهج وخصائص التفكير والبحث العلمي

بين المنطق والمنهج :

من المعلوم أن مصطلحى المنطق والمنهج كانا يدلان على مفهوم واحد، وهو العمليات العقلية التى يتوسل بها الانسان للوصول الى الحقيقة، ولكنه، مع التطور الكبير والاهتمام العلمي بالمنهج في عصر النهضة وما بعده، أصبح المنهج جزءا من المنطق مثلما كان المنطق جزءاً من الفلسفة أو مقدمة أو آلة لها.

د. شلتاغ عبود
ليبيا - جامعة سبها

وهناك من يقول بأن منطق أرسطو لم يكن صوريا محضاً، بل كان فيه جانب نظري، وهو الذي يدرس المبادىء العامة للتفكير، والذي سمي بـ (المنطق الصوري)، وجانب عملي يجسد هذه المبادىء في ميادين المعرفة، ولكن شراح ارسطو وتلاميذه بعده لم يعنوا الا بالجانب الأول[١]. واحتاجت مسيرة الفلسفة والعلم الى مرحلة طويلة من الجهد حتى تم الفصل بين الجانبين مرة أخرى، وصار المنطق يعنى بفن التفكير بمعنى عام، والمنهج يعنى بالطرق التى يتوصل بها الى الحقائق في ميدان العلوم والحياة العملية.

ولعلنا حين نستحقر التعاريف، أو جزءاً منها، لكل من المنطق والمنهج نستطيع أن نقترب من طابعهما وعلاقة كل منهما بالآخر. فلقد قيل في تعريف المنطق بأنه (علمُ قوانين الفكر)[٢].

أما المنهج فله تعريفات كثيرة نختار منها أنه (فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الافكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين)[٣].

ويتضح من هذين التعريفين، ومن غيرهما، أن المنهج يقترب الى الجانب العملي، لأنه يدرس موضوعاً معينا أو علماً معينا، مستعيناً بمبادىء المنطق، وإن كان هو الآخر له مبادىء نظرية وعقلية يجد لها تطبيقاً في ميدان معين. فهناك «حقيقة معينة»، اذن يبحث عنها المنهج، وليست حقيقة مطلقة: كما هو الشأن مع المنطق.

وسيكون الأمر معنا أكثر وضوحاً حين نتعرف على مصطلح آخر هو (البحث العلمي)، ومدى صلته بالمنهج.

بين المنهج والبحث العلمي :

مهما قيل عن «عملية المنهج» وتخصصه وقربه من حقيقة معينة وبحثه في العلوم التطبيقية أو الانسانية، فان الجانب النظري يبقى فيه ماثلا. فمازلنا نبحث عن مبادىء للوصول الى حقيقة معينة، مثلما كنا نتحدث عن مبادىء فن التفكير بشكل عام مع المنطق. وإننا

سنجد الميدان العملي التطبيقي الخالص لكل مفاهيم المنطق والمنهج، كذلك في المجال الذي نسميه «البحث العلمي».

فإذا قيل بأن علاقة المنهج بالمنطق هي علاقة الابن بالأب، فان علاقة البحث بالمنهج لا تقل عن هذه الدرجة الحميمة[٤]. وهذا الذى انتهينا إليه فيما يتعلق بالصلة بين المنهج والبحث العلمي بشكل خاص، هو ما انتهى إليه الباحثون في هذا المجال يقول الدكتور نجيب الحصادي: (المنهج - بغض النظر ما اذا كان علمياً أو غير علمي - مجرد فكرة تتم صياغتها في جملة من القواعد العامة التى يتوجب تطبيقها من قبل ممارسي النشاط المُعْنَى.

البحث العلمى في المقابل ليس فكرة، بل تحقيق عيني، وممارسة عملية لفكرة المنهج العلمي، إنه استقصاء منظم يتخذ من قواعد المنهج العلمي - في مجال تخصصي بعينه - وسيلة لتحقيق مقاصد بعينها من شأن تحقيقها تقريب أو تصعيد احتمال انجاز النشاط العلمي لمآربه)[٥].

إن شأن عالم المنهج كشأن المرشد الذي يخبر قومه عن الاتجاه الصحيح لسيرهم، أهو نحو المشرق أم المغرب، ولهم بعد ذلك أن يختاروا وسائل الوصول الى مبتغاهم. بمعنى أن البحث تتعدد اساليبه بتعدد موضوعاته ومادته في حين أن من شأن مبادىء المنهج الثبات والعموم.

وإذا كنا عرّفنا المنهج واتضحت أمامنا ملامحه، فإنه مما يزيد مصطلح «البحث العلمي» وضوحاً أن نذكر جانبا من تعريفات الباحثين له.

ومن هذه التعريفات تعريف (فان دالين)، وهو (المحاولة الدقيقة الناقدة للتوصل الى حلول للمشكلات التى تؤرق الانسان وتحيره)[٦].

وتعريف وتني (Whitney) (البحث استقصاء دقيق يهدف الى اكتشاف حقائق وقواعد عامة يمكن التحقق منها مستقبلا)[٧].

ولعلّ تعريف الدكتور ابراهيم رفيدة أكثر هذه التعاريف شمولا وهو (العمل العلمي الذى نتبع في القيام به خطوات المنهج العلمي، وننهج الطريقة العلمية بالتفكير والتأمل، وبذل اقصى ما نستطيع من القدرة والدقة والأمانة والتقصي لجميع الحقائق والمسائل المتصلة به، للحصول على معلومات جديدة، وربطها بمعلومات سبقت معرفتها، أو لتطوير معلومات معروفة من قبل، أو لتصحيحها وتقويمها أو تحقيقها وتوثيقها، ثم صياغتها في اسلوب موثق، أو قانون علمي عام)[٨].

وهذا التعريف فيه اشارات شاملة الى خصائص البحث العلمي، وأهدافه، فضلا عن صفات الباحث الذي يتصدى لعملية البحث ويكابد مصاعبها ويكشف عن أسرارها.

وما من شك في أن للبحث العلمي أدوات من قبل الملاحظة والمقابلات، والاستبيانات وتحليل المحتوى وأساليب القياس والخرائط والوثائق والوسائل الاحصائية الى غير ذلك من الوسائل التى تتعدد بتعدد البحوث والمعارف التى تعمل في اطارها. ومن أنواع البحوث ما يطلق عليه بالتنقيب عن الحقائق، ومنها ما هو تفسير نقدي، ومنها ما يشمل على عنصري التنقيب والتفسير ووضع التعميمات التى تساعد على حل المشكلات[٩].

أما أهداف البحث فهي أهداف العلم الذي يسعى الى التفسير والتنبؤ والضبط[١٠]، من خلال وضع القوانين العامة التى تساعد على فهم ما يحيط بنا وتفسيره وتوظيفه لخدمة الانسان وتحقيق مقاصده في

الحياة. وقديماً حدد علماؤنا مقاصد التأليف والغاية من البحث بأنها (اختراع معدوم، أو جمع مفرّق أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مخلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ)[١١]. وقالوا بأنه لا ينبغي لعاقل أن يؤلف أو يبحث دون أن يجعل بين عينيه بعض هذه الأهداف.

بعد هذا ننتهي الى التعرف على خصائص البحث العلمي بعد التعرف على ما هو اشمل منه، وهو التفكير العلمي، فهو أعم، والبحث العلمي أخص، والتفكير العلمي مبادىء عامة ونظرة للعلم ووظيفته واهدافه وتطوره، والبحث العلمي جانب تطبيقي لتلك المبادىء العامة، ولقد رأينا أن هناك خلطا لدى بعض الباحثين في الحديث عن هذه المصطلحات ، صحيح أن هناك تداخلا بين هذه المفاهيم، ولكن هذا لا يعفي من محاولة التعرف على الخطوط العامة المشتركة والمتميزة.

خصائص التفكير العلمي :

من خصائص هذا التفكير ما يأتي:

١ ـ التراكمية :

وهذا يعني أن ما ينجزه العلم اليوم ليس مقطوع الصلة بما أنجزه السابقون، بل هو متصل به ومشيد عليه، على اختلاف في درجة هذا الاتصال، فقد تكون الإضافة ضئيلة في ميدان علمي، وقد تكون كبيرة، وفي بعض الأحيان تلغي العلم القديم وتؤسس لمبادىء من العلم جديدة. ولكن هذا لا ينفي مبدأ «التراكمية» الذى يعني وجوب الاعتداد بجهود السابقين والتأسيس عليها[١٢]، ويمكن القول بشكل عام أن المعارف العلمية يتجاذبها امران: هما الثبات والتغير، الثبات على ما فرض مصداقية ثباته على العلماء في الماضي والحاضر (دون الالتزام بالقول في انه سيبقى ثابتا في المستقبل)، والتغير الذي يعترى العلم حيث يضيف اللاحقون للسابقين ما يجب تغييره وفق معاييره الحقيقية.

٢ ـ التنظيم :

لا تكف عقولنا عن التفكير، ولكن ثمة فرق بين تفكيرنا التلقائي وتفكيرنا المنظم الواعي. واذا كنا نحرص على تنظيمنا لتفكيرنا وأسلوب ممارساتنا العقلية، فانه ينبغي أن نحرص ـ كذلك ـ على تنظيم العالم الخارجي، ولا نقتصر على تنظيم حياتنا الداخلية فقط[١٣].

ولم يكن هذا التنظيم يحيط بنا او ما ننوي عمله في مجال العلم غير اصطناع «المنهج» الذى يقودنا خطوة خطوة نحو النتائج الصحيحة. ومن المعلوم أن خطوات المنهج العلمي الذى يقوده التفكير العلمي هي الملاحظة والفرض والتجريب والاستنتاج، على شيء من التفصيل.

٣ ـ البحث عن الأسباب :

حين نريد التعرف على ظاهرة كونية أو علمية نتساءل بـ لماذا؟ للتعرف على سبب حدوثها، وكأن هذا ميل فطري في ذواتنا، فضلا على أن هناك توجيها علميا يدعونا الى التحكم في الظواهر بمعرفة اسباب نشوئها[١٤].

على أن هذه القضية ليست سهلة، فهناك ما يصعب علينا فهم اسبابه لأنه خارج نطاق قدرتنا، او لأننا لم نستطع أن نهتدي إليه بعد.

مهما يكن، فإن هناك خلافاً فلسفياً حول ضرورة أن يكون لكل سبب مسبب، أو أن يكون لكل علة

معلول. فقد قال الفيلسوف الانجليزي (ستيوارت مل) بفكرة التتابع، أي أننا نلاحظ تتابع حادثتين في عدة حالات، فيغلب على ظننا ضرورة أن احداهما توجد الأخرى.

وهذا مما ادى الى أن ينكر (برتراندرسل) فكرة السببية إطلاقاً[١٥]. الا أن الفكرة ـ عملياً ـ قائمة، وأن العلم يحاول أن يجد السبب للظواهر، وأن العقل يعتمد على قوانينه في هذا المجال، دون أن يشتط به الحال الى البحث عن سبب العلة الاولى فينتهى الى الاستحالة والتسلسل والدور الذي يرفضه المنطق العقلي.

٤ ـ الشمولية :

بمعنى أن الظاهرة التى يبحث فيها العلم لا تمثل حالتها الجزئية، ولا تتعلق باحساس فرد معين، بل هي تشمل كل الظواهر المماثلة، وأن اي عقل باحث سوف يقتنع بالنتائج التى توصلت إليها المعرفة العلمية لهذه الظاهرة، وهذا يؤدي الى ظهور نوع من اليقين بشمولية الظاهرة، وهو يقين ليس فرديا أو نفسيا، بل يقين قائم على براهين وأدلة منطقية[١٦].

٥ ـ الدقة والتحديد :

فارق كبير بين لغة الحياة اليومية التى نصطنعها في معاملاتنا، واللغة التى هي حصيلة التفكير العلمي. فبينما تقوم الاولى على الذاتية، وعنصر الاحتمال، تقوم الثانية على الدقة والوضوح والتمييز.

وهذا التفكير ينقلنا الى التعبير عن الأشياء تعبيراً كمياً، وليس كيفياً، بمعنى أننا لا نصف الأشياء وصفاً خارجيا، بل نحدد درجة كمها. ففرق واضح بين قولنا: الحديد ساخن، وقولنا: درجة حرارة الحديد (٣٥٠) درجة مئوية.

وهذا معنى أن لغة العلم تتجه نحو التجريد، وتستخدم الارقام الرياضية، او الرموز والاشكال التى تصاغ بها قوانين العلم[١٧].

هذه المفاهيم قد نجد صعوبة في عزلها عن خصائص البحث العلمي، لأنها تمثل الأرضية التى ينطلق منها البحث.

خصائص البحث العلمي :

١ ـ ينطلق البحث العلمي من مسلمات وافتراضات تقوم عليها الطريقة العلمية، من مثل مسلمة الانواع الطبيعية، أو الثبات والحتمية[١٨]. مع فارق واضح في هذه المسلمات بين البحث في العلوم الطبيعية والعلوم السلوكية والانسانية. ولكن هذا لا يمنع من وجود نظريات عامة راسخة نوظفها في تفسير الواقعة المراد تفسيرها، وننتهي بها الى التفسير السليم الصحيح[١٩].

٢ ـ الملاحظة والتجربة هي مبدأ البحث العلمي، فالباحث يختبر فروضه ونظرياته ميدانيا وعلميا، متدرجاً من المحسوس الى المعنى، او من الاشياء الى المجردات، وذلك حين ينتهي الى صياغة قانونه الذى تمخض عن التجريب المكرر الذى يمر بتحليل الظواهر الجزئية والانتهاء الى طابعها الكلي، كما سنلاحظ في عملية التحليل والتركيب العلميين. وقديما كان الجاحظ يقول: (أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب)[٢٠]. وكان الاطباء المسلمون لا يقيمون وزناً للذى لا يعنى بالتجارب في دوائه أو علاجه[٢١].

٣ ـ امكان الاختبار (الأمبيقي): ومعناه أن التجربة العلمية، ليست قضية فردية أو شخصية، بل هي قضية يمكن التحقق منها، وان هناك طريقة لاختبار صدقها.

وحين تكون صادقة فهي صادقة في الظروف والمناسبات جميعها. وهذا ما يسمى بثبات الصدق.

إن اي عالم يتوصل الى حقيقة علمية، يمكننا أن نلقي عليه السؤال التالي: كيف توصلت الى هذه الحقيقة؟ وما يمكن الا أن يبين السبل العملية التى أوصلته الى تلك الحقيقة، وبامكاننا التحقق من صحة دعواه[٢٢].

٤ ـ ومن الخير للبحث العلمي الا يعتمد في خطواته واستنتاجاته على منهج واحد، بل يوظف الاستقراء في موضع، ويوظف الاستدلال في موضع آخر. وقد يلجأ الى المنهج النقلي في حين ثالث[٢٣].

فالمادة العلمية تفرض طريقة خاصة في معالجتها والسير مع خطواتها. فالمنطق والرياضيات والتجريب كل هذا في خدمة البحث. وما هذه المناهج الا وسيلة للوصول الى الحقائق. وقديما التفت علماؤنا الى القول بـ (أن العيون لتخطىء، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع الا للذهن)[٢٤]. وهذا يعني عدم الاعتماد على الحواس وحدها، ولابد من تدخل العقل للحكم والاستدلال والاستنباط.

الهوامش :

(١) المنطق الصوري، أسسه ومباحثه، د. علي عبد المعطي محمد ود. محمد قاسم، دار المعرفة الجامعية، ط ١، ١٩٩٤، ص ٢١.

(٢) مدخل الى المنطق الصوري، د. محمد مهران، دار الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٧٥، ص ٨.

(٣) مناهج البحث العلمي، د. عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤.

(٤) منهج البحث التاريخي عند البيروني، عادل محيي شهاب، رسالة ماجستير مخطوطة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٠، ص ٥١.

(٥) نهج المنهج، الدار الجماهيرية، طرابلس، ط ١، ١٩٩١، ص ١١٥.

(٦) مناهج البحث في التربية وعلم النفس فان دالين، ترجمة محمد نبيل نوفل وآخرين، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧، ص ١.

(٧) أصول البحث العلمي ومناهجه، د. احمد بدر، وكالة المطبوعات ، الكويت، ط ٧، ١٩٨٤، ص ٤٣.

(٨) مقدمة لدراسة مناهج البحث العلمي، د. ابراهيم رفيدة، بحث في مجلة كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ع ٦، ١٩٨٩، ص ٢٠.

(٩) اصول البحث العلمي ومناهجه، ص ٢٦.

(١٠) مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ص ٥٨.

(١١) ينظر منهج البحث في العلوم الاسلامية، د. محمد الدسوقي، دار الاوزاعي، بيروت، ط ١، ١٩٨٤، ص ٥٧.

(١٢) نهج المنهج ، ص ١٥٢.

(١٣) التفكير العلمي، د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ع ٣، مارس ١٩٧٨، ص ٢٧.

(١٤) المصدر السابق، ص ٣٧.

(١٥) فلسفتنا، محمد باقر الصدر، المجمع العلمي، طهران، ط٢، ١٤٠٨هـ، ص ٢٦١.

(١٦) التفكير العلمي، ص ٤٦.

(١٧) نفسه، ص ٥٠.

(١٨) اسس البحث العلمي في العلوم السلوكية، د. فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢، ص٦.

(١٩) اسس المنطق والمنهج العلمي، د. محمد فتحي الشنقيطي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٧٠، ص ١٨٣.

(٢٠) البحوث الأدبية، مناهجها ومصادرها، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٥٠.

(٢١) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، د. فرانتز روزنتال، الدار العربية، طرابلس، ط ٤ ، ١٩٨٣، ص ١٤٦ (ترجمة د. أنيس فريحة).

(٢٢) نهج المنهج، ص ١٠٠.

(٢٣) مناهج البحث الاجتماعي، د. عمر التومي الشيباني، الشركة العامة للنشر، طرابلس، ط ٢، ١٩٧٥، ص ٥٦.

(٢٤) البحوث الأدبية مناهجها ومصادرها، ص ٥٣.

الترجمة .. أصولها ومناهجها

إن حاجة أى أمة من الأمم الى الترجمة، حاجة ماسة وأكيدة، وبخاصة في هذا العصر الذى نعيش فيه، إذ اتسع مجال الاتصالات بين الشعوب، وتبع هذا تبادل المنافع بينهم عن طريق الترجمة، ونقل الآثار العلمية من لغة الى أخرى.

ولعل للعرب ـ قديما ـ الفضل في تنبيه الأذهان، وتفتيح الآذان إلى أهمية الترجمة وفاعليتها، وذلك بترجماتهم للثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية.

وليس من الغريب أن يقال: إن أول حركة خطيرة للترجمة في التاريخ، إنما ظهرت على أيدى العرب في أواخر العصر الأموى، ثم انتشرت واسعا في العصر العباسي، حيث تناولت ضروبا عديدة من النتاج العقلي، بفضل تشجيع الخلفاء للترجمة، حتى ليروى أن الخليفة المأمون كان يعطي على الكتاب المترجم وزنه ذهبا![١].

كما أنشأ الخليفة المأمون في بغداد سنة ٨٣٠م معهدا رسميا للترجمة، مجهزا بمكتبة أطلق عليه اسم «بيت الحكمة» فكان هذا المعهد ـ من وجوه كثيرة ـ أهم المعاهد الثقافية التى نشأت بعد الفتح الإسكندرى، والتى أسست في القرن الثالث قبل الميلاد، وفي حدود سنة ٨٥٦م جدد الخليفة المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد.

وإن كان قد سبق هذه الحركة الواسعة في الترجمة حركات من جانب غير العرب ـ إلا أنها كانت في المجال السياسى فقط، كما كان من القياصرة الأكاسرة، إذ كانوا يتخذون في دواوينهم تراجمة، وكذلك فعل القدماء من المصريين والحيثيين.

غير أن للعرب الفضل في أن جعلوا من الترجمة صناعة هامة، وعملا فنيا خطيرا؛ حيث بذلوا من أجله جهودا كبيرة، حتى أصبح للترجمة هذا المكان العظيم عند سائر الشعوب.

مفهوم الترجمة :

يذكر ابن منظور في اللسان: أن التَّرجُمان والتَّرجَمَان: المفسِّرُ للسان. وفي حديث هرقل: قال لتُرجُمانه، التُرْجُمَان، بالضم والفتح: هو الذى يُترجمُ الكلام، أى ينقله من لغة إلى لغة أخرى، والجمع: التراجم، والتاء والنون زائدتان[٢].

عدة المترجم :

الترجمة نظام دقيق، يحتاج ممن يخوضه أن يتسلح بما يلى:

١ ـ أن يكون قد أعد إعدادا فنيا يناسب المادة التى يتولى ترجمتها، ولا يكفى للمترجم الذى يمارسها أن يكون ملما إلماما جيدا باللغة المنقول عنها، واللغة المنقول إليها.

٢ ـ لابد للمترجم أن يكون له الصلاحية التامة من الناحية اللغوية والفنية، ولكل فن نظامه الخاص في الترجمة.

٣ ـ كل علم من العلوم له جهاز خاص من حيث الأسلوب والمصطلحات وطريقة الأداء، ونحو ذلك من اللوازم التى لابد أن يكون المترجم ملما بها ومتمرسا



أ.د. محمد السيد على بلاسي

أكاديمى - خبير دولى - عضو اتحاد كتاب مصر

عليها، قبل أن يعالج ترجمة أى أثر من الآثار[٣].

٤ ـ أن يتسلح المترجم بثقافة واسعة من الناحيتين: اللغة المنقول عنها والمنقول إليها.

٥ ـ أن يكون عالما بدلالات القاموس العادية والشائعة[٤].

٦ ـ دراية المترجم بموضوع الترجمة ومعرفته بالعالم واستخدامه للمنطق السليم وقدرته على الفهم السليم للأشياء[٥].

ألوان الترجمة :

وضح لنا مما تقدم: أن الترجمة ظاهرة طبعية، ترتبت على اختلاف الشعوب والجماعات، وتجاورها، واتصال بعضها ببعض. وهى ظاهرة تزداد قوة ووضوحا على مر الزمن، وتطورت في مختلف شكولها وأنواعها على مر القرون، وتطورت خصائصها بتطور الجماعات البشرية نفسها، وتنوع نشاطها والظروف التى تحيط بها. وتدرجت من حال إلى حال شأن كل مظاهر الحياة البشرية.

والترجمة منذ كانت وحتى الآن تنقسم الى ثلاثة أقسام :

أولا : الترجمة الشفوية :

ويعتمد عليها تلك الشعوب التى لم تعرف للكتابة سبيلا، إذ تستخدم هذا النوع من الترجمة في معاملاتها مع غيرها من الأمم. ولا يزال هذا اللون قائما الى يومنا هذا في كثير من الأقطار، إذ من المعلوم أن هناك لغات في العالم ـ لعلها أكثر عددا من غيرها ـ لم تعرف الكتابة في أثناء عمرها الطويل. ولا يزال أصحاب تلك اللغات يمارسون الترجمة الشفوية في تنظيم علاقتهم بجيرانهم.

غير أنه ثمة وظيفة أخرى للترجمة الشفوية؛ إذ تستخدم في محاورات الساسة ومفاوضاتهم، كما تستخدم في الاجتماعات الدولية الكبيرة، التى يشهدها مئات من الأشخاص من مختلف أنحاء العالم وأصقاعه، كالاجتماعات الدورية ـ مثلا ـ لرابطة العالم الإسلامى، أو المنظمات الدولية المتخصصة.

وقد تطور نظام الترجمة الشفوية في هذه الاجتماعات وتطور منها ما يسمى (الترجمة الفورية)، حيث يضع كل من الحاضرين سماعة على أذنية، يسمع بها الحديث بأى لغة يشاء من اللغات الرسمية، وهى الآن: الفرنسية والإنجليزية، والعربية، والاسبانية، والروسية.. فأيا كانت لغة الخطيب، فإن هناك أشخاصا يترجمون على الفور، الى كل لغة من اللغات المذكورة.

ثانيا: الترجمة التحريرية :

وتعنى نقل مفهوم الكلام من لغة الى أخرى نقلا تحريريا في أى مجال من المجالات.

وفرق بين الترجمة التحريرية والشفوية: لأن العبارة الشفوية مهما كان شأنها لا تعدو أن تكون عبارة عابرة، والترجمان الشفوى قلما يحاسب على دقة اللفظ وحسن اختياره، وهو مضطر عادة الى الإسراع كيلا يعطل السامع والمتكلم، أما الذى يترجم تحريريا، فإنه عادة لابد له يتوخى الدقة في النقل، حتى تكون الترجمة صورة صادقة بقدر الإمكان[٦].

في أواخر العصر الأموي ظهرت أول حركة للترجمة

نشاطات الترجمة التحريرية :

(أ) نشاط ديواني أو مصلحي أو صحفي : إذ أن كثيرا من الهيئات يدخل في صميم عملها أن تتصل بهيئات أجنبية، كما تتلقى رسائل بلغات أجنبية، ولابد في كلتا الحالتين من الترجمة من لغة الى أخرى. ويدخل تحت طي هذا النشاط، الترجمة المتصلة بحرفة الصحافة؛ حيث لا تعدو نقل الأنباء الخارجية.

وهذا اللون من الترجمة لا يجد المترجم فيه كبير عناء في ممارسته، فضلا عن أنه ينجز بسرعة تكاد تكون ألية.

(ب) نشاط سياسي: ويتناول الرسائل الخطيرة بين أشخاص ذوى خطر من أمثال: الملوك والرؤساء والأمراء والزعماء، وكثيرا ما يتطلب ترجمة هذه المراسلات إذا كانت بلغة غير لغة المرسل إليه.

(جـ) نشاط يتناول الآثار العقلية: وهو الذى يتصل بأمر مستقر ثابت على مدى الأيام؛ ولذلك يجب ويتطلب في إنجازه كثيرا من العناية والتأني؛ لأن الترجمة هنا تتناول بعض الآثار العقلية، تلك الآثار التى يتألف منها التراث الثقافى لكل جيل من الناس.

هذا الطراز من الترجمة للآثار الفكرية هو الطراز الخطير؛ حيث إنه يتناول المؤلفات التى ترجع الى جميع العصور قديمها وحديثها. والذى يعتبر أهم مظاهر النشاط للمترجمين في وقتنا هذا.

ومع أن ما يكتبه الكتاب وما يؤلفه المؤلفون لا يكون دائما من الآثار الباقية، والتى تستحق البقاء، فإن المترجمين لا ينشطون لترجمة أى أثر إلا إذا رئى أنه يستحق البقاء ولو إلى حين.

وترجمة الآثار العقلية يطلق عليها بعض الكتاب: (الترجمة الفنية)، نظرا لأنها تحتاج - بحق - إلى خبير متمرس يقوم بترجمتها وفق نظام معين فكم من كتاب ضاعت فائدته حين أسندت ترجمته الى شخص غير خبير بمادة الكتاب، فلم يستسغه القراء، ولم يستطع مترجم آخر أن يجازف بترجمته، لأن الكتاب من الوجهة النظرية قد ترجم فعلا، وملأ رفاف المكتبات، وسيظل في الأغلب الأرجح متبوأ مكانه على تلك الرفاف لا يبرحها.

أقسام الترجمة الفنية :

إن ترجمة الكتب والمقالات والرسائل، مع اختلاف موضوعاتها، قد دعا الكتاب لأن يكونوا شديدى العناية والحرص بهذا الضرب من النشاط، أسوة بسائر ضروب النشاط الفكرى، ولذا فقد قسموا هذا اللون من الترجمة الى أقسام ثلاثة ناظرين الى ناحيتين: الأولى: مادة الكتاب، والثانية: طريقة الأداء والأسلوب واضعين في الاعتبار مؤهلات المترجم في كل قسم من الأقسام الثلاثة:

القسم الأول:

ما كانت المادة أهم شيء في الكتاب، ويجيء الأداء والأسلوب في المرتبة الثانية، كالمواد العلمية - مثلا - من رياضة وطبيعة وفيزياء وهندسة وكيمياء.. وهذا اللون

لابد لمن يتصدى لترجمته أن يكون على علم بأصول العلم الذى ينقله وبمصطلحاته في اللغتين: المنقول عنها والمنقول إليها.

القسم الثاني :

ما كانت مادة الكتاب في المكان الأول، ونافستها في هذه المكانة: سلامة الأسلوب وطريقة الأداء. ويدخل في هذا الباب: العلوم الاجتماعية والفلسفية وكتب السياسة والتشريع.. ولابد لمن يتصدى لترجمة هذا اللون: أن يكون أسلوبه رصينا، سهل التناول، بعيدا عن التعقيد والإغراب، وأن يكون ملما بالموضوع الذى يترجمه إلمام الخبير به المحيط بجميع أطرافه.

القسم الثالث :

ما كان جمال الأسلوب وحسن الأداء وروعة العبارة، من أخص مميزات الكتاب، إلى جانب غلبة عنصر الخيال والابتكار عليه، وهذا بالطبع هو العمل الأدبى الذى يشمل الشعر والنثر الفنى والقصصى والمسرحيات والروايات والمقالات الأدبية.

الآثار الأدبية .. والترجمة :

والترجمة الأدبية من أهم الموضوعات جميعاً في الترجمة، لأن الآثار الأدبية تتبوأ أعلى مكان في الحياة الثقافية والتراث الثقافى لكل أمة، لذلك كانت ترجمة الآثار الأدبية أهم وأوسع نشاط في ميدان الترجمة كله فهى الترجمة التى لابد للمترجم أن يتخير لها اللفظ، وأن يعنى فيها بجمال العبارة كعنايته بنقل ما اشتملت عليه من المعانى: فالكلام الجميل يجب أن ينقل إلى كلام جميل .. وما يحسه من يقرأ الأصل يجب أن يشابهه من يطالع الترجمة..

لذا كان على القائم بترجمة الآثار الأدبية، أن يمتثل لما يلى، حتى يأتى بالثمرة المرجوة من ترجمته:

١ ـ أن يكون أديباً راسخ القدم في التأليف الأدبى.

٢ ـ يجب أن يكون ملما بالأصول السليمة للقيام بعمل الترجمة.

٣ ـ يجب أن يقرأ العمل الأدبى جميعه.

٤ ـ محاولة نقل الآثار والأمثال إلى عبارات أدنى إلى ذلك.

٥ ـ المحافظة على روح النص[٧].

لاهتمامهم البالغ بالترجمة، المأمون كان يعدل ثمن الكتاب المترجم ذهبا

ثالثا : الترجمة الآلية :

ازدادت أهمية الترجمة في السنوات الأخيرة واتسع دورها في المنظمات الدولية المختلفة التى تتطلب ترجمة الوثائق الحكومية المقدمة من الحكومات المشتركة بها إلى لغات أخرى كما هو ملاحظ في السوق الأوروبية المشتركة التى تنفق أكثر من نصف ميزانيتها على الترجمة ويحتاج العلماء الى ترجمة سريعة للتقارير ونتائج الأبحاث التى ينشرها أقرانهم بالبلدان الأخرى. كما تقوم وكالات الاستخبارات للعديد من الدول بترجمة كميات هامة من الوثائق والمعلومات.

وتجد هذه المنظمات صعوبة في الحصول على المترجمين المؤهلين القادرين على ترجمة هذا الكم الهائل من المواد. وليس أدل على

العرب في عصورهم الزاهرة جعلوا من الترجمة صناعة لها رجالها وصانعوها

ندرة المترجمين من قيام هيئة الأمم المتحدة بتعيين مترجمي اللغة العربية وتدريبهم على نفقة الأمم المتحدة لعدم توافر المترجم الجيد الذى يمكن أن يمارس عمله فور تعيينه. وفي ظل عالم تحركه الاقتصاديات يصبح الأمل في أن يقوم الحاسب بالترجمة أربعا وعشرين ساعة يوميا دون إجازة أو علاوة بما يستحق أن تنفق من أجل تحقيقه الأموال.

ومنذ ظهور الحاسب الرقمي Digital Computer في أواخر الاربعينيات فكر علماء الحاسب في الاستفادة من سرعته الفائقة في البحث عن الكلمات وإمكانية تخزين القواميس ثنائية اللغة فيه لعمل برمجيات للترجمة من لغة لأخرى[٨].

ولقد مرت برمجيات الترجمة الآلية منذ الخمسينيات حتى الوقت الحاضر بمراحل وتطورات نجملها فيما يلي:

الجيل الأول : ١٩٤٦-١٩٦٦م :

تركزت المحاولات الأولى في الولايات المتحدة على الترجمة بين اللغة الروسية واللغة الإنجليزية، وكان التصور لدى علماء الحاسب أنه يمكن استخدام طرق حل الشفرات السرية التى اعتمدت على تحليل تكرار الحروف والكلمات في عملية الترجمة الآلية. وكان القاموس ثنائى اللغة من أهم مكونات برمجيات الترجمة. وكانت عملية الترجمة تتم على النحو التالي: يدخل النص المطلوب ترجمته الى الحاسب الذى يقوم بمطالعة النص كلمة كلمة ويبحث عنها في القاموس وعندما يجدها يستخرج الكلمة المقابلة لها باللغة الأخرى ويضيفها الى النص المترجم دون أى محاولة لفهم النص أو حتى تحليله من الناحية الصرفية أو النحوية أو الدلالية. وكان الأمر لا يزيد في حقيقته عن كونه ترجمة حرفية أى كلمة بكلمة. على أنه في بعض الأحيان كان يأتى بنتائج مشجعة.

فلتتصور مثلا - أننا أدخلنا الى الحاسب أحد القواميس (إنجليزى - عربى) وطلبنا من الحاسب ترجمة الجملة التالية: Ali left for Cairo yesterday، سيبحث الحاسب عن الكلمة الأولى في القاموس ثنائى اللغة الذى سيتضمن بالطبع أسماء الأعلام وسيجد أمام كلمة (Ali) اللفظ العربى «على» فيضع اللفظ العربى على رأس نص الترجمة ثم يبحث عن الكلمة الثانية وهكذا وعندما ينتهى يكون قد كون الجملة التالية: على غادر الى القاهرة أمس.

وليس من الصعب ادخال بعض المعلومات الى الحاسب كوضع الفعل في أول الجملة العربية دائما وبهذا نحصل على الجملة: غادر على إلى القاهرة أمس.

ونظرا لأن التجارب الأولية قامت على جمل محدودة مثل المثال الذى أعطيناه أعلاه، فقد تحمس العلماء لإمكانية بناء برامج لترجمة كافة النصوص، وتدفقت الأموال لتمويل العديد من الأبحاث في هذا المجال.

ونستطيع أن نوجز سمات المحاولات الأولى فيما يلي:

١ - الاعتماد على القاموس الالكتروني ثنائي اللغة.

٢ - استخدام طرق حل الشفرات السرية.

٣ - إعادة ترتيب الكلمات.

٤ - اعتبار الكلمة هي الوحدة اللغوية الأساسية للترجمة.

٥ - كان من أهم المشاكل اللغوية هى الكلمات التى تنتمى لأكثر من نوع صرفى Homographs.

٦ - عدم دراسة تأثير السياق على معانى الكلمات.

٧ - لم يكن للتحليل الدلالى دور في برمجيات الترجمة الآلية. وكانت التوقعات كبيرة جدا نوجزها فيما يلي:

أ - أن يقوم الحاسب بعمل المترجم.

ب - أن تكون دقة الترجمة بنسبة ٩٥٪.

جـ - سرعة فائقة للآلة.

د - أن تقوم الآلة بترجمة أى نص سواء كان نصا علميا أو أدبيا.

إلا أن العلماء فوجئوا بمدى تعقيد اللغة الإنسانية وكم المعلومات الهائل المستخدم في الترجمة. فاللغة الإنسانية غامضة بطبيعتها ومعظم الجمل لها معان مختلفة ونحن لا ندرك هذا لأننا نسمع الجمل في سياق معين ونستخدم معرفتنا بالعالم كى نختار تلقائيا المعنى المقصود.

وقد أدرك العلماء في الستينات استحالة قيام الحاسب بعملية الترجمة في ظل التقنية المتاحة في ذلك الوقت، ودارت تقارير العلماء حول القضايا التالية:

الفرضية الأولى : تتطلب الترجمة الجيدة حدا أدنى من فهم النص.

الفرضية الثانية : من الصعب جدا أن يقوم الحاسب بفهم النص.

النتيجة المنطقية : الترجمة الآلية غير ممكنة.

ومن ثم، صدر قرار أكاديمية البحث العلمى بالولايات المتحدة في عام ١٩٦٦م بعدم جدوى البحث في هذا المجال ووقف التمويل.

الجيل الثاني : الثمانينيات :

ويرى أنه وإن كانت الترجمة الجيدة تتطلب حدا أدنى من فهم النص إلا أنه لم يعد من الصعب الآن أن يقوم الحاسب بفهم النص، بحيث أصبح من الممكن لدى الحاسب الآلى أن يفهم النصوص اللغوية عن طريق استخدام تقنية الذكاء الاصطناعي[٩].

ولقد توصل - مؤخرا - بعض علماء وخبراء الكمبيوتر لاختراع كمبيوتر لا يتعدى حجم حقيبة اليد الصغيرة.

وذكروا أنه يعتبر أول مترجم فورى نقال محمول في اليد، يقوم بترجمة العديد من الجمل التى يسمعها من لغة معينة الى عدة لغات.

وأشار هؤلاء العلماء إلى أن هذا الجهاز لا يتعدى وزنه نصف كيلو جرام، ويعمل بالبطارية، ويلحق به أشرطة صغيرة في حجم اليد، وكل شريط مختص بلغتين معينتين يترجم بينهما مثل: الإنجليزية والفرنسية.. تستطيع أن تختار الشريط حسب اللغة التى تريد التعامل معها، وتضعه داخل الجهاز لتحصل على مترجم

الترجمة ليست مجرد نقل حرفي للكلمات

فورى رهن إشارتك[١٠].

وقد استخدم في هذا الاختراع علم الذكاء الاصطناعي[١١] خاصة في برامج الترجمة، وهو يعد من أحدث العلوم المستخدمة في الكومبيوتر.

مشكلات الترجمة :

أولا مشكلات عامة :

١ عدم التناسب بين الفنون المترجمة:

فإن هناك إسرافا في بعض النواحي، وتقصيرا في بعض العلوم ولا شك أننا بحاجة الى تنسيق جدى تحت إشراف هيئة مختصة، تعمل على الموازنة بين النتاج المؤلف والمترجم.

٢ ـ الترجمة الحرفية :

يحكى أن علماء الاتحاد السوفييتى اهتدوا الى صنع آلة تتولى الترجمة فما عليك إلا أن تضع الكلام الإنجليزى في ناحية، فتخرج العبارة الروسية من الجانب الآخر.. وقد أراد زائر انجليزى أن يختبرها بالمثل الانجليزى المشهور (Out of sight out of mind) أى البعيد عن النظر بعيد عن العقل. فإذا بالآلة الالكترونية تترجمه: (Invisble Idiat) أى معتوه لا يرى؟! ومع أننا نضحك من هذه الترجمة، إلا أنها ترجمة حرفية في غاية الدقة، فالشيء إذا كان بعيدا عن العين فهو لا يرى، كما أن الشيء البعيد عن العقل من معانيه: فقد الإدراك، فهو إذاً معتوه!

ولو أردنا أن نترجم ـ وبخاصة الآثار الأدبية ـ بهذا الأسلوب الحرفي، لأدى ذلك ـ لا محالة ـ الى قلب المفهوم في كثير من الأحيان. فالأمانة في الترجمة إذن.. هى الأمانة على المعنى أكثر مما هى أمانة على اللفظ[١٢].

غير أنه من الممكن استعمال تلك الآلة الحرفية في ترجمة الحقائق العلمية وبذلك تعطى نتائج باهرة! فضلا عن أنه يمكن استخدام تلك الآلات في ترجمة المحادثات وغيرها بعد برمجتها بعلم الذكاء الاصطناعى، وبذلك تعطى المطلوب، كما وضحنا ـ آنفا ـ عند الحديث عن الترجمة الآلية وآخر التطورات التى وصلت إليها.

٣ ـ إسناد الأمر الى غير أهله:

من الغريب أننا لا نطالب البناء أو النجار ـ مثلا ـ بأن يصنع لنا ثوبا نلبسه، أو حذاء نحتذيه، ولكننا مع ذلك ربما كلفنا صحفيا من الدرجة المتوسطة أن يترجم كتابا في الفلسفة أو الأدب اعتمادا على معرفته اللغوية؟!!

٤ ـ الترجمة غير الأمينة:

ونجد ذلك في ترجمات كثير من الكتب، حيث يقوم المترجم بمسخ صورة الكتاب عن طريق عدم نقله الكلام كما هو في الأصل المنقول عنه، بل وإضافة أشياء في صلب الترجمة لم يذكرها صاحب الكتاب! ونرى ذلك بوضوح في ترجمة د. عبد الرحمن أيوب لكتاب: «اللغة بين الفرد والمجتمع: أوتوجسبرسن»، حيث مصَّر الأمثلة الإنجليزية الواردة في الكتاب بل وجعلها بالعامية فضلا عن أنه شوه صورة الكتاب بعدم النقل عن ما جاء في المصدر الأساسى؟!.

٥ ـ وجود كلمات في لغات غير موجودة في العربية:

وهنا يتعين على المترجم أن يترجم ترجمة جملية.

٦ ـ عدم فهم دلالات الألفاظ الشائعة :

وبذلك يجب على المترجم أن يكون عالما بدلالات القاموس وكذا الدلالات الشائعة، حتى لا يقع فيما وقع فيه مترجم «كامب ديفيد» حين ترجم لفظ «الخصم» بمعنى «العدو» والمفروض أن يترجمها بمعنى «الطرف الآخر» حيث إن الموقف يستدعي ذلك.

٧ ـ عدم سلامة اللغة:

فكثير من المترجمين لا يحسنون الكتابة بلغة الضاد، فنراهم يخترعون وينحتون كلمات لم نسمع بها ولم تعرفها اللغة العربية في كل مراحلها التاريخية، وكل هذا بسبب التأثر المباشر بالأساليب المترجمة، دون النظر الى الأصول والقواعد التى تفرضها طبيعة اللغة العربية.

وندرج هنا بعضا من الترجمات الخاطئة، التى نتجت بسبب جهل المترجمين بلغتهم الكريمة:

أ ـ يقولون : «انتظرتك لساعتين». وهذا خطأ فاللام لا تدخل على الظرف وهذا الخطأ ناتج عن الترجمة الفاسدة لجملة: I waited you tor two hour والصواب : انتظرتك ساعتين.

ب ـ يقولون : «كلما عمل، كلما ربح». وهذا خطأ، فلا يجوز تكرار الظرف الشرطى. وهذا التركيب المخطوء جاء من الترجمة المخطوءة للجملة الإنجليزية: (The more he works, The more he earns).

والجملة الفرنسية: (Plus il travaille, Plus il gagne) والصواب: «كلما عمل» ربح. كقوله سبحانه وتعالى: **{كلما دخل عليها زكريًا المحراب وجد عندها رزقا}** (آل عمران/ ٢٧).

جـ ـ يقولون : «في الوقت ذاته» وهذا خطأ، لأن «ذات» ليست من ألفاظ التوكيد المعنوى عند النحاة العرب، وحصل نتيجة ترجمته خطأ عن الجملة الإنجليزية (At the same time) والصواب: في الوقت نفسه.

هذا، وهناك أساليب تفوح منها رائحة العجمه واللحن، نحو كم هو جميل؟، والصواب: «ما أجمله؟» أو «جميلة هي الحياة» والصواب: «الحياة جميلة». إذ لا يصح الابتداء بالنكرة[١٣].

ثانيا : إشكالية الترجمة الآلية :

١ ـ لا يمكن أن تكون الكلمة هي وحدة الترجمة الأساسية، بل للترجمة أن تكون على مستوى الجملة والفقرة فكثير من الكلمات تتحدد معانيها من خلال ما يرد قبلها وبعدها من كلمات. ولم يؤد الاعتماد على القاموس ثنائى اللغة الى حل مشكلة الترجمة إطلاقا. فإذا أدخلنا قاموس المورد الى الحاسب لكى تستخدمه برمجيات الترجمة الآلية لترجمة الجملة التالية:

(While Driving Down Route 72, John Swerved and Hit Atree)

فلو أخذت البرمجية تبحث عن معانى الكلمات في القاموس لوجدت أمام كلمة يسيرة مثل (Hit)؟ مالا يقل

ترجمة الكتب أمانة علمية لا يقوم بها إلا الاكفاء من المتخصصين

أخطاء المترجمين أدخلت مصطلحات جديدة خاطئة على اللغة العربية

عن ١٢ معنى والاشكالية هنا في كيفية اختيار المعنى المرادف لهذه الكلمة كما وردت في الجملة بالذات، والسؤال المطروح هنا هو: ما هي القوانين التى يمكن أن يستبعد الحاسب على أساسها الأحد عشر معنى الأخرى لكلمة (Hit)؟ وما هى المعلومات التى تحتاج لإدخالها إلى الحاسب ليقوم باختيار المعنى الصحيح من بين البدائل المتاحة؟[١٤].

والجواب فيما نرى : أنه ليس أمامنا إلا نظام الذكاء الاصطناعى؛ فعن طريقه يحل كثير من تلك المشكلات.

٢ - يجب أن تحاكى برمجيات الترجمة الآلية عملية الترجمة كما يقوم بها الإنسان. ويتطلب هذا فهم عملية الترجمة الإنسانية فهما واضحا وسليما[١٥].

٣ - يعتمد التقدم في الترجمة الآلية على تقدم علماء اللغة في التحليل الدلالى وخلق نماذج صورية للدلالة يمكن للحاسب أن يستخدمها. وأدرك علماء اللغة جيدا صعوبة ودقة البحث في هذا المجال. كما يدركون أن التقدم فيه يسير ببطء شديد.

٤ - لا يقتصر فهم النصوص اللغوية على المعنى الدلالى، فالمترجم يعتمد على فهمه للحياة ومعلوماته عن العالم، بل ويستخدم قدرته على فهم المحاجاة وتتبع المناقشات، والوصول الى الاستنتاجات السليمة ولهذا فإن تقدم الذكاء الاصطناعى مجال تمثيل المعرفة (Knowledge Representaion) وبرامج الاستنباط (Inference Engines) سيؤدى إلى خلق جيل جديد من برمجيات الترجمة الآلية(١٦).

توصيات :

مما سبق نرى أنه من الواجب على المسئولين في العالم العربى، تكثيف الجهود، ولم الشمل والتنسيق نظرا لمكانة الترجمة الضرورية في عصرنا الذى نعيش فيه؛ ولذا يجب أن يفكر جديا فيما يلى:

(أ) التوسع في إقامة معاهد لدراسة وممارسة فن الترجمة على أيدى أساتذة متخصصين في هذا المجال.

(ب) إنشاء مكتب لتسجيل كل ما يترجم في كل بلد عربي، منسقا بين الفنون المترجمة.

(جـ) العمل على إنشاء هيئات علمية خاصة في كل قطر عربي، تقوم بترجمة أمهات الكتب العلمية القديمة والمعاصرة في مختلف اللغات والتخصصات[١٧].

(د) توجيه الدعوة إلى جميع المترجمين إلى الاهتمام - أولا وأخيرا - بسلامة لغة القرآن الكريم، نحوا وصرفا ولغة ورسما، وعدم الأخذ بالأساليب والتراكيب التى تشوه جمالها وعظمتها[١٨].

(هـ) ينبغى تشجيع الأبحاث في مجال الترجمة الآلية في العالم العربي[١٩].

وبذلك يمكن أن تؤدى الترجمة رسالتها في الحياة على أكمل وجه، وبأفضل صورة، ومن الله العون والتوفيق.

الهوامش :

(١) لمزيد من التفصيل راجع: الأدب وتاريخه في العصرين الأموى والعباسى: د. على محمد حسن العمارى، والاستاذ زكى على سويلم، ص ٦١، ٦٢ ط. الادارة العامة للمعاهد الأزهرية سنة ١٣٩٨. ومجلة «الكويت» العدد ٦٠ ص ١٤، مقال: «تاريخ العلم عند المسلمين» للكاتب.

(٢) ابن منظور اللسان مادة (ت و ج) ص ٤٢٦ تحقيق عبد الله على الكبير وآخرين، ط. دار المعارف.

(٣) د. محمد عوض محمد: فن الترجمة. ص ١٨، ١٩، ط قسم البحوث والدراسات الأدبية التابع لمعهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية سنة ١٩٦٩م.

(٤) مثل إطلاق كلمة الولد على الرجل عند السعوديين.

(٥) د. على فرغلى: الذكاء الاصطناعى ومعالجة اللغات الطبيعية. مقال منشور في مجلة «عالم الفكر» مجلة فصلية تصدر عن وزارة الإعلام الكويتية: المجلد الثامن عشر ـ العدد الثالث ـ اكتوبر نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٧م، ص ١٤١.

(٦) د. محمد عوض محمد: فن الترجمة، ص ١٣، ١٥ بتصرف، ط قسم البحوث والدراسات الأدبية التابع لمعهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية سنة ١٩٦٩م.

(٧) المرجع السابق ص ١٥، ١٧، ١٩، ٣٣ فراجعه تجد مزيدا من التفصيل.

(٨) د. على فرغلى: الذكاء الاصطناعى ومعالجة اللغات الطبيعية مقال منشور في مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن عشر ـ العدد الثالث ـ اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٧م، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٩) المرجع السابق: ص ١٣٠ ـ ١٣٢ بتصرف.

(١٠) عفت السلمي: مترجم متحرك يصاحبك في رحلاتك حول العالم، مقال منشور بمجلة «العربى الصغير» مجلة شهرية تصدر عن وزارة الإعلام الكويتية ـ العدد ٢٧ السنة الثالثة ـ ابريل ١٩٨٨م.ص٢٨ بتصرف يسير.

(١١) يختلف علماء الذكاء الاصطناعى في تعريفهم لهذا العلم فينظر ونستون اليه كأحد العلوم التطبيقية ويحدد الهدف الرئيسى للبحث في علم الذكاء الاصطناعى بأنه جعل الحاسبات الآلية اكثر ذكاء ونفعا للانسان ويرى أن الهدف الثانوى هو فهم الذكاء الانسانى بينما ينظر «شارنياك» و«ماك درموت» الى الذكاء الاصطناعى باعتباره علما اساسيا يسعى لتفسير ظاهرة انسانية هى ظاهرة قدرات العقل البشرى، ويحددان هدف البحث الرئيسى في علم الذكاء الاصطناعى بأنه يسعى لدراسة القدرات العقلية الإنسانية من خلال برامج الحاسب الآلى تحاكى هذه القدرات: د. على فرغلى: الذكاء الاصطناعى ومعالجة اللغات الطبيعية مقال منشور في مجلة «عالم الفكر» المجلد الثامن عشر ـ العدد الثالث ـ اكتوبر ديسمبر ١٩٨٧م ص ١٢٠.

(١٢) على عبد الواحد وافى: فقه اللغة، ص ٢٤٢، ٢٤٣، دار نهضة مصر.

(١٣) عباس هانى الجراح: الترجمة الفاسدة وأثرها في سلامة اللغة العربية كلمة منشورة في مجلة الفيصل، العدد ١٣٦، شوال ١٤٠٨ هـ ص ١١٢، ١١٣ بتصرف.

(١٤) د. على فرغلى الذكاء الاصطناعى ومعالجة اللغات الطبيعية مقال منشور في مجلة «عالم الفكر» المجلد الثامن عشر ـ العدد الثالث ـ اكتوبر ـ نوفمبر ديسمبر ١٩٨٧م، ص ١٣٢.

(١٥) المرجع السابق: ص ١٣٤ فراجعه تجد مزيداً من التفصيل.

(١٦) المرجع السابق : ص ١٣٤ ، ١٣٥.

(١٧) نقلا عن توصيات مؤتمر الدورة الثانية والخمسين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة. لمزيد من التفصيل انظر، اخبار التراث العربي، نشرة يصدرها معهد المخطوطات العربية في الكويت العدد السابع والعشرين، محرم صفر ١٤٠٧هـ.

(١٨) عباس هانى الجراح: الترجمة الفاسدة وأثرها في سلامة اللغة العربية. كلمة منشورة في مجلة «الفيصل» العدد ١٣٦ ـ شوال ١٤٠٨هـ، ص ١١٣.

(١٩) د. على فرغلى: الذكاء الاصطناعى ومعالجة اللغات الطبيعية عدد أكتوبر وديسمبر ١٩٨٧م ص ١٤٢.

(راسين) شاعر العواطف الإنسانية

ازدهر الأدب الفرنسي في عهد الملك لويس الرابع عشر وهو الملك الذى عرف بتذوقه للأدب وحدبه على المبدعين. وقد حفظ لنا الأديب الفرنسي فولتير مقاطع كثيرة من نثر الملك البديع الذى يكتبه على هيئة مذكرات على فترات متوالية.

فليس بغريب أن يزدان ملكه وبلاطه بعدد كبير من أعلام الأدب الفرنسي من أمثال بوالو وكورنى وموليير ولافونتين ولاروشفوكو صاحب الحكم الشهيرة.

وفي أوائل عهد الملك لويس الرابع عشر، ولد جان راسين المسرحى القدير في عام ١٦٣٩م ببلدة صغيرة شمال باريس اسمها ميلون. ولكن القدر أراد لهذا الصبى أن يفقد أبويه وهو في الرابعة من عمره فكفلته جدته لأبيه امرأة متدينة فاعتزلت في دير بور رويال وعهدت بحفيدها اليتيم جان راسين الى رجال دير بور رويال وهم قوم زهاد رغبوا عن الحياة الدنيا وكرسوا أنفسهم للعبادة والعلم والفلسفة وعاشوا عيشة الرهبان.. وشب الغلام اليتيم بين أساتذة ممتازين فثقفوه ثقافة عميقة رصينة وألقوا في نفسه بذار التدين والورع، على أنه لم يكن يجد مؤنسا في ذلك الدير الموحش إلا كتب الأدب يختلسها من المكتبة اختلاسا ويختلى بها تحت الأشجار بالوادى الصغير الذى كان الدير قائما في أحضانه. وها هو ينشد الشعر يتغنى بجمال الريف ويترجم الترانيم اللاتينية التى يرتلونها في المحراب إذا كانت صلاة المساء.

وأمضى الحياة جميلة حلوة حتى بلغ في الدير التاسعة عشرة من عمره وقد أتقن اللغتين اللاتينية واليونانية. وكان ملاذه في وحدته الرهيبة بالنسبة لسنه كتب الأدب التى يختلسها اختلاسا ويتخفى تحت شجرة من أشجار الدير ليقبل على قراءتها في شغف كبير. وقد أصبح في هذه السن ينشد الشعر متغنيا بجمال الطبيعة في الريف، وكان يقرأ هوميروس وسنيكا وفرجيل وأوريبيدس.

ولسنا نعلم عن محاولات لراسين في هذه المرحلة إلا أنه رحل الى باريس وسبب الرحيل حبه لدراسة المنطق والفلسفة في كلية هاركور ثم عمل موظفا عند الدوق دي شيفريز.



بدأت حياته الأدبية بتعرفه على شخصية أدبية عظيمة وهى شخصية الأديب لافونتين، وشرع ينظم الشعر وكانت أولى قصائده «حورية نهر السين» التى كتبها وأرسلها الى الملك لويس الرابع عشر عام ١٦٦٠م، فعرفه الملك لويس الرابع عشر وكافأه بمائة جنيه ذهبية وجعل له معاشا قدره خمسة وعشرون جنيها وانغمس بعد تربيته الدينية في حياة المدينة الماجنة.

وبعد سنوات أربع كان العالم الأدبي على موعد مع أول انتاج راسين المسرحى وهو «مأساة طيبه» عام ١٦٦٤م وهو في الخامسة والعشرين، وتبدأ المسرحية بالصراع بين ابنى الملك أوديب واسمهما (إتيوكل وبولينيس) على عرش طيبه حتى قتل كل منهما الآخر ثم انتحر حبيب اختهما انتيجون واسمه هيمون. ويشتد الحزن بجوكاست والدة الشقيقين فتنتحر وتلحق بها انتيجون. ويقرر كريون الشرير الذى أوغر صدر الأخوين معاقبة نفسه.

ولا تعد المسرحية عند النقاد من خيرة مسرحياته. وأتبعها بمسرحية الإسكندر وقد مثلتها فرقة موليير. وعندما كان راسين في الثامنة والعشرين انتج أروع أعماله قاطبة باجماع النقاد من أمثال فولتير وتين وسانت بيف وفاجيه وذلك باصداره مسرحية «أندروماك» وذلك عام ١٦٦٧م.

وقد اتخذ راسين مصدرا لمسرحيته جملة من المصادر وهي إلياذة هوميروس وانياده فرجيل واندروماك ليوريبيدس.

وتبدأ مسرحية أندروماك في بلاط بيروس حيث يصل أورست وبيلاد من بلاد اليونان ليطالبوا بيروس بتسليم الطفل استيانكس ابن بطل طروادة هكتور الذى يعيش مع أمه أندروماك الأسيرة في بلاط بيروس. وهذا ظاهر الوفادة ولكن عاملا آخر يدفع أورست الى المجيء وهو هيامه بهرميون خطيبة بيروس. لم يوافق بيروس على تسليم الطفل الى اليونانيين. ولكنه يطالب أندروماك أن تتزوج به في الحال غير أنها تريد أن تظل وفية لذكرى زوجها البطل هكتور. ويستولى الحنق والغيظ على هرميون بسبب هيام خطيبها بالأميرة الطروادية وأخبرت أورست أنها ستعود معه الى بلادها. غير أننا نرى من ناحية أخرى أن بيروس استولى عليه الملل من صدود أندروماك فيعلن أنه سيتزوج هرميون. وتذهب

اندروماك بعد ذهاب عزها الى هرميون فاتنة الإغريق ترجوها أن تحمى ولدها استياناكس فتنهرها.
وتتوسل أندروماك الى بيروس فيخيرها بين أمرين إما الزواج به مع حماية الطفل وإما أن يسلم الطفل الى اليونانيين.

وتقرر أندروماك الزواج من بيروس لتضمن عدم تسليمه لليونانيين على أن تنتحر بعد أن تتم مراسم العقد في المعبد وفاء لزوجها هكتور. ثم تزداد هرميون ثورة وغيظا فتعهد الى أورست قتل بيروس وترد عى اعتذاراته بلوم مرير. وأقدم أورست على قتل بيروس في المعبد تلبية لطلب هرميون ولكنها تحزن لمقتله وتقول:

أين أنا .. ماذا عملت .. ماذا يجب أن أعمل أيضا...؟!

أى ثورة تتملكنى وأى حزن يلتهمنى...؟! إنى أسرع من هذا القصر هائمة لا رأى لى... آه ...! لا أستطيع أن أعرف هل أحَبُّ أنا أم أبْغض...؟! ياله من قاس ! كيف أذن لى بالإنصراف.؟! أكان يجب أن تصدق عاشقة قد فقدت الرشد؟! ألم يكن واجبا عليك أن تقرأ ما في قرارة نفسى...؟! ألم تكن ترى أثناء ثورتى أن قلبى كان يكذب فمى في كل لحظة..؟! وهبنى أردت قتله أكان يجب أن تطيعنى؟! ألم يكن حقا عليك أن تستعيد هذا الأمر مائة مرة؟! هلا تركت لى الانتقام؟!.

وتقتل هرميون نفسها، فيجن أورست ويأتى إليه صديقه بيلاد ليخلصه من الشعب الذى قتل مليكه.

ثم أتبع هذه المسرحية بمسرحية المتقاضين وبرينكس. وفي الحادية والثلاثين من عمره كان للجمهور الفرنسى وقفة مع رائعة جديدة هى «برينيس». كان الناس بعد أندروماك منقسمين بين معجب بكورنى ومعجب بخصمه راسين حتى جاءت مسرحية برينيس ليصرع بها الشاب راسين الأديب العجوز كورنى. انها الموقعة الفاصلة بينهما وللصراع قصة مؤثرة رائعة. روى القصة من جانب كورنى كاتب ترجمته ابن أخته الأديب فونتنيل. وروى من جانب راسين ابنه جان راسين في ذكرياته عن أبيه. وأترك للأديب فولتير رواية القصة يقول فولتير: «أرادت الأميرة هنرييت زوجة أخى لويس الرابع عشر أن يُنشىء كل من راسين وكورنى مأساة مسرحية عن غرام تيتوس وبرينيس فقد كانت تتوق الى أن نستعيد على المسرح قصة حبها للملك وحب الملك لها، ذلك الحب الذى وضع خطره على الأسرة المالكة حدّاً له، ولكنه ظل في قلبيهما عاطفة صامتة عزيزة ولذلك حملت الماركيز دانجو ـ وكان كاتم سر غرامها بالملك أن يدعو في الخفاء كورنى وراسين كلا على حدة الى إخراج هذا الموضوع الذى كان يبدو أنه غير خليق بالمسرح وأنشئت المسرحيتان في سنة ١٦٧٠م دون أن يدرى أحد منهما أنه يبارى

غريما». ومثلت الروايتان وكان النصر لراسين.

وأخرج راسين مسرحية بايزيد عن الزعيم العثماني الشهير عام ١٦٧٢م ومتريدات عام ١٦٧٣م وإيفجيني عام ١٦٧٤م.

وعندما بلغ راسين الثامنة والثلاثين أرسل رائعته العظيمة فيدر. ولم تكن فيدر أول مسرحية في هذا المضمار فقد روت كتب تاريخ الأدب أن سوفوكميس أول من طرق موضوعها في مسرحيته لم يعثر لها على أثر ثم تلاه يوريبيدس فكتب مسرحية هيبوليت عن فيدر والقصة كما وردت في سير الإغريق تروى أن فيدر هي ابنه الملك فينوس ملك كريت من زوجته باسافيه. وقد اقترنت فيدر بالملك ثيسيوس ثم ما لبثت أن كلفت بابن زوجها الأمير هيبوليت. وإذ عف الأمير عن نزوتها حنقت عليه وعمدت إلى الكيد له فاتهمته بمحاولة اغتصابها فدعا ثيسيوس على ولده وكان بوسيدون سيد البحار فصرع هيبوليت وسرعان ما استبد الحزن بفيدر فتجرعت بيدها كأس المنون.

وهنا ترك راسين الكتابة المسرحية بعد حزن شديد أصابه إثر ما لقيته مسرحيته الأخيرة من فشل نتيجة مؤامرة حاكها اعداؤه في دقة وبراعة فاستكتبوا شاعرا من أصدقائهم ليكتب مسرحية عن نفس الموضوع ومثلوا المسرحية فأثروا على راسين وسمعته لولا أن تدخل الأمير كونديه الكبير فأمر باخراج مسرحية راسين.

ترك راسين الأدب واستمع لنصيحة القسيس الذى كان يتلقى اعترافه وأقدم على الزواج فتزوج فتاة ساذجة لم تقرأ انتاجه وهى كاترين دى رومانية وأقيم حفل حضره الملك لويس الرابع عشر وقائده كونديه ورئيس وزرائه كولبير، ومن الأدباء كورنى وموليير وبوالو ولافونتين. وعين الملك لويس الرابع عشر راسين نبيلا وأسند اليه هو وبوالو كتابة تاريخ ملكه. فأقبل على عمله الجديد إقبالا شديدا وانكب بكل كيانه ورافق لويس الرابع عشر في حملاته الحربية.

ولم يستطع عام ١٦٨٩م أن يرفض طلب المركيزة مدام دي مانتينون عشيقة الملك التى رجته أن يؤلف مسرحيتين مستوحاة من العهد القديم فألف استير وأتالى.

وفي احدى ليالى الشتاء عام ١٦٩٩م فارق راسين الدنيا الفانية مخلفا من الذرية ثمانية من الأنجال، ثلاثة من الذكور وخمسا من الإناث. أما ابنه الأكبر جان باتيست فقد عاش خامل الذكر ، أما ابنه الأصغر لويس راسين فكان شاعرا عرف له الأدب الفرنسى قصيدة «الفيض الالهى» ثم ألف كتابا عن حياة والده اطلعت على ترجمته الانجليزية. أما الثالث فقد مات في الهزة الأرضية عام ١٧٧٥م في لشبونه ودخلت ثلاث من بناته الدير قبل رحيله. ولئن مات راسين فقد ظل ذكره خالدا شامخا بين أعلام المسرح العالمي.

فتاة من التلال

للكاتب الروسي فلاديمير توبولوف

إنها قصة فتاة يافعة تتمرد على العادات والتقاليد البالية التى مازالت تسيطر على بعض مناطق جبال داغستان.. آسييت (الفتاة) كانت قد خُطبت الى عثمان منذ طفولتها.. وما كادت تنزع عنها ثوب المدرسة حتى حاولوا إغراءها بارتداء ثوب الزفاف والاقتران بعثمان، ابن الأسرة العريقة المحافظة على الأفكار والعادات القديمة.. إلا أن آسييت فعلت ما لم يكن متوقعاً منها: رمت برقع الزفاف على قدمي العريس، وشتمت جميع الذين يحاولون حرمانها حقها في الحرية، وغادرت القرية الى المدينة.. وانطلق العريس المهان يبحث عنها حتى وجدها.. لكنه فشل في السيطرة على هذه العروس المشتراة.. فقتلها.

هذه الباليه كما قدمها مسرح (باليه وأوبرا كيروف) في لينينغراد، كانت غير عادية من كافة النواحي، وفي مقدمتها، الموسيقى التى وضعها الملحن الداغستاني مراد كزلاييف، الذي وفق في دمج التعقيد السيمفوني الحديث مع اللون والأصالة الوطنية.. إن هذه الجمهورية الصغيرة القابعة في أعالي القوقاز، بلغاتها ولهجاتها التى تربو على الثلاثة، تمتلك فنا مميزاً وموسيقى مسرحية تعتبر ترجمة واقعية لتركيبها اللحني المتشعب الذي لا يتوفر في مكان آخر.. بل هو ملموس تماماً في الاتجاه الموسيقي لشتى التراجيديات.

اللحن الشعبي يظهر من خلال استخدام حقيقي للموسيقى الواقعية: إذ يقدم كزلاييف بجرأة في موسيقاه (أصوات الأرض) حفيف أوراق الأشجار وخرير غدير جبلي وسقسقة عصافير الحصاد الثاقب، وتصور لوحات الطبيعة الشاعرية.. المزاج السعيد للفتاة آسييت تارة، وتارة أخرى نراه يتضارب مع بحثها اليائس عن الخروج من المأزق.

أما ديكور المسرح الذي صممته الفنانة الموسكوبية مارينا سوكولوفا، فكان استثنائياً بالستارة الخلفية ذات الخطوط الكثيفة من الحجر الرمادي، حيث تصور تتابعاً رائعاً لحدود جبلية هائمة مع جسور مقنطرة، أو جذوع أشجار كثيرة العقد، موزعة بين الصخور، أو بناء غربي لقرى معلقة على منحدر جبلي، أو منظر مقرب لشارع مدينة عصري.. كان كل شيء وفي آن واحد، مسرحياً شاعرياً بكل عنف.

لكن لسوء الحظ، فقد كان لعنصر الحداثة في الأزياء ـ وهو عنصر جوهري في الباليه ـ قد اختط درباً الى الإثنوغرافية التى هي على أية حال قابلة

تعريب : توفيق ونوس
سوريا - اللاذقية

للفهم، ذلك لأن الأزياء الداغستانية الحقيقية هي بالأصل فاتنة ومزركشة.

أما واضع الألحان الراقصة أولغ فينو غرادوف، فقد أبدع لنفسه شهرة ذائعة الصيت بمنتجاته الأخيرة: سندريلا وبروكوفيف، روميو وجولييت اللتان قُدّمتا في بيت أوبرا نوفوسبرسك، وباليه آسل الحديثة على مسرح البولشوي.

لقد انتقل فينو غرادوف الى قلب داغستان ليجري دراسة عملية على عاداتها وتقاليدها وسُبُل الحياة فيها، ثم عاد حاملا في جعبته صوراً رائعة من الأزياء الوطنية المتعددة الألوان ومشاهد فاتنة للحياة اليومية.. ومن خلف هذه الإثنوغرافية المعقدة الأسلوب وغير العادية، يستشف المشاهدون معرفة مجسمة للحقيقة التى يرسم بها (مبادئه العامة الإثنوغرافية).

كان كل شيء في هذه الباليه معمماً، وأحيانا يبدو مرمزاً، إلا أن هذا الأسلوب (التصويري الحسي) الشامل للإثنوغرافية منسجم بشكل لا يصدق مع الخط القومي، وهذا ما تندر مشاهدته على مسرح الباليه الحديث.

والحقيقة أن كل تراجيديا، تستطيع أن تصور الامكانات الفنية الكامنة في الرقص الكلاسيكي، إذا ما اتصلت بالرقص الشعبي. وعوضاً عن الكلاسيكية التقليدية (تغيير مبدئى) للبطل الرئيسي فإن فينوغرادوف يقدّم لنا، أداء معقداً، فينعكس أول مونولوج لعثمان على الجذور الاجتماعية لرقصة مجموعة الراعي القومية مع العصي، وهو نوع من الصراع بمهارة وبراعة بما يوحد حركات رقصة الرعاة مع العناصر الكلاسيكية، فيبدو عثمان وكأنه يحتفل معتزاً بنصره، وذلك بتحليقه في الهواء وانهياره على الأرض في بحث دام عن ضحية خفية.. إنه بهذا يجسد الرجل القوي المتغطرس.

كان هذا المظهر (الرجولي) واضح المعالم منذ البدء.. فنبرات عثمان (تهدر) عبر الرقصات.. والحركات النشيطة لرفاقه الفلاحين، مبدية رغبتهم على آسييت، تتضح بإخلاصهم للتقاليد الدهرية المتصلبة لشرف العائلة، بينما يربط عثمان هذا الالتزام المتعصب الى تقليد جبلي.

من أجل هذا.. كان رفض آسييت بالنسبة له أكثر من إهانة شخصية.. إنها مأساة حقة وانهيار هائل للمسلك الحياتي المقبول.

إن عالم البطل هو عالم كئيب، لأنه عالم من الخرافة والقسوة، عالم تخضع فيه المرأة للرقيق والطاعة العمياء اللامقاومة للرجل، وهذه هي اللغة التى يؤمن بها والدا العريس والعروس، كذلك هي اللغة الوحيدة التى يفهمها ويقبلها جميع هؤلاء

الرجال المتغطرسون والنساء الخنوعات.

نرى آسييت في رقصتها الأولى تبدو بمزاج بهيج محبب، تزعج أباها بمكر وتحدق بأبي عثمان، غافلة عن القدر الذي يخبئه لها هؤلاء الرجال، بينما تردد صديقاتها، كل مقطع من أغنية آسييت.

كان مزاج آسييت من العمق والتعقيد في البنية، بحيث طرح كل أشكال العنف والقسر، متنذهلا من مطالب أهلها ذوي السلوك المتبلد السخيف، فنراها تجثم على الأرض في وعيد للرجال.. وهذا المشهد الرمزي المعبر يقدم خاتمة للمشهد الأول. وفي المشهد الثاني، نرى آسييت تقف إزاء ينبوع عند الغسق، يغلفها صمت يخترقه عزف صاخب للحصاد.. لم يكن مونولوجها هذا عبارة عن لعبة فتاة مبتهجة فحسب، بل كان حكاية نضال ذاتي من أجل البحث عن مخرج.

وبالنتيجة فإن أمامها طريقين مفتوحين :

أحدهما: يتمثل في نساء يرتدين أروابا سوداء ويرفعن أذرعهن عاليا في تضرعات حدادية، وراحات أيديهن تلامس أعينهن وآذانهن وأفواههن بإيماءات تحذيرية.. إنه استرقاق رهيب وإنكار شامل لكل الأفراح الأرضية.. ذاك هو قدر آسيت إذا ما استسلمت.

أما الطريق الآخر: فهو طريق الاحتجاج.. نرى في المشهد التالي أن الغسق يتبدد ويطل نور السماء البعيدة من خلال كوة ضيقة بلون ذهبي.. وتظهر على المسرح فتيات يرتدين أزياء مشرقة متألقة، يمارسن حركات مرنة تعبر عن الحرية، ويرقصن رقصات طيرانية ما هي إلا شعور مسبق بالسعادة.. ثم تظهر آسييت نفسها لتطرح عنها القيود الخفية.. وتسري رعشة فرح في أيديها المرتجفة التى هي أشبه بأجنحة عصفور حثيث.. ورأسها مرفوع بكبرياء، وبكل جسدها تتأهب للتحليق بدوران ديناميكي على إصبع قدمها الواحدة.. مبدعة صورة راقصة للطيران بكل معنى الكلمة.

إن هذه الصورة الصعبة للغاية، للصراع الذاتي الذي هو مشكلة حتمية حتى في المسرح الدراماتيكي.. قد أديت بأقصى الوضوح والإتقان في هذه الباليه، وتظهر التغايرات الحادة في التركيبات الموسيقية لفرقة الباليه الأنثوية، رامزة الى النزاع الرئيسي.

لقد أولع فينوغرادوف بهذه المتغايرات الحادة كثيرا ونراه يقدمها في هذه الباليه على أوسع نطاق: خيال آسييت البراق الواضح للعيان.. وأشخاص سود ينطلقون من حلكة الظلام، واحدا فواحدا، بوثبات قصيرة صارمة، يرتدون خوذات وأقنعة غريبة ودروع فضية مموهة، يحشرون آسييت في حلقة متضافرة لن تستطيع منها فرارا ولو بأعظم وثبة من وثباتها القانطة. وهذا هو منطق طقوس الزفاف الذي مازال يمارس في داغستان اليوم.. إذ تقاد العروس بواسطة فرسان تحت قرع حزين للطبول وتعاويذ انفعالية شريرة للجمهور.

يا للعروس المرزوءة ·· ويا للعرس الفاجع··

لا عجب أن سائر الضيوف تقريبا متشحين بالسواد·· ولا عجب أن فواصل رقصات العرس هي تلميحات الى كارثة وشيكة الحدوث·· وذلك يبدو من رقصة الشباب الذين يخبئون رفيقاتهم الراقصات تحت عباءاتهم اللبادية البيضاء، ومن رقصة قارعي الطبول السبعة التى هي أشبه بزوبعة تزهق الأنفاس·· الى رقصة (ليزينكا) التى يؤديها ثلاثي نسائي·

وأخيراً يأتي دور التصعيد في رقصات العرس:

رقصة عثمان الانفرادية، هي رقصة مرحة وحشية لعفريت فارس جسور يختطف عروسه في نمط جبلي تقليدي، ورداً على هذا العمل، ترمي آسييت إكليلها المرصع بالفضة مع برقع الزفاف على قدمي عثمان بكل هدوء وازدراء·· وتنقلب الى كتلة متمردة غير هيابة، مجسدة الكرامة الإنسانية الثائرة، ومعلنة انفساخها عن القبيلة والعشيرة وحتى عن العائلة، وبدون أن تفسح للآباء الغاضبين مجالا·· تتقدم من العريس وتعطيه خنجراً وتمنحه بركات الجميع للثأر منها·

وبجسارة فذة ينجز فينوغرادوف، تغييرا كليا وفجائيا للحن الراقص في المشهد الثالث: صورة لبيئة آسييت المدنية الجديدة تعج بالدعابة والفتنة وتعطي فكرة تامة عن عادات وأفكار شباب اليوم·· وهي تستند الى مبادىء الباليه الكلاسيكية مع لمسات ناعمة هنا وهناك لعناصر الرقصات الشعبية والعصرية، تعطي إدراكا للزمان والمكان·

ويتضمن الفصل الثالث رقصات غنائية ثنائية أبدعها فينوغرادوف في قالب مبتكر: فنرى راقصتين تتبع احداهما الأخرى على نغمتين متضاربتين، لكنهما من ضرب كلاسيكي واحد·

الرقصة الأولى هي باليه ثنائية تؤديها آسييت مع شاب عرفته في المدرسة·· ويبدو الإنسجام المطلق والمتواقت التام لرقصتهما، معبرا عن توافق عقليهما وتناغم قلبيهما·· فإذن هما على عتبة حب·· لكن للأسف لن يتحقق·· فحالما تنتهي هذه الباليه الثنائية، تنطلق رقصة غنائية ثنائية أخرى على المسرح، هي حوار بين آسييت وعثمان·· وهنا يبدع واضع الألحان الراقصة بدعم مثل هذه المتغيرات بدون أي فاصل تقريبا·

حركات عثمان، تصور النصر الثأرى للصياد الذي أرهق ضحيته متابعا طلبه المتغطرس للإذعان، بالتماس يائس للشفقة: فيرتمي جاثيا على ركبتيه أمام آسييت ـ وهذا أمر يرتعد الجبلي لمجرد التفكير به ـ لكن آسييت عنيدة وحب الحرية لديها أقوى من رهبة الموت، فأتى ردها مفعما بالقوة والكبرياء·

وأخيرا تبدو وحيدة على المسرح الخالي، مطعونة بالخنجر، فتهوي صريعة على الأرض، إلا أنها ما تكاد تلامسها حتى تنتصب ثانية·· مصورة جمود (نصب تذكاري)·

هكذا كانت مأساة آسييت·· مأساة فتاة من التلال، كما رواها جزماتوف وفينوغرادوف·

قصة غير منشورة للكاتب الكبير

(ارنست همنغواي)

هذه القصة واحدة من سبع قصص وقصيدة عثر عليها، مؤخرا في محفوظات ارنست همنغواى في جامعة هارفارد.. هذه القصة لهمنغواي غير منشورة بأى لغة من قبل، وربما امتنع الكاتب الكبير ان ينشرها في حياته لانها أشبه بسيرة ذاتية.

- انها قصة جيدة جدا .. قال الاب مخاطبا الصبي. أتعلم كم هي جيدة؟

- لم أرد أن ترسلها اليك، يا ابي.

- وهل كتبت قصة غيرها ؟

- لا ، انها القصة الوحيدة. حقا، لم ارد أن ترسلها اليك. لكن حين نالت تلك الجائزة ...

- أرادت هي أن أساعدك. لكن اذا كانت بمثل هذه الجودة فأنت لا تحتاج الى مساعدة أحد، كل ما تحتاجه هو أن تكتب. كم صرفت من الوقت في كتابة هذه القصة؟.

- ليس كثيرا ..

- أين سمعت كلاما عن هذا النوع من طيور النورس ؟

- أحسب انني سمعت عنها في الباهاماس.

- لم تذهب أبدا الى دوغ روكس أو البوكاي. لم يكن هناك لا نورس ولا خطاف بحر يأوى الى كان كأى أو بيميني.

في كاي وست ليس بمقدورك أن ترى أى خطاف بحر.

- في كيليم بيتيرز بالتأكيد. تلجأ هذه الطيور الى شاطىء المرجان.

- فوق الاجزاء المنبسطة .. قال والده.

اين يمكن ان تكون عرفت نورسا يشبه ذاك الذى في قصتك؟

- ربما اخبرتني عن هذه الطيور يا أبى.

- انها قصة جيدة جدا. تذكرني بقصة قرأتها منذ زمن بعيد.

- اتخيل أن كل شيء يمكن أن يُذكر بشىء ما.. قال الصبي.

خلال هذا الصيف، كان الصبي قد قرأ الكتب التي اودعها والده المكتبة، وحين كان الصبي يتخلف عن المشاركة في لعبة البيسبول أو الذهاب الى حقل الرماية، يدخل الى البيت لتناول الطعام ويقول غالبا انه كتب.

«أرنى ما تكتبه حين ترغب في ذلك، أو اطلب مني حين تواجهك مشكلة. أكتب عن شىء تعرفه.

- هذا ما أفعله.

- لا اريد أن أقرأ من وراء ظهرك أو أن اهمس في اذنك.. قال الأب .. وعلى أية حال، إذا كنت ترغب ، أستطيع أن اساعدك في حل مشاكلك

ترجمة : منى حداد
- سوريا -

البسيطة المتعلقة بأشياء نعرفها كلانا. سيكون ذلك تمرينا جيدا.

- اعتقد بأني اتدبر امرى جيدا.

- لا ترني شيئا ما دمت لا ترغب في ذلك.

- احببت العبارة كثيرا.

- المشاكل التى حدثتك عنها هي (...) نستطيع أن نذهب معا الى السوق أو الى عراك ديوك، وبعد ذلك، يعمد كل واحد منا الى كتابة ما رآه. ما يجرى وما رأيته وما بقي عالقا في رأسك. اشياء، كمربي الحيوانات الذين يفتحون منقار الديك وينفخون في حنجرته من جديد. الاشياء الصغيرة. حينها نرى ما رآه كل واحد منا».

أحنى الصبي رأسه وحدّق بصحنه.

«أو ربما نستطيع أن نقصد المقهى حيث نلعب عشرة أو عشرتين وتكتب بعدها ما سمعته خلال تبادل الاحاديث».

- اخشى الا اكون جاهزا لذلك يا ابي. اعتقد بأنه يستحسن أن اكمل الكتابة على النحو الذى فعلته بقصتي.

- افعل ذلك. لا اريد أن افرض نفسي أو أن أؤثر عليك. كانت تمارين وحسب، كان يسرني لو قمت بها معك. تمارين فعلية. ليست جيدة بشكل خاص. كان بامكاننا أن نجد افضل منها.

- سيكون من الافضل لي على الارجح أن اواصل الكتابة على النحو الذى فعلته في القصة.

- «بالتأكيد» قال الاب :

لم اكن لاكتب بمثل براعته حين كنت في مثل سنه .. فكر الأب .. كما لم اعرف ابدا شخصا قادرا على ذلك. لكني لم اعرف مطلقا شخصا قادرا على التصويب مثل هذا الصبي حين كان في العاشرة من عمره، ليس تصويباً للاستعراض، لكنه تصويب ينافس فيه المحترفين من الرجال.

كان يجيد التصويب ايضا في الريف حين كان في الثانية عشرة من عمره كان يسدّد كما لو انه يملك نوعا من الرادار. لا يخطىء المرمى مرة واحدة، ولا يترك طيرا يقترب ويصوب بكثير من البراعة، وباحساس تام باللحظة وبدقة على طيور التدرج المحلقة عاليا وعلى ملطى البط. كما على الحمام الحي والمنافس، حين كان يقترب من مجال التصويب، يمرّ الصبي عبر الدوارة ويتجه نحو الصفيحة المعدنية التى تحدد بلفافة سوداء مركز تصويبه، عندها يسكت المحترفون ويتفرجون. كان الرامي الوحيد الذى يجعل الحضور صامتا تماما. بعض المحترفين كانوا يبتسمون كما لو انهم اكتشفوا سرا في اللحظة التى يثبت بندقيته الى كتفه ويتأكد من أن عقب البندقية في موضعه. ثم كان خده يضغط حرف البندقية، ويده اليسرى تكون أسفل البندقيه يعلو ويهبط ويتحرك بعد ذلك يسارا، يمينا، ثم يعود الى الوسط. كان كعب قدمه اليمنى يرتفع قليلا في اللحظة التى كان كل شيء فيه ينحنى نحو رشقة بيتي النار.

«انا مستعد، قال بصوت خفيض، أجش .. لا يشبه صوت صبي صغير».

«مستعد، أجاب الخادم».

«اطلقها» ..؟ قال الصوت الاجش، وأيا يكن الفخ بين خمسة اخرى محتملة ستفلت الحمامة

الرمادية، وأيا كانت الزاوية المعطاة للاجنحة من أجل طيران سريع وخفيض فوق العشب الاخضر باتجاه الحاجز الابيض المنخفض، فالرشقة الاولى للبندقية ستصيبها والرشقة الثانية ستصيب موضع الاصابة الاولى. وحين يتخبط العصفور في طيرانه، رأسه ممدود الى الامام، وحدهم الرماة الجيدون يرون الرشقة الثانية تصيب الطير الذى يقضي ولما يزل جانحا في الفضاء.

كان الصبي يخلع بنقديته ثم يعبر مجال التصويب باتجاه السرادق، وقد غاب كل تعبير عن وجهه، وهو يغضي عينيه. بدا غير مكترث للتصفيق، يردد «شكرا» بصوته الغريب الاجش كلما بادره احد المحترفين بقوله: ضربة موفقة، ستيفي، يضع بندقيته على مسند الاسلحة وينتظر رمية والده، وبعد ذلك يتوجهان سويا الى المقهى في الهواء الطلق.

«هل استطيع أن اشرب قنينة كوكاكولا، يا ابي؟

- قد يكون من الافضل لو تكتفي بشرب نصفها.

- حسنا، انا متأسف لأني كنت بطيئا الى ذلك الحدّ .. ما كان عليّ أبدا أن ادع الطير يتسمر في مكانه.

- كان سربا سريعا، وقد طار على علو منخفض ياستيفي.

- ما كان لأحد أن يراه لو لم أكن بطيئا.

- لقد تدبرت أمرك جيدا.

- سأستعيد سرعتي. لا تقلق يا ابي. ليست الكوكاكولا هي ما سيبطىء من حركتي.

الطير الذى اصابه في ما بعد، مات في الهواء، بينما النابض رماه اثناء الطيران الى الحفرة التى في الانحدار. الكل استطاع ان يرى الرشقة الثانية تصيبه قبل أن يصل الى الأرض.

لم يطر الطير اكثر من متر واحد خارج الفخ.

عاد الصبي حين قال احد الرماة من الركن «كانت ضربة سهلة يا ستيفي».

والصبي يهز رأسه ويرفع بندقيته، وينظر الى لائحة النتائج.

كان هناك اربعة رماة يسبقون والده. ذهب لملاقاته «لقد استعدت سرعتك»، قال والد الصبي.

- سمعت صرير باب الفخ، قال الصبي. لا اريد أن اشتت انتباهك يا ابي تستطيع أن تسمعها كلها لكن الفخ الثاني اصدر جلبة مضاعفة عن ذاك الذى سبقه. كان عليهم تشحيمهما. لكن احدا لم ينتبه لذلك على ما اعتقد.

- اصوب دائما تبعا لصرير الفخ.

- بالتأكيد. واذا كان هناك الكثير من الضجة، فالتصويب الى اليسار، الكثير من الضجة الى اليسار.

لم يوفق والده بطير من الفخ رقم ٢ خلال الجولات الثلاث التى تلت. وحين وفق بواحد، لم يسمع صرير الفخ واصاب الطير في الرشقة الثانية، وكان الطير قد اصبح بعيدا جدا. اذ لامس الحاجز قبل سقوطه ميتا وكانت الضربة موفقة.

«يا الهي، يا ابي، انا متأسف، قال الصبي. لقد شحموها، كان ينبغي أن اغلقها.

جرى ذلك الحديث بينهما خلال الليل الذى تلا المباراة الكبرى العالمية والاخيرة للرماية اذ قال الصبي: «لست افهم كيف يمكن لأحد أن يخطىء حمامة».

- لا تقل ذلك أبدا لأحد غيرى، قال الاب.

- لا .. اني اقصد ما اقول. ليس من سبب واحد لتفشل ولو رمية واحدة...

الهدف الذى اخطأته، لامسته مرتين، لكنه سقط خارج الحدود.

- بهذه الطريقة بالذات، انت تخسر.

- افهم ذلك جيدا . اذ هكذا خسرت. لكني لا افهم كيف يخطىء رام جيد ولو هدفا واحدا .

- ربما قد تتمكن من الفهم في غضون العشرين سنة المقبلة.

- لم ارد أن اجرح مشاعرك، يا أبي.

- لا بأس، قال الأب. لكن لا تقل ذلك لأى كان.

كان يفكر بذلك حين راح يتساءل عن قصته لن يصبح راميا ماهرا دون تعليم أو دون نظام.

في الوقت الحاضر، تراه قد نسي كل التدريب الذى تلقاه. نسي كيف يتم ذلك، حين راح يخطىء الطيور، نزع الوالد عن ابنه القميص ليريه البقعة الزرقاء التى ارتسمت فوق كتفه في المكان الذى اسند اليه بندقيته بشكل خاطىء. خلصه من ذلك بارغامه على النظر دائما الى كتفه ليكون واثقا من ثبات البندقية قبل اطلاق الطير.

نسي قاعدة الثقل على القدم الامامية، وقاعدة الرأس المنخفض، كيف تعلم أن ثقل جسدك يثبت على القدم الامامية، ذلك برفع كعب القدم اليمنى.

الرأس منحن، صوّب وأطلق النار بسرعة. الآن لا تهم النتيجة كثيرا . اريد أن تنال منها حال اطلاقها من الفخ. ولا تنظر أبدا الى شيء آخر غير منقار الطير. اتبع المنقار بعينيك لتسدد جيدا اذا كنت لا تستطيع أن ترى المنقار فسدّد حيث يفترض ان يكون المنقار. ما أنتظره منك الآن هو السرعة.

كان الصبي راميا رائعا بالفطرة لكنه درّبه ليجعل منه راميا بالغ المهارة. وفي كل سنة حين يصطحبه ويدعه يبدأ الرماية وفقا لسرعته، كان يصيب ستة أو ثمانية اهداف من أصل عشرة، بعد ذلك وصل الى تحقيق تسع اصابات من أصل عشرة، عجبا اجعل منها عشرين من عشرين كي لا تكون محبطا من الحظ .. وحده الذى في المحصلة يختار الرماة الماهرين.

لم يطلع والده أبدا على القصة الثانية. وما كان راضيا عنها في آخر العطلة الصيفية. قال انه لن يريها لاحد قبل التثبت من نجاحها التام. وحين ينتهي من كتابتها سيرسلها الى والده.

لقد امضى عطلة رائعة، ومن بين افضل العطل التى سبق أن امضاها .. قال الصبي، كما كان سعيدا لتمكنه من قراءة كتب كثيرة، وشكر والده لأنه لم يدفعه كثيرا الى الكتابة، اذ في النهاية العطلة هي العطلة، وهذه العطلة كانت جيدة ومن بين افضل العطل التي قد سبق وأمضاها، ولأنهما امضيا معا حتى الآن افضل الأوقات على الاطلاق.

ولم يقرأ والده القصة التى نالت الجائزة الا بعد مضي سبع سنوات. وجدها في كتاب حين كان يفتش عن قصص غيرها في غرفة الصبي.

حين رآه علم مصدر القصة. تذكر شعورا بألفة تدوم، قلَّب صفحات الكتاب، وجدها هناك، لم يتبدل فيها حرف، وتحمل العنوان نفسه، داخل كتاب فيه قصص جيدة جدا لكاتب ايرلندي. نسخها الصبي حرفا حرفا واعتمد العنوان الاصلي.

خلال السنوات الخمس الاخيرة - سبع سنوات تفصل صيف القصة المطبوعة عن اليوم الذي وجد فيه الاب الكتاب - لم يقم الصبي بكل ما يمكن أن يكون غبيا وكريها، فكر الأب. فعل ذلك لأنه مريض، قال الأب لنفسه وحقارته ناجمة عن المرض. كان جيدا حين وصل الى ذلك الحدّ.

لكن كل شيء بدأ قبل عام واحد أو اكثر من آخر صيف. في الوقت الحاضر يعلم أن الصبي لم يكن أبدا جيدا . هكذا فكر مرارا وهو يحاول رؤية الاشياء ثانية.

وكان محزنا أن يعرف أن الرماية لا تعني شيئا على الاطلاق.

الفرق بين الفقير والمسكين

هناك كلمات إذا اجتمعت كل كلمتين منها كان المعنى واحدا، وإذا افترقتا كان لكل منهما معناها الخاص بها، من ذلك: الإسلام والإيمان، والصدقة والزكاة، والفقير والمسكين .. الخ.

فإذا قلت عن رجل إنه مؤمن وسكت، أو قلت إنه مسلم وسكت، فلا فرق بين الكلمتين، لكن لو قلت إن فلانا مؤمن مسلم فهناك فرق بينهما، ومن قال هذه صدقة مالي، أو قال هذه زكاة مالي فلا فرق، لكن لو قال هذه زكاة وصدقة فهناك فرق بينهما، فالزكاة هي الواجبة والصدقة هي التطوع.

ولما كان لهاتين الكلمتين دخل في الفقه؛ لأن الله تعالى جعل لكل منهما حقا في الزكاة، في قوله تعالى **{إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها}**[١] الآية.. فقد اختلف اللغويون والفقهاء في الفرق بينهما على أقوال كثيرة، قال القرطبي[٢]:

واختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمسكين على تسعة أقوال: فذهب يعقوب بن السكيت والقتبي ويونس بن حبيب: الى أن الفقير أحسن حالا من المسكين، فقالوا: الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذى لا شيء له، واحتجوا بقول الراعي:

أما الفقير الذى كانت حلوبته
وفق العيال فلم يترك له سبد

وذهب الى هذا قوم من أهل اللغة والحديث منهم: أبو حنيفة والقاضي عبد الوهاب.

ومعنى الوفق من الموافقة بين الشيئين كالالتحام، يقال: حلوبته وفق عياله أي لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه، قاله الجوهري.

وقال آخرون: بالعكس فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير، واحتجوا بقوله تعالى: **{أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر}**[٣] فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر، وربما ساوت جملة من المال، وعضدوه بما روي عن النبي {صلى الله عليه وسلم} أنه تعوذ من الفقر[٤]، وروي عنه أنه قال «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا»[٥] فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لتناقض الخبران، إذ يستحيل أن يتعوذ من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ حالا منه، وقد استجاب الله دعاءه وقبضه وله مال مما أفاء الله عليه، ولكن لم يكن معه تمام الكفاية، ولذلك رهن درعه[٦] قالوا: وأما بيت الراعي فلا حجة فيه لأنه إنما ذكر أن الفقير كانت له حلوبة في حال، قالوا: والفقير: معناه في كلام العرب المفقور الذي نزعت فقَرُه من ظهره من شدة الفقر، فلا حال أشد من هذه، وقد أخبر الله عنهم بقوله {للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض}[٧] واستشهدوا بقول الشاعر[٨]:

لما رأى لبدُ النسور تطايرت
رفع القوادم كالفقير الأعزل



د. ياسين بن ناصر الخطيب

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

أي : لم يطق الطيران فصار بمنزلة من انقطع صلبه ولصق بالأرض، ذهب الى هذا الأصمعي وغيره، وحكاه الطحاوي عن الكوفيين، وهو أحد قولى الشافعي وأكثر أصحابه، وللشافعي قول آخر أن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما في المعنى وان افترقا في الاسم، وهو القول الثالث، والى هذا ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، وبه قال أبو يوسف.

قلت : ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير وأنهما صنفان إلا أن أحد الصنفين أشد حاجة من الآخر، فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفا واحداً والله أعلم، ولا حجة في قول من احتج بقوله تعالى {**أما السفينة فكانت لمساكين**}[٩] لأنه يحتمل أن تكون مستأجرة لهم، كما يقال هذه دار فلان إذا كان ساكنها وإن كانت لغيره، وقد قال تعالى في وصف أهل النار {**ولهم مقامع من حديد**}[١٠] فأضافها إليهم، وقال تعالى: {**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**}[١١] وقال صلى الله عليه وسلم: «من باع عبداً وله مال»[١٢]، وهو كثير جداً يضاف الشيء إليه وليس له، ومنه قولهم: باب الدار، وجل الدابة، وسرج الفرس وشبهه، ويجوز أن يسموا مساكين على جهة الرحمة والاستعطاف، كما يقال لمن امتحن بنكبة أو دفع الى بلية: مسكين، وفي الحديث (مساكين أهل النار)[١٣].

وقال الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم
عليها تراب الذل بين المقابر

وأما ما تأولوه من قوله عليه السلام (اللهم أحيني مسكينا)[١٤] الحديث رواه أنس فليس كذلك، وإنما المعنى هاهنا التواضع لله الذى لا جبروت فيه، ولا نخوة، ولا كبر، ولا بطر، ولا تكبر، ولا أشر، ولقد أحسن أبو العتاهية حيث قال:

إذا أردت شريف القوم كلهم
فانظر الى ملك في زي مسكين
ذاك الذي عظمت في الله رغبته
وذاك يصلح للدنيا وللدين

وليس بالسائل لأن النبي {صلى الله عليه وسلم} قد كره السؤال ونهى عنه[١٥] وقال في امرأة سوداء أبت أن تزول له عن الطريق «دعوها فإنها جبارة»[١٦]، وأما قوله تعالى: {**للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض**}[١٧] فلا يمتنع أن يكون لهم شيء، والله أعلم.

وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعي في أنهما سواء حسن، ويقرب منه ما قاله مالك في كتاب ابن سحنون، قال الفقير: المحتاج المتعفف، والمسكين السائل، وروي عن ابن عباس، وقاله الزهري واختاره ابن شعبان، وهو القول الرابع.

وقول خامس: قال محمد بن مسلمة: الفقير الذي له المسكن والخادم الى من هو أسفل من ذلك، والمسكين الذي لا مال له.

قلت : وهذا القول عكس ما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ـ وسأله رجل ـ فقال ألسنا من

فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال : فإن لي خادما، قال : فأنت من الملوك[١٨].

وقول سادس : روي عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين، والمساكين من الأعراب الذين لم يهاجروا، وقاله الضحاك.

وقول سابع : وهو أن المسكين الذي يخشع ويستكن وإن لم يسأل، والفقير الذي يتحمل ويقبل الشيء سراً ولا يخشع، قاله عبيد الله بن الحسن.

وقول ثامن : قاله مجاهد وعكرمة والزهري: المساكين الطوافون، والفقراء فقراء المسلمين.

وقول تاسع : قاله عكرمة أيضا: أن الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين فقراء أهل الكتاب.

وهكذا تبين اختلاف الفقهاء في هاتين الكلمتين: الفقراء والمساكين.

(قلت) والله أعلم أنهما سواء لا فرق بينهما، كما قال الشافعي في قوله الثاني، وجلُّ أصحاب مالك، وأبو يوسف، صحيح أن الواو في الآية للعطف، وهو يقتضي المغايرة، لكن الواو عند النحاة ـ وإن كانت للعطف ـ فهي لمطلق الجمع، وهنا قد جمعت بينهما الحاجة الى المال، فجمع الله تعالى بينهما في الآية التى فيها توزيع الزكاة. والله أعلم.

الهوامش :

(١) التوبة/ ٦٠

(٢) تفسير القرطبي ١٦٨/٨ ـ ١٦٩

(٣) الكهف/ ٧٩

(٤) صحيح ابن حبان ٣٠٥/٣، المستدرك للحاكم ٧٢٥/١ موارد الظمآن ٦٠٥/١ سنن أبي داود ٩١/٢.

(٥) المستدرك للحاكم ٣٥٨/٤، سنن الترمذي ٥٧٧/٤، مجمع الزوائد للهيثمي ٢١٢/١٠، سنن البيهقي الكبرى ١٢/٧.

(٦) صحيح البخاري ١٠٦٨/٣، صحيح ابن حبان ٢٦٢/١٣، سنن الترمذي ٥١٩/٣، سنن البيهقي الكبرى ٣٦/٦.

(٧) البقرة/ ٢٧٣.

(٨) البيت للبيد بن ربيعة أنظر ديوانه.

(٩) الكهف/ ٧٩.

(١٠) الحج/ ٢١.

(١١) النساء/ ٥.

(١٢) المنتقى لابن الجارود ١٥٩/١، سنن الترمذي ٥٤٦/٣، سنن البيهقي الكبرى ٣٢٤/٥، مسند الإمام الشافعي ٢٣٥/١، موطأ الإمام مالك ٦١١/٢، سنن أبي داود ٢٦٨/٣.

(١٣) تفسير الطبري ج: ٢٢، ص: ١٤٠ عن قتادة عن أبي السوداء قال «مساكين أهل النار» لا يموتون لو ماتوا لاستراحوا.

(١٤) تقدم.

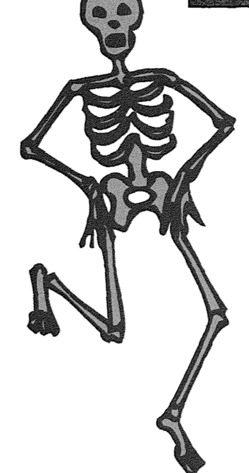
(١٥) صحيح البخاري ٥٣٧/٢، صحيح مسلم ١٣٤١/٣، صحيح ابن حبان ١٣ م٢٧، صحيح ابن خزيمة ١٠٤/١.

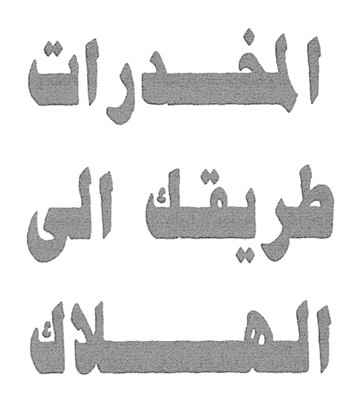
(١٦) مجمع الزوائد ج:١ ص:٩٩، عن أنس بن مالك قال: مر النبي {صلى الله عليه وسلم} في طريق ومرت امرأة سوداء فقال لها رجل: الطريق فقالت: الطريق ثم فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} «دعوها فإنها جبارة» رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلي، وفيه يحيى الحماني ضعفه أحمد ورماه بالكذب.

(١٧) تقدم.

(١٨) صحيح مسلم ج:٤ ص:٢٢٨٥.






المخدرات
طريقك الى
الهلاك



سيرة أحمد بن أبي طولون

شذرات الذهب

ألف أبو محمد عبد الله البلوى كتاباً يجمع نوادر ابن طولون التاريخية، ويذكر قصصاً واقعية رويت عنه، وقد أخذ عليه محقق الكتاب الأستاذ محمد كرد على أنه أفاض في مآثر ابن طولون ولكنه طوى كثيراً من مؤاخذاته الباطشة، وهذا حق، ولكن الذى يشفع للمؤلف أنه لم يكن بصدد تاريخ واقعى لأعمال بطل من أبطال التاريخ، ولكنه كان قصاصاً يذكر أحداثا رآها أو رويت عنه، ولو كتب مؤلفه على منهج المؤرخين، لذكر كل ما يجب أن يقال، على أن فيما ذكره من القصص ما يصح أن يكون مجالا للمؤاخذة، وبخاصة قصص القتل والتعذيب، وسبيلنا الآن أن نذكر من نوادر الكتاب ما يفى بحاجة القارىء العجول.

(مع العمرى الثائر عليه):

قام عبد الرحمن العمرى بتشكيل جيش يحارب به من يقف في سبيله، وقد اهتم ابن طولون بأمره، وأرسل جندا لمحاربته، وطالت الحرب دون جدوى، وبعد شهور أتى إليه غلامان من أتباع العمرى ومعهما سقط يحمل رأس العمرى مقتولا، وأرادا بذلك أن يحصلا على مَغْنم كبير من ابن طولون، بل ربما تخيلا أنهما سيصبحان من كبار رجال الدولة نظراً لما قاما به من قتل العمرى، أما ابن طولون فقد أحضر من رجاله من يعرف العمرى معرفة شخصية ليشهد على الرأس أهو له أم لغيره، فتأكد أن القتيل العمري، وعند ذلك سأل ابن طولون الغلامين، هل آذاكما العمرى فى شىء وقد كنتما من كبار خاصته؟ فقالا لا: قال هل غيَّر حاله معكما فخفتما على أنفسكما؟ قالا لا: قال: ولماذا أقدمتما على قتله ولم يفعل ما يوجب ذلك؟ قالا: نبتغى الحظوة لديك ونكون من كبار أعوانك، وأنت ملك مصر! فقال: يجب أن يقتص منكما، لأن الذى يغدر بصاحبه دون جرم أسلفه، سيغدر بغيره اذا استطاع ذلك؟ وأمر بضرب عنقيهما! وصلبت جثتاهما، ثم أمر برأس العمرى فغسل وطيب، وشيع في مشهد عظيم!

(عزوفه عن الشهوات)

قالت (نعت) أم ولد أحمد بن طولون، كان عندى جوار من الحسناوات لم أر أجمل منهن فشوقته إليهن، ووصفتهن وصفا بديعا، فقال أعرضيهن علىّ، فجعل ينظر الى كل واحدة، ويقول: حسنة جدا، جميلة جدا، ثم جعل بعد الانتهاء، يبعث بكل واحدة الى قائد من قواده هدية له، قالت نعت، فاغتظت غيظا شديدا، وقلت له: أأقدم إليك هؤلاء وهنّ على ما ترى من الروعة والجمال، فتذهب بهن إلى القواد؟.

فتبسم وقال لي : أراك مغيظة مما فعلت، قالت نعم، قال فاسمعي: إن رغبتى الآن ليست في الحسان وخلوات النساء، إنما رغبتى في حراسة مملكتى، والسهر على دولتى، وهؤلاء القواد هم عدّتى، وأسباب نجاحى، وينتسبون اليّ انتساب الأبناء إلى الآباء، وشهواتهم مقصورة على الأكل والشرب والنساء، فأنا أوثرهم بما يحبون ويشتهون، كما أنهم يؤثروننى بنفوسهم في أشد الأوقات فيبذلون أنفسهم فدائى، ثم قال لها : اعلمى أننى أجد في فهم الرجال، واستعدادهم الشخصى لقبول الأعباء، مالا أجده في ملذات الطعام والنساء!

د. أبــــو حســــــام
- المنصــــورة -

(فى ظلمات السجون)

قال أحمد بن طولون لأحد خاصته، اختر لى شابا صادقا أميناً، لعمل خاص يقوم به، قال صاحبه: فجعلت أتفرس فيمن أعرف، حتى اخترت شابا من أشجع وأذكى وأحسن من عرفت، فتقدمت به الى ابن طولون، ثم خلا به ساعة، ورجع فأمر بضربه عشرين سوطا مبرحا، ثم حمله الى السجن ، فتحيرت، ولم أجرؤ أن أسأل الأمير، وظللت مشغولا بما جرى دون أن أعرف له سببا، وبعد عشرة أيام، جاء الشاب فطرحه الأمير على الأرض وضربه عشرين سوطا، وبعث به الى السجن، فجعلت أقلب كفي، وأنا أقول: سبحان الله، ولا أدرى سببا معقولا لما أراه وبعد شهرين، جاءنى الشاب في مظهر أخّاذ، وأخبرنى أنه أصبح ذا ضيعة غالية وقصر عظيم بفضل رعاية الأمير، فقلت له أخبرنى بأمرك فقال: حين خلوت مع الأمير أول ما عرفتنى به، قال لى: إن في السجن جماعة من أعدائى، وأريد أن أعرف ما يقولون عنى، فسأظهر أنك معاقب، وسأضربك بالسياط، وأبعث بك لتعيش مع هؤلاء فتعلم ما يقولون وما يدبرون، وحين يرونك مضروبا بالسياط لن يشكوا في أمرك، وسيتخذونك صديقا، لا يسترون عنك شيئا، ثم فعل بي ما رأيته وذهبت الى السجن، فلم يشك هؤلاء في أنى أحد أعداء ابن طولون، ثم حبس الأمير قوماً آخرين في محبس آخر، واضطر الى عقابى مرة ثانية لأصنع ما صنعت في المرة الأولى، وقد وفق الله فعلمت أسرار هؤلاء وأولئك، وأبلغت الأمير بكل ما رأيت وسمعت، فغمرنى بعطفه وأنعم عليّ بما أنعم.

(في جنازة خادعة)

نظر أحمد بن طولون من قصره الى مشهد جنازة تمر أمامه، فأمر بإيقاف الجنازة، وإحضار الميت فلما رآه، قال هذا جاسوس ويريد أن يهرب من الحرس الى الخارج دون أن يشك أحد فيه، فاختار الهرب عن طريق افتعال جنازة يكون هو الميت بها كيلا يثير الريب، فقال له أصحابه أيها الأمير، وكيف عرفت ذلك؟ قال لم أسمع من الصائحات الصارخات ما يدل على حسرة وحرقة. ولم أر في المشيعين من يظهر الأسف فأردت أن أتحقق، ثم أنى لما كشفت عنه وجدت رجله قائمة، والميت تسترخى رجله، فعرفت أنه حي يتصنع الموت.

(رأفة وإشفاق)

قال بعض خدمه، ركب مولاى في يوم بارد، فرأى بشط النيل صياداً عليه ثوب لا يكاد يواريه ومعه صبى في مثل حاله، وقد ألقى شبكته في البحر، ومكث ينتظر، فرق لحاله، وقال لي: ادفع لهذا المسكين ثلاثين دينارا، فتأخرت حتى دفعتها إليه، ولحقت به، وفي رجوعه نظر الى الصياد فوجده ميتاً، وابنه يبكى ويصيح، فظن مولاى أن بعض الأشرار قد قتله ليأخذ النقود، فسأل ولده فقال: إن أبى لم يزل يُقَبّل الدنانير حتى سقط ميتا، ففتش الميت فوجد الدنانير في جيبه لم ينقص منها شيء، فأراد إعطاء المال للصبي، فأبى، وقال: هذه قتلت أبى، فماذا أصنع بها؟ فقال ابن طولون لخادمه: المال يحتاج الى تدبير، وهذا الصياد لم يحمل دينارا في جيبه، فحين وجد ثلاثين دينارا لم يتمالك شعوره وفاضت روحه، ثم دعا القاضى، وقال له، اكتب للصبي قدرا كافيا من المال يجرى عليه كل شهر، كيلا يفقد نفسه إذا أخذ المبلغ جملة واحدة، وفرح الصبى حين علم أنه سيقبض أجرا معلوما في ابتداء كل شهر، وسيكتفى به هو وأخوته وأمه.

(شيخ في الثمانين)

كان من عادة ابن طولون أن يحضر الفقراء الى داره، ويقيم المآدب الحافلة بأكرم المطاعم، وينظر إليهم من الشرفة العالية وهم يأكلون، فيرتاح كثيرا، وقد لحظ أن شيخا كبيرا في حدود الثمانين قد جمع بعض الطعام حين انتهى الناس من الأكل، ووضعه في لفافة

صغيرة، ونهض يسير، فاعترضه بعض الحجاب، وجعل يغمزه حتى سقطت اللفافة وتبعثر ما بها، ونظر الشيخ حائرا، فنهض ابن طولون من مكانه وسأل الحاجب: لماذا صنعت هكذا بالشيخ المسكين، فارتبك، وقال أردت مداعبته، فقسا عليه في الكلام وأمره أن يعد مائدة حافلة بأشهى المأكولات ويحملها على رأسه ويذهب بها مع الشيخ الى منزله، ثم دعا المسكين وقال له: كم لك من العيال فقال خمس بنات بلغن سن الزواج، وثلاثة غلمان وأم، فقال ولماذا لم يتزوجن، فقال الشيخ يا مولاى أنا فقير والناس لا يصاهرون الا الأغنياء، فأمر له بمائة دينار يشترى بها بضاعة يتاجر فيها قدر طاقته ويعاونه أولاده، ثم أمر خازن المال أن يجهز بنات الرجل الخمس جهازا يصلح للعروس الكريمة، مع ما ينبغى لهن من الثياب والحلى، ومنح كل غلام خمسين دينارا تكون رأس مال خاص به، ورجع الشيخ الى منزله وهو لا يصدق أن ليلة القدر قد فتحت له بما حباه ابن طولون من كرم.

(أحد الخابطين في الظلام)

مرّ أحمد في جولاته الليلية، وكان الليل قد انتصف، فسمع ضجة على بعض الأبواب، وكلما ارتفع الضجيج نبح كلب فأزعج الناس، وتكرر ذلك، فأمر غلمانه أن يبحثوا الأمر، فوجدوا رجلا يقرع باب منزله، وأهله نائمون لم يشعروا بالقرع المرتفع، ولا بنباح الكلب، فساقوا الرجل الى ابن طولون فكاد يغشى عليه لما نزل به من الفزع، فقد حرَّم ابن طولون السهر خارج المنزل على العامة والخاصة، فلما مثل بين يديه سأله عن سبب خروجه الى هذا الوقت، وأين كان؟ فقال يا مولاى: لي أصدقاء من طبقتى أشغل وقتى بالحديث معهم لأن النوم لا يعتادني كثيرا، والذى شجعنى على ذلك، أن الأمير حفظه الله قد نشر الأمن في المحروسة ليلا ونهارا، فلا يجرؤ أحد أن يقوم بعمل سيء خيفة من بطش الأمير، وقد كنا من قبل أن شرف الله مصر به نحذر المسير ليلا لاضطراب الأمن وفساد الرعية، ولكن همة الأمير العالية بعثت في نفوسنا الاطمئنان والحمد لله رب العالمين.

سرّ الأمير بما سمع، وقال إن فصاحة لسانك، وحسن اعتذارك قد كانا لك خير شفيع، فاذهب الى أهلك، فإنهم لا محالة قد جزعوا عليك حين بلغهم طلبى لك، ولكن عليك ألا تبرح المنزل. وتسير في الطرق ليلا فتحسب من قطاع الطريق، وينزل به أشد العقاب!

(مع رجال الشرطة)

جمع ابن طولون رجال الشرطة، وقال لهم: إنى أمرّ ليلا بمنازل الأغنياء ثم أنتقل الى منازل الفقراء فأجد الشوارع التى يسكنها الموسرون حافلة بالزمر والطرب، وأشم رائحة الخمور، ولولا أنى أوثر السلام لدخلت عليهم بيوتهم، وفعلت بهم الأفاعيل، ولكنى أقول: ما داموا مستترين في المنازل فلا بأس.

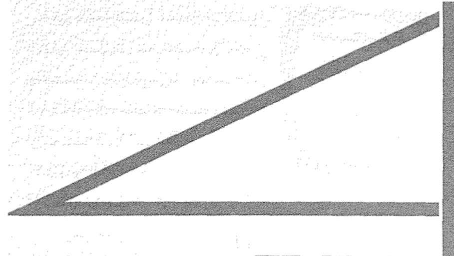
أما منازل الفقراء فلا أمرّ بشارع من شوارعهم إلا سمعت كتاب الله يتلى، والناس مجتمعون في المنزل يستمعون، كما أنى أحيانا أستمع الى واعظ يأمر بالبر، وينهى عن المنكر، فإذا أذن الفجر خرجوا جميعا الى المسجد، وصلوا وأنا معهم دون أن يشعروا بى، أما الأغنياء فلا يخرج منهم أحد الى بيت الله، ولذلك آمركم أنكم إذا رأيتم في أحياء الأغنياء من يحمل شراب خمر أو أداة لهو، فاعتقلوه، وكافئوه أسوأ المكافأة، وإذا رأيتم في أحياء الفقراء رجلا مسالما يذهب الى بيت جاره فاتركوه فقد ذهب الى استماع القرآن، والتأدب بالمواعظ الحميدة!.

وسار القوم على هذا السنن مستجيبين لأمر ابن طولون.

(ملاحظة للأستاذ كرد على)

أخذ الأستاذ محمد كرد على على البلويّ أنه استحل في كتابه أن يأخذ أخبارا وقصصا من غيره دون أن ينسبها إليه، وعدَّ ذلك مصدر خطأ خُلقى وعلمى، ثم قال إن الله كافأه بمن فعل صنيعه به، لأن المقريزى المؤرخ الأشهر، قد سطا على أكثر ما ذكره البلوى وسجله في مؤلفاته دون أن يشير إليه فكانت واحدة بواحدة.

وأنا أقول: إن التأليف في الزمن الغابر كان جمعاً لدى الكثيرين، دون أن يتحرى أحد نسبة القول الى مصدره، فالكل مؤاخذ وليس البلوي وحده.



أسطر في الفن
والابداع والكلمة
المنتقاه..
نستخرجها من
صفحات (المنهل)
عبر عقوده
الماضية.. نعيد
قراءتها معاً..
نستعيد بها إبداع
السالفين ممن
مضوا.. والباقين
ممن احتضنت
المنهل أقلامهم.. ما
أروع وأبدع وأجمل
أن يقلب المرء
صفحات ظنها
طويت، وكم تكون
القراءة الثانية
أعمق دهشة من
الأولى.



الصحافة والفن والحياة العامة

من طبيعة النظرة العينية أو السماع الاذنى التأثير على الشعور القلبي والاحساس النفسي، ومن طبيعة هذين أيضاً توجيه مجرى الحياة الفردية والاجتماعية الى هذه البواعث بعد الاعتقاد التام بصحتها وصدق روايتها أو حقيقة نظريتها.

وهذا التوجيه العام والتأثير الطبيعي هما اللذان يغيران النظرة الى المجتمع الحيوى تعبيراً حقيقياً لا أثر فيه للوهم والشك؛ ولا مجال للظن والارتياب - ومن ذلك تنتج هذه الاعتبارات الصحيحة في التفريق بين العصور المتقدمة والمتأخرة والاوضاع الفنية والهيئات النظرية قبحاً وجمالا، ضعة وسمواً، خطأ وصحة. وتحت قيود هذه الاعتبارات، وفي حدود هذه الاعترافات يعيش المجتمع البشرى راضخاً لاحكامها معترفا بصحتها واعتدالها؛ منخدعا بفتنتها وجمالها.

هيهات للفن اليوم يفوز بطيب السمعة وسمو الذكر وتقدير الرأى العام دون أن يكون للصحافة أقوى تأثير وأبعد فعالية في ذلك.. أجل إن الصحافة اليوم هي لسان الفن، كما انها لسان الحياة، والناس يقولون ان (الحياة الفن والفن الحياة) واذن فالصحافة والفن والحياة اشياء لا يمكن أن تنفصم اليوم عن بعضها ولا تتباين عن اتصالها، مهما تباينت التعاريف اللفظية واختلفت المعاني العرفية والفردية التى تميز كل لفظ على حدته، وتفضل كل معنى عن قبيله في حدود اللغة، وتحت نطاق الاصطلاح لاظهار الفرق المعنوى بين اللفظ ومقارنه.

وحقيق أن الصحافة لا يمكن لها ان تسيطر على حياة المجتمع سيطرتها الادبية وأن تتمركز في مقامها المعروف دون أن تستعمل الفن - الذى هو وحى الحياة ونبراسها الوضاء - في بلوغ ذلك، وتستخدمه في الوصول الى شتى المبتغيات ومختلف التمنيات التى تعلق عليها (صاحبة الجلالة) آمالا واسعة وتنيط بها أموراً كبيرة تمكنت من الوصول الى بعضها، ولم تزل تعدو في أثر البعض الآخر.

وقد اصبح الحديث عن الصحافة والفن هو عين الحديث عن صاحبة الجلالة وصاحب السمو والجلالة والسمو؛ لفظان لهما مالهما من الامتياز والتفوق بين الفاظ العظمة والجمال، وينطوى تحتهما معنيان قد لا يضارعان بغيرهما، اذا شاعت سياسة التضارع ان تسلك في موازنتها سبيل الحق والاعتدال.

وان كان هناك فروق كبيرة بينهما، مصطلح عليها في التعاريف الدولية والسياسية إلا أن ذلك الفرق وهذا التباين سرعان ما ينمحيان ويتلاشيان امام النظرة الأدبية والفنية، إذ يظهران أمامها بمظهر الزمالة والاتحاد في اكثر الظروف أو في جميعها.

هذا ما تيسر لنا أن نكتبه في موضوع الصحافة والفن بمناسبة صدور هذا الجزء الممتاز من صحيفتنا (المنهل الغراء) من ناحية، ومن ناحية أخرى ليستطيع القارىء أن يدرك مدى ما استطاعت أن تصل إليه هذه المجلة الفنية في عددها هذا، حين ينظر إليها نظرته الصحفية الفنية في نشاط وبشر وانشراح.

(حسين عرب - مكة المكرمة)

المنهل/ذو الحجة ١٣٥٦هـ

الكتب والصحف التي أنصح للناشئة بمطالعتها

استفتاء طلب مني الاجابة عليه الاستاذ «الانصاري» صاحب (المنهل) وعلل طلبه بقوله «تنويراً للاذهان وافادة للقراء». وأنا لا ادري - ولست أخال أدري - مع احترامي لحضرته، واعتقادى بصراحته، هل التعليل على ظاهره، أم له «بطن وظهر»؟!! لأنني أعتقد أن عالمنا تصدق عليه تسمية الفيلسوف «احمد التنوخي»: عالم معكوس من بعض النواحي، والا فما الذى حدا بالانصارى الى استفتاء مثلي في هذا الموضوع المهم الخطير الكبير، الذى لست من رجال الاجابة عليه، ولعله استسمن ذا ورم، وحينئذ فلا عتب عليَّ حينما أدعو له منشداً

أعيذها نظرات منك ثاقبة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولو كان بيني وبينه عداوة - أو صداقة على رأى حكيم الشعراء: منها ما يضر ويؤلم - لقلت: انه أراد الانتقام منى بحيلة لطيفة، تعجز أقدر عالم وأعرفه بطرق الانتقام والدهاء، لانني بسبب الاجابة، سأبرز في فضاء رحب، تتعاورني فيه السهام من كل جانب، أو سأدخل في مأزق ضيق؛ لا أستطيع الخروج منه الا موتوراً، إذ من لازمها - أى الاجابة - تفضيل كتب وصحف على أخرى؛ بل ارضاء قوم واغضاب آخرين، حكم ان لم يكن حقيقة فماذا يكون موقفى من اصحاب الكتب والصحف المفضولة؟!! وماذا يكون موقفهم مني؟!... الجواب بديهي؛ أو بدهي كما يقول الانصاري واللغة العربية بمعنى أصح، وليعذرنى الاستاذ حينما أصرح له بانه - عفا الله عنه - قد سعى في ضررى وهو لا يعلم، أو يعلم ويظهر الجهل عملا بقول «صلاح الدين الصفدي» (من فطنة في الفتى إظهار غفلته) - لأنه أوقفني موقفا حرجا ليس لدى من المقدرة والمؤهلات، ما أستطيع به التخلص والخروج من ذلك الموقف ولو (كفافا لا عليَّ ولا لي) ولكن:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
لعزة من أعراضنا ما استحلت

هذه مقدمة استرسل بها القلم عفواً - من دون تمهل - وهي تحت رحمة القراء؛ يعللونها كيف شاؤا وبما شاؤا، ولهم أن يقولوا - بلسان القوم الغضاب - وأوافقهم على قولهم: انك كطائر صغير، أطال وقوعه فوق شجرة عظيمة، بقصد مضرتها، فلما تعب من طول وقوعه قال موجها الكلام اليها: ان كنتُ قد آلمتك فاخبريني لأطير؟! فأجابته: لم أعلم بوقوعك حتى أحسّ بألمه.

ولهم أن يصفونى وصفا صادقاً، ازاء موقفى في اجابة سؤال الأنصارى، بذلك الطائر الابله المسكين الذى ينخدع بمجرد سماع كلمات الاغراء والمدح فيخر ساقطا بين يدي خادعيه - ان صدق «الدميرى» - وماذا يضيرنى من كونى بتلك الصفة وسادتنا العلماء يروون «المؤمن غر غافل» وابن السماك الشاعر يقول: (وما فاز باللذات غير المغفل)؟؟

أجل سأجيب على ذلك السؤال، وسأبذل قصاراى في اتخاذ الحيطة، واعداد العدة لارضاء نفسى والانصارى، والقراء والناس أجمعين، وبعد ذلك لا أهتم - ولن أهتم - بما ينالنى أو اناله من ضير أو خير:

وعليَّ أن أسعى وليس عليَّ ادراك النجاح

(حمد الجاسر - ضبا)

المنهل/ رجب ١٣٥٧هـ

سمو الامير عبد الله الفيصل ينجح بتفوق في اختبار شهادة الدراسة الابتدائية

زفت الينا انباء أم القرى أنه جرى تأليف لجنة خاصة في مديرية المعارف العامة، لتقوم باختبار صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله نجل حضرة صاحب السمو الملكى نائب جلالة الملك فيصل المعظم. وقد تشرفت اللجنة باداء مهمتها فاختبرت سمو الأمير في مواد دراسة الشهادة الأبتدائية، وكانت النتيجة السارة نجاح سموه بتفوق في جميع مواد الدراسة ورفعت النتيجة الى المقامات السامية فتلقتها بالبشر والابتهاج. ونحن نعلن اغتباطنا لهذا النجاح ونقدم اخلص التهاني لسمو الأمير الألمعي، ونرجو لسموه دوام التقدم والنجاح.

المنهل/ شوال وذو القعدة ١٣٥٧هـ

ما هو أثر الأدب الحديث في هذه البلاد؟

الاثر الذى أحدثه ويحدثه الأدب الحديث،. أو الأدب الجديد في هذه البلاد كبير الى حد بعيد، وضئيل الى حد بعيد أيضا، ولعل هذه احدى المفارقات في حياة الشعوب التى تقع فيها مضطرة حسب المؤثرات التى تطرأ عليها.

أثر كبير لدى الذين طالعوا هذا الأدب، وتثقفوا ثقافة تساعد على هضم ما ينتج، وهؤلاء لا يتجاوزون الحفنة من الاشخاص؛ وهم الذين فتحوا أعينهم لا على تاريخ الخميس واعلام الناس ونوادر جحا، بل فتحوا أعينهم على الكتاب الكريم، يتفهمون آدابه وأحكامه وروائع بيانه؛ وعلى السنة المشرقة يترسمون بلاغتها وحكمتها، وعلى تواليف العباقرة والنابغين يقرؤنها ويُحكّمون آراءهم فيها نفيا واثباتاً، ويتذوقون الشعر العالى، المطرب للعجب، ويعرفون أن لهم ماضياً حافلا بالمجد، وانهم مسؤولون عن مستقبل يجب أن يعملوا له، ليسعد الشعب ويعتز الوطن، ويرتفع شأن الدين الحق، والخلق الفاضل، ثم هم بعد يرسلون الشعر قصائد مشرقة البيان، رائعة السبك، جليلة المعاني، ويكتبون الكلمات حافلة بالروح الطيب، داعية الى نهضة جديدة، ونهضة جديدة: من بعض معانيها الادب الحديث أو الجديد. أفليس أن كل نهضة أساسها أدب يدعو لها ويؤثر فيها، بل ويكيفها ويلونها مما هو معروف في كل دور من أدوار التاريخ وفي كل أرض؟! فحوادث التاريخ متشابهة متشابكة، ومن هنا جاء قولهم: (التاريخ يعيد نفسه).

ويظهر أثر الأدب الحديث كبيراً جداً في هذه السيطرة التى سيطرها على أقلام أدبائنا فهم قد تقمصوه واندمجوا فيه حتى كادوا ينسون أدبهم القديم، وحتى انهم لم يكتبوا عن كثير من مظاهر طبيعة بلادهم وآثار بلادهم، فكأنهم لما يتأثروا بوسط الصحراء والجبال والخيام والبداوة.. هذه قصائد العواد وشحاته وغيرهما لن تجد فيها شيئا يدلك على أنها قيلت في هذه البيئة، بل انها لتدل على الروح العام للنهضة الحديثة في العصر الحديث لرجال المدرسة الحديثة؛ وهذا (وحى الصحراء) - وليس لهما فيه شيء - لا أجد فيه للصحراء وحياً ؛ أفليس هذا من أثر الادب الحديث، أو النهضة الحديثة التى أثرت في هؤلاء أثراً كبيراً جدا؟!.. وانك لعليم بأن هؤلاء لهم اثرهم بعد، مما يدعونى الى الحكم بأن للادب الحديث أثره الكبير، وكما هو كبير لدى هؤلاء فان له قوته عند عشرائهم واخوانهم فلو انك نظرت في عشراء السيد شطا وحمزه شحاته والآشى وابى عبد المقصود والعامودى والانصاري وحسن كتبي والعواد واحمد العربي وعنبر وامين بن عقيل ومن اليهم لوجدتهم قد زادتهم ثروتهم من الالفاظ الفصحى ينطقون بها ويتداولون البحث فيها.

(محمد حسين زيدان)

المنهل/ ذو الحجة ١٣٥٧هـ

هل الحروب تطوي الحضارات أم تنشرها

سؤال وجيه يدل على اتجاه الأدباء الى الحرب، والاهتمام بها كمادة من مواد التفكير الأدبي، ومهما يكن جوابه اكان سلبا أم ايجابا، أي سواء قرر انطواء الحضارات من جراء الحرب أو قرر انتشارها، فان التفكير في الحرب والسلام ظل وسيظل موضع اهتمام الأدب.

وتعليل ذلك واضح، فالحضارات بأنواعها: الحضارات المادية التى تنتج وسائل العيش المترف، والحضارات المعنوية التى تنتج وسائل القراءة المترفة مثلا، كلها موضوع من موضوعات الأدب ومادامت للحروب صلة بالحضارات - وهبها صلة تدمير أو صلة تعمير - فانها أصبحت قطعياً من اجزاء الموضوع الأدبي المحض.

اقرر هذا قبل الجواب لما لعله ينشأ عن هذا السؤال الذي يوجهه المنهل الى الكتاب من تفكير في دخل الحروب في بحث الأدباء وهو سؤال آخر يخطر للبديهة فتجيب عليه البديهة بما لا يخرج عما سبق شرحه في افتتاح هذا الكلام.

فالحروب حركات هدامة يقصد منها - من وجهة نظر معلنيها على الاقل - إيجاد أسس وأوضاع جديدة في عالم العمران، أو نشر أسس اخرى في المبادىء والمذاهب، اجتماعية كانت أو سياسية أو دينية، فغايتها ازالة القديم المبغوض واحلال الجديد المرغوب محله في النفوس أو البقاع، وغير لازم في منطق الحرب أن يكون لجديدها المبشر به أصلح أو أروع من القديم المزال وانما اللازم هو ان المحارب «يريد» هذا معتمداً في تنفيذه على فكرة خاصة.

فالحروب تنشر الحضارة ولا تطويها إذا كان القائمون بها ذوي حضارة مقررة بغيتهم *التبشير* بها وابرازها من الخيال المختمر الى الحقيقة الواقعة.

أما حروب الهمج فكم طوت من حضارات نافعة، وكم طوحت بأسس صالحة الى مهوي بعيد في عالم الفناء، وان حصل في بعض الاحيان عكس النتيجة بان كان في تلك الحضارات المطوية جراثيم لولا الحرب لنخرت في جسمها بالفساد فطوتها بدون أن تطويها الحرب..

فحروب التتر والمغول لا يمكن القول بانها نشرت حضارة ما في البلاد الاسلامية أو غير الأسلامية مما اكتسحته من بلاد.. ذلك لأن المغول والتتر ليسوا ذوى حضارة يهمهم نشرها في الأمم وانما وكدهم من الحرب سد عوز الفاقة أو اشباع غريزة التملك والقهر.

أما إذا ثارت حرب متبادلة بين المتحضرين فانها رغم ما تتلفه من أرواح ومواد ينجم عنها تأييد حضارة قديمة أو نشر حضارة محدثة تولدها حاجة الامم اليها أو تولدها ارادة المتحاربين أن ينشروا قواعد الحضارة.

فالحرب العظمى - وهى حرب متبادلة بين متحضرين برغم دعاياتهم السياسية الموجهة من فريق ضد الآخر - افادت العالم اكثر مما اخرت به ونشرت حضارات كانت تنقصها عناصر أو كانت تنقصها حركات تفاعلية تؤدى بها الى الانتاج والصلاح.

هذا ما نقرره جواباً على هذا السؤال، ولكنه لا يتناول النتيجة التى تنجم عنه وهي انه ما دامت الحروب تنشر الحضارات حسبما مر بيانه فلماذا الدعوة الى السلام؟؟

نعم ان حكمنا لا يتناول حكم السلام، فالسلام مرغوب فيه اذا قامت في النفوس عقيدة خلو الحرب من انتاجه أخيرا او قلقلتها لاركانه الثابتة.

(محمد حسن عواد)

المنهل/ جمادى الآخرة ١٣٥٩هـ





د. عبدالعزيز ادريس الخطابي
- المغرب -

هل تنهض الرواية العربية، في الوقت الذي ينطفىء وميضها وتتضاءل قيمتها الى الحد الذي يتم فيه اشهار موتها؟!

لقد اعلن النقد الاوربي منذ ستينيات هذا القرن، حين اعلن الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» موت الرواية على المستوى النقدي التنظيري، رغم انه أصدر عددا من الروايات الهامة، لم يتحدث عنها ربما لأنها مجرد استكمال لفلسفته، ولا ينبغي النظر اليها الا باعتبارها كذلك، وفي هذا السياق أشار سارتر الى ما يكتب في الغرب من روايات إن هو إلا ضرب من «الآلة الجهنمية» على حد تعبيره ـ التى يصح اعتبارها تأملا في أفول الرواية واستحالتها اكثر منها روايات.

بهذا القول دلل سارتر على افول الرواية وانطفاء الافق الروائي في الغرب!

أما عند «موريس بلانشو» فان الرواية تأتي ضمن سياق عام يقول بنهاية الأدب أصلا، وذلك ضمن الافق الفلسفي القائل بنهاية التاريخ.

هذان الموقفان اللذان ينعيان التاريخ والحضارة دون الاشارة الى انهما انما يتحدثان عن تاريخ معين وحضارة معينة هي الحضارة الغربية، وبالتالي فان التعميم يوقع في الخلل الذي تنتجه النظرة الى الأمور بعين واحدة.

ومن اجل ذلك فان الناقد الفرنسي البلغاري الأصل «تفيستان تودوروف» في كتابه (نقد النقد) يسخر من هذه النظرة القاصرة ويقول بأن مؤشرات موت الحضارة الغربية ينبغي الا تقودنا الى التسليم بأن كل شيء قد انتهى حقا، وبصورة مطلقة.

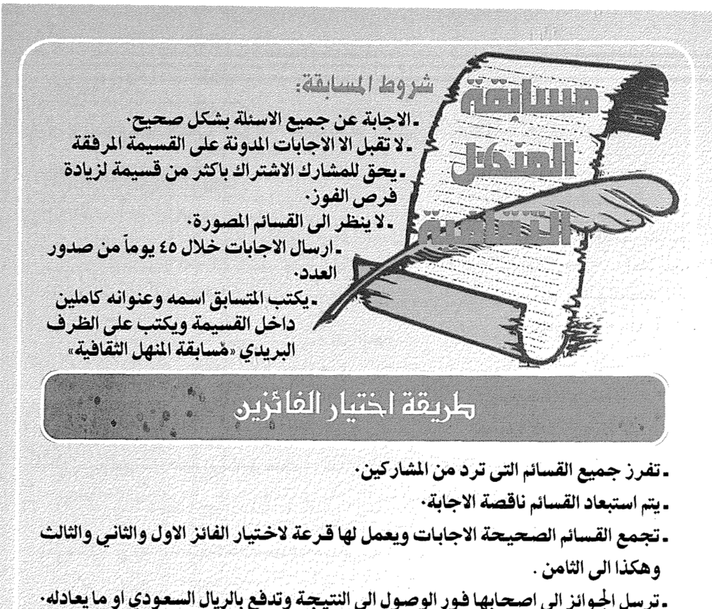
«تودوروف» ينتبه الى ما تحققه الرواية في بلدان العالم الثالث من انجازات فكرية وفنية، خصوصا في امريكا اللاتينية، حيث تنحت ملامح جديدة لرواية تضرب جذورها في الواقع وتقيم معمارا فنيا مذهلا كأنه بناء روائي لزمن استمر قرون عديدة قبل أن يولد.. وحين شهدت أوروبا أفول الرواية تحقق ميلادها في العالم الثالث، حيث قرأ العالم «استورياس» (صاحب رواية السيد الرئيس الشهيرة) و«ارنستو ساباتو» «مبدع صاحبة الوشم» و«ماركيز» (صاحب مائة عام من العزلة، خريف البطريك، والحب في زمن الكوليرا).

واذا كانت الرواية تعيش نزعها الأخير في الغرب، فهذا لا يعني بالضرورة أن الأمر على نفس الشاكلة بالنسبة للمجتمعات الأخرى، فنحن لا ينبغي أن نسلم بمقولات الخطاب الغربي، دون مساءلته عن بداهته فيما يتعلق بمقولة نهاية التاريخ الغربي.. هذا اذا كان ثمة نهاية، وهي مفرطة في قصورها وسذاجتها، عندما تجنح الى الصراخ بنهاية التاريخ وافوله «ليس تاريخ الغرب ولكن تاريخ العالم، وكأن تاريخ الغرب هو تاريخ العالم، وان نهايته هي نهاية كل تاريخ!!».

إذن فمسألة الموت والأفول واندحار القيم يظل متعلقا بخواء الحضارة الغربية وعجزها وافلاسها، وعلى النقد أن يستكمل مراسم الدفن ليلتفت الى حيث تتفتح آفاق جديدة في الفكر والابداع، وليس في امريكا اللاتينية فقط كما أشار «تودوروف» ولكن في الوطن العربي أيضا.

وعندما يتخلص الغرب من عقدة نعي الذات والاكتفاء بالنحيب على قبرها، ليبدأ بقراءة ما ينتجه غيره شعرا ورواية وأدبا، فإنه بلا شك سيجد آفاقا جديدة للابداع تكفكف دموعه، وتسكت صراخه، وتضيء له عالما آخر كان باستمرار يعتقد أنه ليس الا هامشا من الهوامش عديمة الجدوى والفعالية.

فهل يتوقف صراخ الثكالى لتبدأ رحلة الكشف والاكتشاف، ونتلمس مؤشرات المستقبل في ابداع جديد وثري وخلاق يكتبه مبدعون من أمم العالم الثالث ويقدمون من خلاله الاجابة الحقيقية عن اسئلة العصر، بدل هذه الاجابات الكئيبة التى يبشر بها نعاة الحضارة الغربية؟.



شروط المسابقة:

- الاجابة عن جميع الاسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل الا الاجابات المدونة على القسيمة المرفقة
- يحق للمشارك الاشتراك باكثر من قسيمة لزيادة فرص الفوز.
- لا ينظر الى القسائم المصورة.
- ارسال الاجابات خلال ٤٥ يوماً من صدور العدد.
- يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملين داخل القسيمة ويكتب على الظرف البريدي «مسابقة المنهل الثقافية»

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التى ترد من المشاركين.
- يتم استبعاد القسائم ناقصة الاجابة.
- تجمع القسائم الصحيحة الاجابات ويعمل لها قرعة لاختيار الفائز الاول والثاني والثالث وهكذا الى الثامن .
- ترسل الجوائز الى اصحابها فور الوصول الى النتيجة وتدفع بالريال السعودي او ما يعادله.

جوائز المسابقة

الجائزة الاولى : ١٠٠٠ ريال
الجائزة الثانية: ٧٠٠ ريال
الجائزة الثالثة: ٥٠٠ ريال
الجائزة الرابعة: ٤٠٠ ريال
الجائزة الخامسة: ٢٥٠ ريال
الجائزة السادسة: ١٥٠ ريال

الجائزة السابعة: اشتراك سنوي في المنهل .

الجائزة الثامنة: مجموعة اعداد متفرقة من المنهل، وبعض اصدارات الدارة.

الاسم : .... **السن:** ....

العنوان : ....

نتيجة سحب جوائز مسابقة المنهل الثقافية العدد (٥٨٨)

الفائــزون :

١ـ **العلوى فاطمة الزهراء** ـ المغرب ـ فاس

٢ـ **اسراء محمد حسن** ـ السعودية ـ المنطقة الشرقية

٣ـ **خان عطية ضيف الله عيال سلمان** ـ الاردن ـ الطفيلة

٤ـ **ليلى بنت صالح بن عبد الجليل** ـ تونس ـ مساكن الشرق

٥ـ **مصطفى محمد امين** ـ مصر ـ كفر الشيخ

٦ـ **عبد الله صدوق** ـ المغرب ـ الدار البيضاء

٧ـ **محمد محسن احمد اسماعيل منجي** ـ مصر ـ الشرقية

٨ـ **هدية عبد المقصود محمد** ـ مصر ـ محافظة الشرقية

ستنشر نتائج مسابقة المنهل الثقافية للعدد (٥٨٩) في العدد (٥٩١) .. وذلك لاتاحة اكبر فرصة للمشاركين.

قسيمة مسابقة العدد (٥٩٠)

ضع علامة ✓ امام الاجابات الصحيحة..

١ـ اشتهر علم التحنيط لدى قدماء :

☐ **المصريين (الفراعنة)** ☐ **الأشوريين** ☐ **اليونانيين**

٢ـ عند دخول العلم عصر «الثورة الصناعية» كان يعيش على الارض ما يقرب من «   » من الكائنات الحية.

☐ **مئات الألوف** ☐ **مليون** ☐ **بليون**

٣ـ انشأ الخليفة المأمون في بغداد معهداً رسمياً للترجمة:

☐ **العام ٨٢٠م** ☐ **العام ٨٢٥م** ☐ **العام ٨٣٠**

ابحث عن الإجابات داخل هذا العدد..

المنهل

مجلة العرب

الأدبية الثقافية

اسم العدد	تاريخ صدوره
الفن	شعبان ورمضان ١٤٠٤هـ
الأمن والأمان	شعبان ورمضان ١٤٠٥هـ
الهجرة، اللغة، التراث، الحضارة	ربيع الأول والثاني ١٤٠٦هـ
الثقافة العربية	شعبان ورمضان ١٤٠٦هـ
الدعوة والدعاة	ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٧هـ
الأثر والآثار	رمضان وشوال ١٤٠٧هـ
المبادىء البناءة والدعاوى الهدامة	ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٨هـ
العادات والتقاليد	رمضان وشوال ١٤٠٨هـ
مناهل الاشعاع الاسلامي	ربيع الثاني وجمادى الاولى ١٤٠٩هـ
الاستشراق والمستشرقون	رمضان وشوال ١٤٠٩هـ
مكة المكرمة .. المقام والارتحال	ربيع الأول والثاني ١٤١٠هـ
الابداع والمبدعون	شوال وذو القعدة ١٤١٠هـ
الحديث النبوي والقدسي.. رواية ودرايه	ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٤١١هـ
القرآن الكريم.. الهدى والاعجاز	ربيع الأول والثاني ١٤١٢هـ
الهجمة الفكرية والتصدي الحضاري	شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ
المدينة المنورة.. دار الهجرة ومَأْزِر الايمان	ربيع الأول والثاني ١٤١٣هـ
اللغة العربية .. آفاق مستقبلية	شوال وذو القعدة ١٤١٣هـ
القدس .. عروس المدائن	ربيع الاول والثاني ١٤١٤هـ
العمارة والمدينة الاسلامية.. عطاء ومدلول	جماد أول وجماد ثان ١٤١٥هـ
النقد - والنقاد	شوال والقعده ١٤١٦هـ
الجغرافية والجغرافيون	شوال والقعده ١٤١٧هـ
المملكة العربية السعودية فى مرآة المنهل	شوال والقعدة ١٤١٩هـ
الاسرة والمجتمع	شوال والقعدة ١٤٢٠هـ
التراث المعماري في الحضارة الإسلامية	شوال والقعدة ١٤٢١هـ
الاعلام .. الواقع والمستقبل	شوال والقعدة ١٤٢٢هـ
البيئة .. توازن ام اختلال	شوال والقعدة ١٤٢٣هـ

الاصدارات السنوية الخاصة



« متوفرة لمن يرغب فى اقتنائها » - الاتصال : ٦٤٣٢١٢٤ العلاقات العامة (جُدة)